
د. شريف شعبان
بنت صهيون
رواية
كيان للنشر والتوزيع

قومي ودوسي يا بنت صهيون،
لأني أجعل من قرنك حديداً وأظلافك أجعلها نحاساً فتسحقين شعوباً كثيرين
(سفر ميخا ١٣/٤)

الأربعاء ٥ فبراير ١٨٤٠ –دمشق

سطعت شمس هذا اليوم على مدينة دمشق الفيحاء وهي تنذر بانتشار وباء الجدري بين الأهالي.. فالمدينة رغم جمالها لكنها تعاني انتشار الجهل والفقر وقلة الوعي بين سكانها.

كان الأب توما ذلك القسيس الإيطالي صاحب اللحية البيضاء والوجه الأحمر السمح رغم تجاعيده، يقوم بدوره في التطوع لتطعيم أهالي دمشق.. فكان يسير على قدميه الهزيلتين مسافات طويلة يغوص بهما في برك الطين وسط الأمطار وجو الشتاء المقبض، ليتجول من منزل لآخر ليطعم الأطفال ويعالج الكبار، في الوقت الذي كان جميع الأهالي يكنّون له الحب والاحترام طوال ٣٣ سنة، مدة خدمته في أديرة دمشق بحب وإخلاص دون تفريق بين أديان أو طوائف.

كان يسير في الطرقات ويتجمع حوله الأطفال، فيضع يده في جيبه ويعطي لهم ما معه من حلوى، ويكسر قطع الخبز البسيطة ليشاركها مع فقراء دمشق.. كان الجميع يلتفون حوله يستمعون لنصائحه ويستزيدون من معرفته.. حتى عرف بينهم بالورع والخلق النبيل.. إلا أن هناك من كان يضغن له الحقد والبغضاء.. تلك الطائفة اليهودية بدمشق التي كانت تنظر إليه دائمًا نظرة غيرة وتحدٍ، ويرون فيه عدوّهم الأول.. يروّجون حوله الإشاعات المغرضة التي تنال من مكانته وشرفه ولا يصدقها أحد بالمدينة، ويضمرون له الكُره في تعاملاتهم معه وعباراتهم الساخرة منه وحتى في نظراتهم له.. لدرجة أنهم كانوا ينتظرون

مروره في الطرقات ليلقوا بالقاذورات في طريقه.. إلا أنه كان يقابل تلك الإهانات بابتسامة هادئة ووجه سمح، فينحني بظهره النحيل ليزيلها من الطريق.. بل إذا ما تعرض أحدهم لمشكلة لا يدّخر جهداً ليقف بجواره ويمد له يد العون.

وقد صادف وجود عيد البوريم الخاص بهم بعد ٩ أيام من ذلك اليوم.. وهو العيد الذي يصنعون فيه فطيرة ممزوجة بدم بشري كأضحية لإلههم، وتكريماً للملكة إستر اليهودية بعدما أنقذت يهود بلاد فارس من بطش الوزير الفارسي هامان، ومحاولته ذبحهم إبّان القرن الثالث قبل الميلاد، عندما فتنت ملك الفرس الأخميني "أرتاكسركسيس الأول" بسحر جمالها وجعلته ينقلب على وزيره وينحاز لبني جلدتها.

وفي ظهر ذلك اليوم قصد الأب توما حارة اليهود لتطعيم ولد يهودي من الجدري، فذهب هناك وهو يسير بمنتهى الهدوء والمحبة، معه أدواته كي يطعم الصبي.. وبعد الانتهاء من عمله مرّ ببيت صديقه اليهودي "داوود هراري"، ذلك التاجر اليهودي المرابي ذو البشرة الداكنة والملامح المعقدة والحواجب السميكة، والذي كان دائم التردد عليه والتودد إليه.. فوقف داوود أمام بيته ونظر إليه بعينين ضيقتين وطلب منه الدخول بصوته الأجش، فلبّى طلبه ودخل بحسن نية.. فوجد شقيقي داوود وعمه واثنين من الحاخامات، وقاموا باستدراجه لإحدى الغرف، وفجأة انقضّوا عليه وقيّدوه من قدميه ووضعوا منديلاً على فمه، وأخذوا يمطرونه بالسباب واللعنات اللاذعة.. فلم يكن يخطر بباله أنه سيكون ضحية صديقه اليهودي رغم الود الذي أكنّه له.

وعندما هلّ المساء استدعوا حلاقًا يهوديًا يُدعى سليمان، وكان نحيف الجسد له لحية خفيفة تظهر عروقه من تحت جلده، وأمروه بذبح القسيس، فأخرج سليمان من حقيبته موس حلاقة وأخذ يصقله ليكون حاداً ويذبحه بسهولة، لكنه نظر إليه وهو مقيد وقد خارت قواه من كثرة الضرب والتعذيب، فتردد قليلاً واهتزت يده بالموس.. فصرخ داوود في وجهه قائلاً: "إنه أممي ودمه حلال لنا"، وأخذ سكينًا حاداً وانهال عليه بوحشية في كل اتجاه، فقطع أوصاله وشق جذعه ولم تشفع عنده صرخات القسيس وتوسلاته.. حتى أتى أخوه هارون هراري وأتم عملية الذبح، ثم قاموا بتجميع دمه في قارورة كبيرة شفافة وهرع بها إلى الحاخام باشا يعقوب العنتابي في هيكل اليهود، والذي أمرهم بعملية الذبح.. وكان جالسًا داخل حجرة مظلمة على كرسي خشبي كبير ذي وسادة وثيرة، محفور عليه نجمة داوود ضخمة، مرتديًا عمامة سوداء كبيرة مطرزة بزخارف عربية، وعباءة سوداء واسعة مطرزة بخيوط ذهبية نباتية، وحزام حريري أحمر، ولحيته البيضاء الطويلة تتدلى حتى منتصف صدره.. جلس يترقبهما بعينيه الغائرتين بفارغ الصبر لحاجته إلى دم أضحية من أجل إعداد فطيرة عيد البوريم من دم أممي.

ومع مرور الوقت انتاب القلق الخادم إبراهيم عمارة خادم الأب.. فلم يكن يفارقه في أي عمل يقوم به أو أي مشوار يذهب إليه.. إلا أنه في ذلك اليوم الموعود خرج الأب توما على غير العادة بدون إبراهيم.. فشعر الخادم بانقباض في قلبه وتملّكه إحساس بالخوف على سيده، فهمّ للبحث عنه في الطرقات في وسط الليل حتى قادته قدماه الحافيتان إلى حارة اليهود وقاده معه

حظه الأسود.. فكان داوود في انتظاره هو وإخوته، فهم على معرفة أنه سيأتي حتماً للبحث عن الأب توما.. فقيّدوه وحملوه كالذبيحة وأدخلوه بيت جارهم اليهودي "يحيى ماهر فارحي". واستلّ هارون سكينه والذي كان أكثر دموية من أخيه رغم جسده الضئيل، وذبح إبراهيم هو الآخر ومزّق جثته إرباً وصفى دمه في قارورة أخرى بلورية الشكل وهم يتلذذون بمنظر تصفية جسده من دمه وهو ما زال فيه الروح.. يصرخ من شدة الألم ويتلوى وهو يرى جسده يتقطع أمام عينيه.

ووسط الظلام الدامس شقت خيوط البرق سماء دمشق بعنف وصوت الرعد زلزل أركانها.. حينها ذهب كل من داوود وهارون بها إلى الحاخام باشا يركبان عربتهما الخشبية يجرها حمار صغير عبر الطرقات الحالكة وأرضيتها الحجرية، في الوقت الذي كان يعد فطيرة العيد مع مجموعة من الحاخامات الصغار، على طاولة طويلة داخل حجرة كبيرة تضيؤها شموع شمعدان "المينوراه" ذي الأذرع السبعة، وهم يرتّلون عبارات من التوراه بصوت عالٍ، ويقرعون على المنضدة بعصي صغيرة، كلما ذكر اسم الملعون "هامان" وكأنهم يضربونه وينكّلون به.. حتى وصل إليه داوود وأخوه بالقارورة فحملها بعينين مملوءتين بالإعجاب والزهو ورفعها بيديه لأعلى وأخذ يصرخ: "الآن نستطيع الاحتفال.. ليكن دم هذا الأممي عهدنا للخلاص.. العهد الذي وعدنا به الرب.".

الخميس ٧ أغسطس ٢٠٠٣ – مطار بن جوريون بتل أبيب.

كانت الحركة في المطار على أشدّها وازدحم المطار بالعديد من الرحلات القادمة إلى إسرائيل من أوروبا والولايات المتحدة في

موسم الصيف للسياحة والعمل، حتى أذاع المذيع الداخلي بالمطار عن وصول الرحلة رقم ٣٠١ القادمة من أمستردام.. ووسط العديد من ركاب الرحلة خرج رجل طويل القامة يظهر عليه الوقار والهيبة ذو شعر فضي ولحية خفيفة تميل للبياض، ووجه وسيم يميل للحمرة في أواسط العقد الخامس من عمره.. كان الرجل يحمل حقائبه ويستعد للخروج من المطار، حتى وجد ثلاثة أشخاص في انتظاره يحملون لافتة عليها اسمه.. فاقترب منهم، فتقدم أحدهم قائلاً: "البروفيسير جيمس ماكلين.. أهلاً بك في إسرائيل".

خرج الدكتور ماكلين مع الرجال الثلاثة وركب معهم السيارة الدودج السوداء الضخمة، وجلس بجواره أحدهم يحمل مجموعة من الأوراق، وأخذ يحدثه قائلاً: "أنا اسمي تال.. سأكون مرافقك هنا في تل أبيب.. سوف تكون بضيافتنا هنا يومين حسب برنامج الرحلة، قبل أن تذهب إلى أورشليم لملاقاة الدكتور بن أهارون".

فابتسم الدكتور ماكلين وأخذ ينظر عبر نافدة السيارة ويراقب شوارع تل أبيب الواسعة ومبانيها الضخمة، بينما كان ذهنه شارداً وكأنه ينظر إلى معالم المدينة دون أن يراها.. فمر أمام عينيه شريط حياته وهو يتذكر "ليندا" زوجته، ذات الوجه الملائكي البريء والشعر البني الفاتح والعينين الزرقاوين واللتين رافقتاه في كل لحظة من لحظات حياته.. أخذ يتذكر يوم احتفالهما بعيد زواجهما الخامس عشر معًا وهما في قمة السعادة، وكأنهما في أول حياتهما، وسط أنغام الموسيقى خلال عشاء رومانسي بمطعم من مطاعم ميامي المطلة على المحيط، فقد اعتادا في كل سنة أن يحتفلا بعيد زواجهما في ذلك المكان.. يومها أهداها

قلادة ذهبية بها قلب يضم أول حرفين من اسميهما.. كان أسعد يوم في حياتهما.. قبل أن يغادرا المكان ويستقلا السيارة، حتى اصطدما بشاحنة كبيرة وسقطت زوجته وملأ دمها المكان ورآها ماكلين أمام عينيه وهي تحتضر، ولم يستطع أن يفعل لها شيئًا.. أخذ يتذكر كل شيء مضى وكأنه ليلة أمس.. بدأت يداه ترتعش وتتحجر مقلتاه وهي تحمل بعض الدمعات.. ولم يفق سوى على كلمات تال وهو يقول له: "لقد وصلنا إلى الفندق سيدي".

صعد الدكتور ماكلين إلى جناحه بفندق "رينسانس تل أبيب" ذي الخمس النجوم، والمطلّ على البحر المتوسط بشارع "هايركون".. وقال له تال: "سوف أتركك الآن، ولكننا سوف نتقابل في المساء، وإذا أردت أي شيء ستجد أرقامي في هذا الكارت".

أخذ يتجول الدكتور ماكلين في جناحه الفخم والمتكون من حجرة استقبال بها منضدة وتليفزيون، وأخرى للنوم بها "الميني بار"، والمجهزة بأحدث الأثاثات والتكييفات، بالإضافة إلى صورة قديمة لتل أبيب معلقة على حائط فوق السرير.. فلم يرَ من كل هذا سوى السرير الذي كان في حاجة ضرورية إليه بعد تلك الرحلة الطويلة والشاقة، التي بدأت من شيكاجو إلى نيويورك ثم أمستردام ومنها إلى تل أبيب.. فارتمى بجسده عليه دون أن يغيّر ملابسه، حتى دخل في سبات عميق لم يوقظه منه سوى صوت نقر على الباب.. فانتفض الدكتور ماكلين من مكانه وفتح الباب.. فوجد أحد عاملي الفندق وهو يقدّم له طبقًا فاخرًا من الفاكهة الطازجة وزجاجة شامبانيا، وهو يقول: "آسف سيدي على الإزعاج.. هذه هدية بسيطة من إدارة الفندق للشخصيات الهامة مثلكم".

فأخذها منه مبتسماً وقال: "لقد كنت فعلاً أحتاج إلى وجبة خفيفة من الفاكهة.. لقد جئت في موعدك". وأخرج من جيبه عشرة دولارات وأعطاها للعامل كبقشيش. فنظر إليها العامل بدهشة وانتشاء قائلاً:

"תודה רבה אדוני تودا رابا آدوني". أي أشكرك بشدة سيدي. وأخذها بسرعة ودفنها في جيبه ثم أغلق الباب.

أخرج الدكتور ماكلين من حقيبته مجموعة من كتبه ومؤلفاته العديدة عن التاريخ السياسي وتاريخ إسرائيل بشكل خاص، والتي ذاعت شهرته في هذا المجال على مستوى العالم، وأصبح له العديد من المحاضرات في جامعة شيكاجو ومعظم جامعات العالم.. ثم أخرج صورة له مرتدياً وسام "جوقة الشرف" للعلوم، أرفع وسام فرنسي، وهو يصافح الرئيس شيراك في إحدى زياراته لباريس.. فلم يكن هناك أقدر أو أشهر من الدكتور ماكلين في مجاله.. وإذا ما كان يحاضر تجد مئات الطلبة يملؤون المدرج ويتزاحمون فيه ليستمعوا له.. فيقف وسط صمت قاتل يشرح لهم تاريخ بني إسرائيل وعلاقتهم بأرض الميعاد. بينما تحملق الأعين فيه وتتبع آذانهم كلماته، وإذا ما قدّم محاضرة عامة كالتي قدّمها في مبنى مكتبة "داج همرشولد" التابعة للأمم المتحدة أو الكلية الملكية للفنون بإنجلترا. فيكون الحجز مقدماً، وتكون القاعة ممتلئة عن بكرة أبيها، ويزيد معجبوه ومريدوه يوماً بعد يوم.

خرج إلى الشرفة وأخذ ينظر إلى شاطئ البحر المتوسط المرمري المزدحم بالمُصيّفين ولونه الأزرق الداكن بأمواجه المتلاطمة.. ثم

لمح رجلاً واقفاً أسفل شرفته ذا ملامح مريبة مرتدياً جاكيت أسود طويلاً رغم كون الجو حاراً.. يحملق في شرفة الفندق.. فدقق فيه الدكتور ماكلين النظر.. فلاحظ الرجل وجوده حتى انصرف خفية.

لم يمض الوقت حتى نزل الدكتور ماكلين من جناحه متجهاً إلى بهو الفندق، فوجد تال جالساً يقرأ في جريدة "معاريف" المسائية، وكان ذا جسد نحيل ووجه مليء بالبثور يحاول تغطيتها بلحية خفيفة وشعر طويل يلفه من الخلف بشكل ذيل حصان.. فاقترب منه وحيّاه بالعبرية قائلاً: "ערבטוב.. عريفتوف" أي مساء الخير.. فانتبه تال وهمّ واقفاً ورد:

- ערבטוב.

فقال الدكتور ماكلين مبتسماً:

- يبدو أنني قد أرهقتك اليوم.. إنك لم تغادر الفندق.

فرد تال قائلاً:

- نحن جميعاً في خدمتك دكتور ماكلين.. ولكن يبدو أنك تجيد العبرية بطلاقة، فقد رأيتك تتحدث مع موظف الاستقبال بالعبرية.

فابتسم الدكتور ماكلين قائلاً:

- لقد درست العبرية منذ مدة طويلة.. كما أنها ليست أول مرة أزور فيها إسرائيل.
- لكنني أعتقد أنها قد تغيّرت عن آخر مرة كنت بها.. ما رأيك في نزهة

بالسيارة لترى فيها جمال تل أبيب؟

فرد الدكتور ماكلين:

– بكل ترحاب.

فخرج كل من الدكتور ماكلين وتال وقاما بجولة في الشوراع المزدحمة.. ينظران إلى الناس والأسواق التجارية والمباني العالية وأنوارها المبهرة ليلاً. والملاهي والمراقص ذات الأصوات الصاخبة التي تعج بالشباب والفتيات والعديد منهم يخرج مترنحًا.. ففي هذا الوقت من العام تكتظ تل أبيب بالسائحين وتكون مقصداً سياحيًا عالميًا، كما أنها فترة إجازات، مما يجعل سكان تل أبيب ينطلقون في الشوارع.. ذلك الخليط العجيب غير المتجانس من البشر.. فترى مختلف الألوان ما بين أبيض وأسود وحنفصي وأشقر.. شباب وبنات وعائلات يرتدون الشورتات والتي شيرتات إما مكتوب عليها عبارات

I Tel aviv أو مرسوم عليها نجمة داوود أو مناظر من إسرائيل.. حتى رجال الدين يتجولون وسط الناس بملابسهم السوداء وقبعاتهم الكبيرة ينظرون إليهم باشمئزاز.

سار كل منهما خطوات بعدما نزلا من السيارة، حتى وصلا إلى مجمع مبانٍ ضخم ذات ارتفاع شاهق، عبارة عن ثلاثة أبراج طولية بتصميمات مختلفة، أحدها دائري ويضم ٤٩ طابقًا، والثاني مثلث ويضم ٤٦ طابقًا، والثالث مربع ويضم ٤٢ طابقًا مخصصة كمكاتب إدارية وفنادق كبرى وأدوار سكنية، وفي منتصفها مركز تجاري

ضخم وسينما.. وقد أحيطت بأنوار برّاقة تشكل بوسط الأبراج الثلاثة شكل نجمة داوود مرسومة بالليزر، بينما شكلت إضاءات المباني شكل علم إسرائيل.. فاقترب منه الدكتور ماكلين بدهشة فلمح تال تلك الدهشة في عينيه ورد بفخر:

– هذا المبنى هو "مول عزرائيلي".. لمالكه ديفيد عزرائيلي، من أكبر المعماريين ورجال الأعمال هنا بإسرائيل.. والليلة يحتفل بمرور ٤ سنوات على إنشائه.

فأمعن الدكتور ماكلين النظر في أضوائه الملفتة، ثم أكمل تال قائلاً:

– هذا المكان من قبل كان مقلبًا للقمامة.. ولكن بفضل ديفيد عزرائيلي تحوّل إلى أكبر مول تجاري في الشرق الأوسط بتكلفة ٣٥٠ مليون دولار أمريكي.
– رغم أنني آتي إلى تل أبيب كثيرًا لكنني أراها تتجدد يومًا بعد يوم.

فابتسم تال قائلاً:

– ألم أقل لك؟! وماذا لو ذهبت إلى أورشليم! إنك سوف ترى جمال إسرائيل الحقيقي.

وما أن دخلا إلى المول.. حتى وجدا طوفان من البشر وهم يتسوقون داخل هذا المركز الرهيب، والذي يتكون من طابقين يربطهما مصاعد زجاجية ملونة وسلالم كهربائية، ويضم العشرات من المطاعم والمقاهي والمحلات ذات التوكيلات العالمية.. وفي المنتصف وجدا "بانر" بطول المول على شكل علم إسرائيل يتدلى من السقف إلى الأرض، وفي وسط المول

وقفت فرقة استعراضية تقدم عروضاً على موسيقى يهودية شعبية مثل موسيقى "مزراحي" التي تمزج الشرقي بموسيقى البحر المتوسط، وموسيقى "كليزمير" ذات الطابع الأوروبي الشرقي، بالإضافة إلى بعض الموسيقات الغربية المعاصرة.. بينما التف حولهم العديد من الشباب ليشاهدوهم ويرقصوا معهم.

وبينما هرب ذهن الدكتور ماكلين منه وهو يشاهد هذا الكرنفال الكبير اقترب منه تال كي يسمعه وسط الأصوات الصاخبة، وقال:

– اسمح لي أن أدعوك على عشاء شعبي بسيط.. بعض من الفلافل اليهودية.. إنها الأكلة الشعبية الأولى هنا في إسرائيل.

فأومأ الدكتور ماكلين برأسه موافقاً ودخلا إلى مطعم "فريشمان للفلافل والصبيح" للوجبات السريعة، مليء بالشباب والعائلات ويقدم وجبات شعبية جاهزة.. فأحضر تال مجموعة سندوتشات فلافل وصبيح وطبقاً من المخللات، وابتسم ابتسامة صفراء وقال بنبرة يهودي بخيل:

– هذه أكلة بسيطة لأنني أعرف أنك لا تحب الأكل الدسم في المساء.

فرد الدكتور ماكلين:

– أنا أعرف الفلافل اليهودية جيداً.. ولكنني لم آكل الصبيح من قبل.
– معقول لم تأكل الصبيح من قبل؟! إنها الأكلة الأشهر في إسرائيل.. إنه ساندوتش بالخبز الشامي محشي باذنجان مقلي وبيض وحمص وبطاطس وسلطة خضراء إسرائيلية تقليدية وعليه صوص "العمبا" الحار الشهير.. إنها

أكلة تقليدية دخلت إسرائيل مع خمسينيات القرن العشرين، وعادة ما كان يأكلها يهود العراق في الصباح، لذلك أطلق عليها هذه الكلمة ذات الأصل العربي.. ولكننا الآن نأكلها في أي وقت.

وأثناء تناولهما الطعام ارتسمت على وجه الدكتور ماكلين ملامح الإعجاب وهو يأكل، فعلق قائلاً:

– أرى الشوارع اليوم مزدحمة بشدة، ليس في المول وحده.. يبدو أن هناك شيئًا ما.

فرد تال:

– فعلاً.. غداً ستبدأ رأس السنة العبرية.. والناس معتادون على النزول في الشوارع قبلها وشراء كل ما هو جديد ابتهاجًا بهذه المناسبة.. سيظل هؤلاء الناس في الشوارع يرقصون ويحتفلون حتى طلوع الشمس.

فتساءل الدكتور ماكلين متعجبًا:

– ولكن.. ألا يشعرون بالخوف من هجمات إرهابية أو أعمال عنف.. خاصة في مثل ذلك اليوم؟

فرد تال بقوة:

– سيدي، أنت هنا في إسرائيل.. بلد الأمن والحرية.. الجميع يمكن أن يصنع ما يريد دون أي رقابة أو خوف.. كما أننا قادرون على حماية وطننا من هؤلاء العرب الإرهابيين.. إنهم يريدون إفساد حياتنا علينا دون أي

سبب.. كما ترى كم نحن شعب مسالم نحب الحياة ولا نطيق العنف! لكن العرب لا يريدون أن يرونا سعداء في وطننا.. المهم أتمنى أن تكون تلك الدعوة قد لبت ذوقك.. وإن كانت ليست على مستوى ذوقك الكلاسيكي.

فرد الدكتور ماكلين مبتسمًا:

– عزيزي.. إنني لا أهتم بالمكان بقدر ما أهتم بشعوري به.. لقد زرت العديد من الأماكن الراقية ودخلت عشرات القصور.. إلا أن مصدر السعادة عندي لا يأتي من فخامة المكان، ولكن من شعوري بالراحة والاطمئنان.. وأنا أشعر أن راحتي ستكون في مكان ما هنا.

وبعد أن أنهى الدكتور ماكلين طعامه قام من مكانه في عجلة قائلاً:

– أشكرك عزيزي تال على ذلك العشاء الجميل.. ولكن اسمح لي أن أعود للفندق.. فأنا معتاد على النوم مبكرًا ولا أستطيع السهر.

فضحك تال وقام هو الآخر، وما أن خرجا من المطعم حتى لاحظ الدكتور ماكلين وجود أشخاص بهيئات غير عادية، يرتدون ملابس شبيهة ويضعون سماعات في آذانهم ويحملقون فيه من بعيد رغم الزحام الشديد. أشبه بمن كان ينظر إليه في الصباح.. فلم يعرهم انتباهًا وتظاهر بعدم وجودهم.. وعادا إلى الفندق.. فلم يصعد الدكتور ماكلين مباشرة إلى جناحه، ولكنه أخذ يتمشى على ساحل البحر بعد أن صبغه الليل بلونه الأسود، وأخذت أمواجه المتلاطمة تتسابق باتجاه الشاطئ ونسيمه

العليل الذي أخذ يستنشقه بقوة فاتحًا ذراعيه وهو يملأ به صدره.

ومع صباح اليوم التالي.. استيقظ الدكتور ماكلين مبكرًا وصعد إلى الشرفة، وأخذ يتطلع لمنظر الشاطئ الهادئ والمارة به ذوي العدد غير القليل رغم الوقت المبكر.. فاستعد للنزول لممارسة رياضة المشي على شاطئ البحر.. فوجد تال جالسًا بالبهو يشرب القهوة.. فذهب إليه الدكتور ماكلين مندهشًا وقال:

– ما الذي أتى بك في ذلك الوقت المبكر.

فابتسم تال ابتسامة صفراء قائلاً:

– نحن نعرف أن يومك يبدأ مبكرًا.. ففكرت أن نستغله في برنامج مكثف اليوم.

فرد قائلاً:

– يبدو أنك شديد الذكاء.. تال.. إنك تلميذ نجيب لصديقي بن أهارون.

فرد تال فخوراً وقد لمعت عيناه:

– كلنا تلاميذ الدكتور بن أهارون.. إنه علآمة، وقد أخرج من تحت يديه أجيالاً متفوقة ليس في التاريخ فحسب.. بل في كل شيء.

وركب كل من الدكتور ماكلين وتال السيارة.. وانطلقت عبر شارع "هاتآروخا" الذي يعبر نهر العوجا أو نهر "ناحال هياركون"، ومن ثم إلى شارع "شاي عجنون" الرئيسي بوسط تل أبيب، حتى وصلوا

إلى مقر متحف "بلماخ".. فنزل كل من تال والدكتور ماكلين ودخلا المتحف ذا البناية الضخمة، المُصمّم من الخارج بأحجار صخرية صلبة تلقي على الزائر قدرًا من الرهبة. وعلى جانب المبنى شعار الحركة منقوش على أرضية دائرية فضية، ويرفرف أعلى المتحف علم وزارة الدفاع التابع لها المتحف وعلم إسرائيل.. فدخل الدكتور ماكلين من مدخل صغير إلى قاعة تضم مجسمات وصور لحركة البلماخ اليهودية وفرقتها العسكرية وبعض من أسلحتهم وأدواتهم، فوقف تال يشرح:

– هذا المتحف خصص لتمجيد تاريخ حركة بلماخ.. تلك الحركة التي ناضلت خلال أعوام من ١٩٤١ إلى ١٩٤٨ من أجل الاستقلال ومحاربة الإرهاب العربي وطرد هؤلاء الأوغاد.

فنظر الدكتور ماكلين إلى الصور نظرة عميقة ثم قال:

– من الواضح أنهم قد عانوا ليبنوا هذا المجد.. لقد درست الكثير عن البلماخ ولكنني لم أكن أتصور أنهم مكافحون لهذه الدرجة.

– البلماخ ليست مجرد جناح عسكري لحركة الهاجاناه[٢].. ولكنها شكلت العامود الفقري لجيش الدفاع الإسرائيلي الحالي، كما ظهر العديد من قادتها في مراكز قيادية في دولة إسرائيل حتى الآن، أمثال يجال ألون وموشي دايان وإسحق رابين.

فسار الدكتور ماكلين وهو يحملق في صور الألوية العسكرية المختلفة للحركة، من قوات بحرية وجوية، وبجوار كل صورة قصة للمعارك التي خاضوها، بالإضافة إلى المؤثرات الصوتية والضوئية التي تسحر الزائرين وتجعلهم يغوصوا داخل تلك المعارك

لتكسب تعاطفهم.. وملامح الانبهار تكسو وجهه دون أن ينطق بكلمة.. ثم أكمل تال قائلاً:

– شكلت البلماخ هوية المقاتل الإسرائيلي في جميع نواحي حياته.. وكان لها دور هام في حماية المستوطنات وتأمينها وترحيل الآلاف من يهود الشتات إلى الوطن الأم.. ولم تؤثر الحركة في الجيش فقط، بل في الحياة السياسية والثقافية.. فكانت ملهمة للعديد من قصص الأدب العبري ولها أغانيها الحماسية التي تُغنى حتى اليوم.

فرد الدكتور ماكلين:

– لن أنسى كتاب الكاتب الإسرائيلي الشهير "موشي شمير" (ذهب مع الحقول) والذي يروي فيه يوميات رجل البلماخ وتدريباته، ووصفه لروح الصداقة بين المقاتلين والطلائع.. كما أنني تعرفت على الشاعر الكبير "يهودا عميحاي" خلال فوزه بجائزة الإكليل الذهبي في مهرجان ستروجا الشعري عام ١٩٩٠.. وهو من أكبر شعراء البلماخ.
– روح البلماخ هي الروح التي أنشأت إسرائيل.. حياة التدريب والكيبوتس، الحرب والنار، والتضحية بالنفس: عبارات لن تسمعها إلا من رجال البلماخ.

ثم اقترب الدكتور ماكلين من صور لمجموعة نساء وهن تحملن السلاح وتمارسن التدريبات العسكرية وأعمال الإسعافات الأولية.. فأنزل نظارته نحو أنفه محدقًا فيهن وقال:

– شيء مشرّف أن تلعب المرأة دورًا هامًا في البلماخ.. أن تساند الرجل حتى في ميادين القتال.
– تاريخ النساء في البلماخ لن ينساه أحد في إسرائيل.. لن ننسى "برخا بولد" التي وقفت وحدها أمام مدرعة إنجليزية، حاولت منع سفينة المهاجرين اليهود

من الوصول إلى تل أبيب إبان فترة الانتداب.. لقت برخا مصرعها حيث لم تتعد التاسعة عشر من عمرها وكانت قائدة المجموعة إثر إطلاق النيران عليها، بعد أن أعلن أصدقاؤها رغبتهم في الاستسلام.. وغيرها وغيرها من قصص النساء المناضلات.

فاحمرّ وجه الدكتور ماكلين وتجمعت قطرات الدموع داخل عينه، التي تراقب الصور بتأثر شديد وكأنه أصبح جزءاً منها.. فاقترب منه تال وقال بصوت ضعيف:

– لقد قاسينا كثيرًا لنبني هذا الوطن.. كم دفعنا من دمائنا وشبابنا كي نعيش لنرى حلمنا يتحقق! كم ضحّينا من أجل أن يبقى ذلك الحلم! كل بيت في إسرائيل لا يخلو من قصة تشهد على كفاح ضد هؤلاء العرب الإرهابيين، الذين يريدون تجريدنا من حلمنا وحقنا في إقامة وطن لنا على أرضنا.

ثم سكت تال قليلاً وأكمل بصوت مخنوق:

– ربما نحن قد أتينا لنرى إسرائيل قوية الآن.. ولكن أجدادنا دفعوا ثمنًا غاليًا كي يؤسسوا هذا الوطن لنعيش فيما نحن فيه الآن.

ثم سارا عبر ممر ضيق إلى حجرة مظلمة ذات إضاءة خافتة، معلق على جدرانها صور لشهداء الحركة مصحوبة بموسيقى حزينة.. وقال تال:

– لقد فقدت الحركة أكثر من ١١٦٩ شخصًا ما بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٨ في سبيل إسرائيل.. أرأيت كيف ضحى هؤلاء من أجل أن نعيش؟! كيف ضحوا من أجل أن تعيش إسرائيل؟ كيف خضّبت دماؤهم العظيمة

أرضنا التي عدنا لنستردها من أيدي هؤلاء الوحوش.. إنهم عظماء.. بلا شك عظماء.

فاغرورقت عينا الدكتور ماكلين بالدموع وسقطت على خده وهو يحملق في صورة لجندي يهودي صريع وهو يحمل علم إسرائيل.. فرد قائلاً:

– هذا الوطن قد عانى كثيراً.. وها قد جاء الوقت كي يشعر الآخرون بتلك المعاناة.

– هؤلاء الأبطال قدموا أرواحهم فداءً لإسرائيل.. وإسرائيل ستتذكرهم إلى الأبد.

ثم صعدا إلى الطابق العلوي حيث توجد حجرة مخصصة لوثائق ومخطوطات البلماخ.. تلك الحجرة لا تفتح إلا لكبار الشخصيات.. فدخلا إلى الحجرة وجلس الدكتور ماكلين على طاولة بينما أخرج له الموظف المسؤول مجموعة من الوثائق التي تكشف حروب وبطولات البلماخ ضد العرب والمكاتبات السرية لقادتها.. فوجد خطاب استغاثة من مجموعة قتالية تطلب العون من مركز القيادة بعدما أمطرتهم القوات البريطانية بالنيران حتى لم يتبق منهم سوى رجل وامرأة.. بل إن المرأة ماتت من شدة الجوع والعطش ولم يجد الرجل شيئاً يساعدها به.. حتى استوقفته جملة في الخطاب وهو يقول بالعبرية:

"لم يعد أمامي حيلة أدافع بها عن زملائي.. حتى إنني تركت كل ما أملك من الماء والمؤن لحنّا (المرأة) ولكن القدر كان أسرع مني.. فإما أن تساعدوني أو ستكون يد الغدر أسرع منكم".

فلمح الموظف ملامح الانفعال قد ارتسمت على وجه الدكتور ماكلين فرد قائلاً:

– للأسف.. لم يرد أحد على هذا الخطاب، ولقيت المجموعة كلها حتفها على يد القوات الإنجليزية.. فقد وجدنا هذا الخطاب وسط أطلال الجموعة، بعد أن داهمتها القوات الإنجليزية.. هذا مثال بسيط لكفاح أفراد حركة البلماخ.

ثم أخرج له الموظف مجموعة من الصور النادرة لقتلى وجرحى البلماخ من رجال ونساء أثناء دفاعهم عن المستوطنات.. فوجد صورة لصاحب الخطاب مع مجموعته وهم ملقون على الأرض بعد مقاومتهم القوات الإنجليزية.. فارتعشت يدا الدكتور ماكلين ورد بصوت حانق:

– أنا لم أعد أحتمل أكثر من هذا.. لقد كافحتم كثيراً من أجل بناء هذا الوطن.

فرد تال:

– هذا أقل شيء يمكن أن نقدمه لأبطال البلماخ.

بعد أن أنهيا جولتهما بالمتحف.. خرج كل من تال والدكتور ماكلين بعد أن ظهرت عليه ملامح التأثر واحمرّ وجهه من شدة الانفعال وأخذ يمسح دموعه.. في الوقت الذي كان تال ينظر إليه بعينين ضيقتين يتفحص بهما جميع تعبيرات وجهه وأثر الانفعال عليه، وبعد أن ركبا السيارة استدار له تال وقال:

– أقترح أن نتناول وجبة الغداء على البحر.. يوجد العديد من مطاعم السمك الرائعة هناك.

فابتسم الدكتور ماكلين قائلاً:

– أصبحت تعرف ذوقي في الطعام أيضاً تال.

فانطلقا بالسيارة إلى مطعم "مانتراي" بساحل "ألما". وهو من أغلى وأفخم مطاعم "السي فود" في تل أبيب. كما أن أغلب رواده من الأجانب والسائحين.. فجلسا على منضدة على البحر مباشرة بينما كانت طيور النورس تحلّق حول المناضد كي تلتقط أيّا مما يمكن أن يتركه رواد المطعم.. فأحضر النادل مجموعة مختلفة من الأسماك والجمبري والاستاكوزا.. بينما لم يأكل منها تال غير الأسماك.. فنظر إليه الدكتور ماكلين بتعجب وقال:

– إنني لن آكل كل هذه الكمية من الجمبري والاستاكوزا وحدي.

فرد تال ضاحكًا:

– أنت تعرف أنه محرم علينا أن نأكل أي فقاريات مثل الجمبري وغيرها.. ولكن هذا المطعم في تل أبيب وهو مخصص للسائحين.. لذلك يمكن أن تجد فيه كل ما تشاء.. أما أورشليم فالوضع أكثر تشدداً من هنا.

فغمغم الدكتور ماكلين قليلاً بينما أكمل تال:

– لا تقلق؛ أنت شخص فوق العادة، والدكتور بن أهارون يوفر لك كل احتياجاتك في أورشليم.

فرد الدكتور ماكلين وهو يحتسي رشفة من النبيذ الأبيض:

- أتعرف تال! لم أر الدكتور بن أهارون منذ عشرة أعوام رغم أنه صديقي العزيز.. التقينا كثيراً في المؤتمرات الدولية ودعوته على العشاء عندما زارني في شيكاجو.. لم أر شخصاً في علمه وشخصيته الفذّة.. ولا تتخيل سعادتي عندما دعاني بن أهارون كي أعمل معه في الجامعة العبرية.
- ونحن يملؤنا الشرف بأن تعمل معنا دكتور ماكلين.. منذ أن عرفنا أنك ستأتي للعمل في الجامعة ونحن على أتم الاستعداد لاستقبالك بيننا.. أنت قيمة كبيرة في عالم التاريخ السياسي.

فأومأ برأسه في تواضع وأنهى غذاءه.. بينما رد تال:

- أعتقد أنه وقت الشاي الإسرائيلي المنعش بالنعناع.
- فعلاً نحن نحتاجه بعد تلك الوجبة كي يهضم السمك.

أخذ الدكتور ماكلين رشفة من الشاي، ورائحة النعناع تداعب خياله مصحوبة بنسيم البحر جعلته ينطلق بوجدانه، وعيناه معلقة بالسماء الزرقاء المفتوحة، تغطيها أجنحة النورس البيضاء.. حينها تذكر طيور النورس على ساحل ميامي.. المكان المفضل لليندا.. حين كان يأخذها لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في "هيلتون" ميامي ويجلسان في شرفة الغرفة ليشاهدا منظر الغروب تودعه طيور النورس.

كان هذا أفضل وداع للدكتور ماكلين لتل أبيب قبل أن ينقل أغراضه من الفندق للاتجاه إلى القدس.. بينما رفع تال جهاز المحمول الخاص به وأخذ يهمس بالعبرية قائلاً "استعدوا.. إنه قادم إليكم".

أورشليم

كان الطقس صحواً على غير عادة شهر أغسطس وسطعت الشمس دافئة مشجعة للقيام بالرحلة.. كانت المسافة بين تل أبيب والقدس لا تزيد عن الساعتين والنصف.. أخذ الدكتور ماكلين يراجع أوراقه ويقلب بين ملفاته خلال اللاب توب الخاص به داخل السيارة وسط طريق مرصوف محفوف بالأشجار الكثيفة المتدرجة على التلال الصلبة.. في حين أخذ تال يصف له ما سيراه من جمال القدس وعراقتها وقدسيتها.. حتى اقتربت السيارة من مدخل القدس.. فارتعش قلب الدكتور ماكلين وعيناه تتبع أسوار المدينة القديمة العالية ذات الجدران العتيقة القوية، ودخلوا عبر طرق قرية "عين كارم" المتعرجة ذات أشجار الزيتون الكثيفة على جانبيها ليخترقوا منازل القدس القديمة المتناثرة على التلال.. ونزلوا منها إلى الطريق الرئيسي.. فمرّوا على مبنى الكنيست الإسرائيلي بوسط القدس الغربية ومنه إلى متحف القدس الوطني.. ثم اقتربوا من المجمع الرئيسي للجامعة العبرية شمالي شرق القدس بجبل المشارف، أو جبل "سكوبس" كما يطلق عليه الإسرائيليون.. فكل اسم مكان فلسطيني له المرادف العبري والمنتشر رسمياً حتى يتلاشى الاسم الفلسطيني.. كان الدكتور ماكلين طوال الرحلة يحملق بعينيه في كل ما حوله مسلوب الفكر، دون أن ينطق كلمة واحدة، وكأنه واقع تحت سحر مدينة بيت المقدس، حتى تباطأت السيارة بالقرب من عمارة سكنية مجاورة للمجمع الجامعي.. فنزل كل من تال ومساعديه وأنزلوا حقائب الدكتور ماكلين وحملوها إلى الداخل، ووقف تال قائلاً:

– هذا هو المقر الذي اختاره لك الدكتور بن أهارون.. إنه هنا في حي هادئ وقريب جداً للجامعة.. أتمنى أن يروق لك.

فنزل الدكتور ماكلين وألقى بنظرة طويلة داخل الشقة الواقعة بالدور الأرضي ببناية لا يزيد ارتفاعها عن ثلاث طوابق.. فوجدها شقة غاية في الفخامة والروعة ذات طابع كلاسيكي، وأخذ يتفقد الأثاث الفاخر واللوحات الفنية المعلقة على الجدران والأنتيكات التي تملأ جنباتها، بالإضافة إلى البار الصغير بجوار المطبخ.. حتى وصل إلى الشرفة التي تطل على الطريق العمومي المزدحم.. وأخذ ينظر إلى المارة في الطريق ثم استدار قائلاً:

– أنا لا أعرف كيف أردّ جميل بن أهارون.. حتى ذوقه في اختيار الشقة وديكوراتها مذهل.

– كل شيء مجهز له منذ مدة طويلة.. من أجل استقبالك.

فصمت الدكتور ماكلين قليلاً ثم قال:

– لقد زرت أورشليم مراراً.. لكن كل مرة أزورها وكأني أراها لأول مرة.. هناك شيء ما في هذه المدينة يجعلني منجذباً إليها وكأن بها سحراً يناديني إليها.. جدرانها العتيقة التي يطل منها التاريخ ورائحة أروقتها وحواريها المليئة بالغموض والجمال.. كثيراً ما وقفت أمام حائط المبكى أنظر للتاريخ وهو يطل على أحجاره القديمة وأنا لا أصدق نفسي..أورشليم من قلائل المدن في العالم التي تضم على أرضها الهيكل والكنيسة والمسجد، وكأنها تحتضن الإيمان بين أذرعها.

فرد تال بعينين لامعتين:

– لذلك نحن لن نفرط فيها أبداً.. وستظل عاصمتنا الأبدية.

فرد الدكتور ماكلين:

– عندك حق.. المهم أن تحافظوا على تلك المدينة؛ إنها بحق مدينة السلام.

فابتسم تال ورد:

– ونحن قادرون على ذلك دكتور ماكلين.. الآن سنتركك كي ترتاح.. ولا تنس غداً موعدنا مع الدكتور بن أهارون.. سنمر عليك بالسيارة في التاسعة صباحاً.

وما أن رحل تال ورجاله وبدأ الدكتور ماكلين يخرج أغراضه من حقائبه.. حتى أخرج صورة زوجته.. تلك المرأة الجميلة ووضعها بالقرب من سريره وأشعل بجوارها شمعة ونظر إليها نظرة طويلة وعيناه تلمعان وتنهّد تنهيدة طويلة.. ثم أخذ يحدثها قائلاً:

– كم تمنّيت أن تكونين معي في تلك اللحظة وفي هذا المكان.. أتتذكرين عندما قررنا السفر حول العالم بعد أن أتقاعد، ثم نستقر هنا بأورشليم بلد التاريخ والسلام.. نقضي بقية عمرنا بها معًا.. وها قد حققت لك أمنيتك.. ولكن هنا وحدي أبدأ حياة جديدة أعيد فيها نفسي من أجلك.. أتمنى أن تحوم روحك الطاهرة حولي.

عندما انتصف الليل، جلس الدكتور ماكلين على كرسي طويل أمام بار المطبخ وفتح زجاجة كونياك من نوع

Hennessy Cognac Paradis الفرنسية الفاخرة.. فقد كان تعلق الدكتور ماكلين بزوجته وصدمة فقدانها جعلاه ينجرف لشرب الكحوليات بشراهة لدرجة اقتربت من الإدمان قبل أن ينصحه طبيبه النفسي بتقليلها تدريجيًا حتى يستعيد توازنه النفسي والعصبي، حتى لا يعاني من wine withdrawal symptoms أو أعراض انسحاب تأثير الكحول.. إلا أنها أصبحت عادة له أن يحتسي كأسًا أو كأسين عند المساء يوميًا.. ارتمى على كنبة وثيرة أمام التليفزيون LCD في منتصف الصالة

ليجد ما يسليه مع النبيذ وبعض المقرمشات التي وجدها في المطبخ.. فوجد برنامجًا حواريًا على القناة الثانية الإسرائيلية يتحدث عن مشاكل المستوطنات الاجتماعية.. فانتقل للقناة العاشرة فوجد أحد الأفلام "البورنو" التي يذيعها التليفزيون الإسرائيلي في هذا الوقت من الليل.. وفجأة انقطع الإرسال وأذيع خبر عاجل عن وقوع حادث إرهابي في مدينة نتانيا شمالي إسرائيل.. فاعتقد أنه مجرد خبر عابر.. فتنقل بالريموت إلى قناة أخرى فوجد نفس الشيء.. كل القنوات تنقل بثًا

مباشرًا من نتانيا، حيث انفجار أتوبيس نقل عام بجوار محطة للأتوبيسات بشارع "سميلانسكي" مما أدى إلى موت ٨ مواطنين إسرائيليين وإصابة أكثر من أربعين شخصًا، وأصيب الناس بحالة من الذعر الشديد أصبحوا يهرعون في الشوارع كالمجانين وانقلبت إسرائيل كلها رأسًا على عقب وكأنه يوم القيامة، وأحيطت المنطقة بسيارات الإسعاف والشرطة وأغلقت من أجل معاينة رجال الأمن، بينما ساد المنطقة الهرج والمرج وسط صراخ وعويل المصابين.. وسرعان ما خرج

المذيعون والمحللون السياسيون يصبون لعناتهم على الفلسطينيين الإرهابيين بعد عشر دقائق من الحادثة، وعلق أحد ضباط جهاز الأمن العام أن الحادث نتيجة صعود شاب فلسطيني يحمل حزامًا ناسفًا فجّر نفسه بداخله.. فشعر الدكتور ماكلين بانقباض في قلبه حيث البداية غير المبشرة.. وفجأة سمع صوتًا عنيفًا لشيء يرتطم في باب شقته بقوة.. فانتفض من مكانه وسقط منه كأس الكونياك على الأرض وهرع إلى الباب، وعندما فتحه وجد رجلاً ملقى على الأرض يحاول أن

يستند على الباب في حالة سكر مذرية. ذو شعر أبيض مجعد وملامح بحرمتوسطية حيث البشرة المائلة للسمرة وعينين جاحظتين حمراوين زائغتين من شدة السكر، تظهر بهما خطوط الأعصاب الحمراء بوضوح ولحية منبتة في وجهه الشاحب، بينما يرتدي قميصاً مهلهلاً يخرج من بنطلونه وبدلته.. فحاول الدكتور ماكلين مساعدته في النهوض.. فقال الرجل بصوت مهزوز وكلمات متقطعة:

- اعذرني سيدي.. لقد أزعجتك.
- المهم أنك بخير.

فحاول الرجل استجماع قواه ونظر إلى الدكتور ماكلين وإلى باب الشقة وقال:

– يبدو أنني أخطأت في الشقة كالعادة.
– لا عليك.

فوقف الرجل بصعوبة مستنداً على الحائط وأكمل:

– أنا جارك في الشقة المقابلة.. اسمي يربعام بن عجنون.. يمكن أن تناديني "يوري".. مدير بنك سابق.

ولم يكمل جملته حتى سقط مرة أخرى على الأرض.. فحمله الدكتور ماكلين إلى داخل شقته وأنزله على الكنبة ثم دخل إلى المطبخ ليصنع

له قهوة تخرجه من حالة اللا وعي والغثيان، وهو يغمغم بعد ضياع أول ليلة له في القدس، بينما أخذ يوري ينظر إلى ما حوله دون تركيز.. وما أن ارتشف أول رشفة من القهوة واشتم رائحتها القوية بدأ في الدخول لمرحلة الإدراك واستعادة الوعي، وأمسك رأسه الذي أصابه بوادر الصداع وقال:

– أنا أعتذر مرة أخرى عن الإزعاج.. أعرف أنني شخص مزعج وسببت لك مشاكل.

فابتسم الدكتور ماكلين ورد بهدوء:

– لا يهمك يا عزيزي.. أعرفك بنفسي أنا...

فقاطعه يوري:

– أنت الدكتور الأمريكي الذي سيعمل في الجامعة العبرية.. كل المنطقة تعرفك يا سيدي. كنت أتمنى أن أتعرف عليك في ظروف أفضل من تلك الحالة.
– تشرفت بمعرفتك يا عزيزي يوري.
– أنا لا أسكر في العادة.. ولكنها حالات استثنائية.

فضحك الدكتور ماكلين ورد في سره:

– واضح.. واضح.

فنظر يوري إلى البار وزجاجات البراندي والكونياك نظرة عاشق يلهث وراء حبيبته:

– أتمنى أن نكون أصدقاء يا عزيزي.. فيبدو أن بيننا أشياء مشتركة عديدة.
– بالتأكيد.. القليلون هم من يقدرون هذا الذوق العالي.. ولا بد أن تشاركني هذا الذوق.

وقام يوري من مكانه وهو يخرج مفتاح شقته وأخذ يترنح في محاولة للرحيل قائلاً:

- لن أطيل عليك ولكني في انتظار زيارة لشقتي المتواضعة.

وخرج يوري بصعوبة وهو يستند على الجدران، حتى وصل إلى باب شقته وهو يتحسس مكان المفتاح كي يفتحه، بينما أخذ الدكتور ماكلين يراقبه حتى دخل وسمع صوته وهو يسقط داخل شقته.

***

في تمام التاسعة صباحاً.. وصلت السيارة أمام منزل الدكتور ماكلين الذي كان في انتظارها.. فنزل تال وحيّاه قائلاً:

– أرى أنك اليوم في قمة نشاطك.. سيدي دكتور ماكلين.

فضحك الدكتور ماكلين قائلاً:

– لن أكذب عليك.. أنا لم أنم ليلة أمس.. كما أنني أشتاق إلى لقاء الدكتور بن أهارون ورؤية الجامعة.

فابتسم تال وركبا السيارة التي انطلقت عبر شوارع جانبية، حتى وصلت إلى حرم الجامعة العبرية، ذلك المجمع الضخم مترامي الأطراف على سفح جبل المشارف، أشبه بمدينة كاملة، والذي يضم مجموعة من كليات الإنسانيات والعلوم الاجتماعية والقانون وإدارة الأعمال والعلوم اليهودية، ويحيط به سور حديدي ضخم.. وسارت السيارة لمسافة كبيرة داخل الحرم، بينما أخذ الدكتور ماكلين يحملق بعينيه في بعض مبانيها القديمة والتي ترجع لعام ١٩٢٥، وأخرى الجديدة التي جددت عبر سنوات القرن العشرين، وطرقها الممتدة وأفنيتها الواسعة التي لم تكن مزدحمة بعد سوى بعدد قليل من الطلاب، ونظر إلى نصب تذكاري للجامعة على شكل نصف دائرة لها أعمدة إغريقية تحمل عتبًا مكتوبًا عليه اسم الجامعة وأمامه مسرح مكشوف عادة ما تقام به حفلات التخرج بالجامعة.. ورفع رأسه وأخذ يراقب علم إسرائيل المرفوع فوق المباني وهو يرفرف عليها وبجواره علم الجامعة.. حتى وصلت السيارة إلى مبنى كلية الإنسانيات في منتصف المجمع.. ذلك المبنى الحديث المرتفع ذو واجهة حجرية عليها اسم الكلية بالعبرية والإنجليزية بالنحاس.. فنزل كل من تال والدكتور ماكلين وسارا عبر ممر طويل حتى وصلا إلى مكتب الدكتور حاييم بن أهارون رئيس قسم التاريخ.. فنقر تال الباب

ودخلا.. كان الدكتور حاييم بن أهارون رجلاً في أواخر الخمسين من عمره، ذو وجه ممتلئ وعينين واسعتين خلف النظارة السميكة التي تنزل عند مقدمة أنفه المعقوف، يرتدي قميصاً دائماً يظهر خارج البنطلون ليخبئ جسده المترهل وبطنه المنفوخ مرتدياً طاقية الـ"يرملكة" اليهودية على رأسه التي تحوي القليل من الشعر الأبيض.. كان بن أهارون جالساً على مكتبه في غرفة فخمة كبيرة تضم حجرة اجتماعات ومكتبة صغيرة.. ما أن دخل عليه الدكتور ماكلين حتى وقف ومال إليه وهو يعانقه بقوة.. قائلاً:

– عزيزي دكتور ماكلين.. كم أنا سعيد اليوم أنني رأيتك! واكتملت سعادتي بانضمامك للعمل معنا بالجامعة.

فابتسم الدكتور ماكلين قائلاً:

– إنها شهادة أعتز بها.. بل إنه شرف لي أن أعود لأعمل معك من جديد.

ثم أخذه الدكتور بن أهارون من يده وأشار إلى شابين واقفين بالحجرة قائلاً:

– أعرفك على تلميذيّ ومساعديّ.. هذا تال، ها قد تعرفت عليه منذ أن كان في صحبتك في تل أبيب.. أما هذا فهو رامون، واحد من أفضل تلاميذي، وسيكون مساعداً لك في أي شيء تحتاجه.

فابتسم الدكتور ماكلين وبادرهم التحية.. ثم لمح بينهم رجلاً

جالساً لم يتحرك ولم ينطق بكلمة.. لكنه حملق به جيداً يتفحصه منذ أن دخل.. فنظر إليه الدكتور ماكلين قائلاً:

- لكنك لم تعرفني على ذلك الشاب الوسيم.

فابتسم الدكتور بن أهارون قائلاً:

- هذا هو صديقي الكولونيل إبرام زيفي.. إنه ضابط بجهاز الشين بيت والمسؤول الأمني هنا بالجامعة.

كان إبرام رجلاً في أواخر العقد الرابع من عمره، ذو عينين برّاقتين كعيني الصقور، ذو شعر قصير محلوق عند الجانبين مثل قصة "المارينز"، لمعت به شعرات بيضاء، وتظهر وجنتيه بارزتين في وجهه المائل للحمرة، تشد من تجاعيده العصبية رغم صغر سنه وتجعلها محفورة بقوة وملامح حازمة تميل إلى الوجوم، فقليلاً ما يبتسم إلا للضرورة.. فقام إبرام من مكانه وحيّا الدكتور ماكلين قائلاً:

- لقد سمعت الكثير عن نبوغك جعلني أشتاق كثيراً لرؤيتك.

فضحك الدكتور ماكلين قائلاً:

- إنك تبالغ بعض الشيء كولونيل إبرام.

فابتسم إبرام قائلاً:

- لا داعي للألقاب.. يمكن أن تناديني إبرام فقط.

ثم أخرج بن أهارون **the guest book** الخاص بالقسم وطلب من الدكتور ماكلين بأن يكتب كلمة بمناسبة وجوده معهم.. فأخرج الدكتور ماكلين قلمه الحبر "الكارتييه" الذهبي من جيبه والمنقوش عليه اسمه وكتب بيده اليسرى بالإنجليزية:

" It's my pleasure to be among my great friends in this great scienTific academy.. I wish to have nice times in Israel

إنه من دواعي سروري أن أكون وسط أصدقائي الأحباء في هذا الصرح العلمي العظيم.. وأتمنى أن أقضي وقتًا رائعًا في إسرائيل".

فتمعن بن أهارون في كتابة الدكتور ماكلين ثم رد قائلاً:

– والآن ودون أن نضيع وقت الدكتور ماكلين.. سوف يصطحبك مساعداي في جولة حول الكلية والقسم كي تتعرف عليها. بالإضافة إلى مكتبك الذي سيكون في نفس هذا الطابق.

فابتسم الدكتور ماكلين.. ثم أكمل بن أهارون قائلاً:

– ولكن هذا ليس كل شيء.. فإنك مدعو على العشاء بمناسبة وصولك إلى أورشليم.. لا تنس سأمرّ عليك في العاشرة مساء.

فردّ الدكتور ماكلين وقد ظهرت على ملامحه السعادة قائلاً:

– أنا لا أعرف ماذا أقول لك!

فابتسم بن أهارون قائلاً:

– إنه أقل شيء يمكن أن أقدمه لك.. وللمرة الثانية أهلاً بك في وطنك الثاني.. إسرائيل.

وما أن خرج كل من الدكتور ماكلين والمساعدين حتى التفت بن أهارون إلى إبرام بلهفة قائلاً:

– مارأيك فيه؟

فصمت إبرام قليلاً ثم رد بعينين لامعتين ضيقتين قائلاً:

– سنرى.

أخذ كل من تال ورامون يطوفان بالدكتور ماكلين بين أقسام الكلية، بينما كان رامون يشرح له تاريخها.. حتى وصلوا إلى قسم التاريخ وصعدوا إلى المكتب المخصص للدكتور ماكلين.. فأكمل رامون قائلاً:

– وهذا العام سوف تدرّس مادتك لفصل الدراسات العليا.. إنهم لا يتجاوزون العشرين طالبًا.. معظمهم من سكان أورشليم والمستوطنات التي تحيط بها.. بعضهم من الأشكيناز "اليهود الغربيين" وأغلبهم من السفارديم "اليهود الشرقيين".. عدا طالب واحد يدعى مصطفى القوادري.. عربي من سكان أورشليم.. وهو العربي الوحيد الذي التحق بهذا القسم وأكمل به حتى وصل إلى فصل الدراسات العليا.. ستجده مشاغبًا نوعًا ما، رغم ذلك فإنه نابغة ومتفوق في دراسته.

فارتسمت على وجه الدكتور ماكلين ملامح القلق قائلاً:

– يبدو أنني سوف أجد بعض القلاقل في ذلك الصف.

فرد تال قائلاً:

– ربما.. لكنك سوف تستمتع بالعمل مع هؤلاء الشباب.. إنهم أفضل طلبة بالقسم.

فرد الدكتور ماكلين قائلاً:

– وأنا لا أعمل إلا في جو من التحدي.. دائمًا ما أفضّل الحوار مع تلاميذي وأتقبل الآراء المختلفة.. لقد بنيت داخل عقليات جميع تلاميذي أسلوب الجدل والمناقشة كي نصل إلى الحقيقة المطلوبة.

فابتسم رامون قائلاً:

– ليتني كنت ضمن هؤلاء الطلبة.. لكن الفرصة لم تفت بعد، فإنك بيننا الآن.

ثم أخرج تال مجموعة أوراق وأعطاها للدكتور ماكلين قائلاً:

– هذه قائمة بأسماء الطلبة وبياناتهم ودرجاتهم في السنوات الماضية.

فأخذها الدكتور ماكلين وأخذ يقلب فيها ويلمح صور الطلبة.. حتى وقف كل من تال ورامون قائلين:

– الآن سوف نتركك كي تنظم وقتك وأوراقك.. وإذا أردت أي شيء نحن في خدمتك.

فابتسم الدكتور ماكلين وحياهما حتى خرجا.. ثم أخذ يقلب بين أوراق الطلبة ويقرأ بيناتهم، وبعدها أغلق الملف وأخذ يتمشى داخل مكتبه حتى وصل إلى النافذة التي تطل على فناء كبير لم يكن يضم سوى قليل من الطلبة.. أخذ ينظر إليهم بشرود، بينما أخذت الذكريات تتلاعب برأسه وصوت طبيبه النفسي يطنطن في أذنيه.. كانت كلماته تتردد وهو ينصحه بأن يترك البلاد ويذهب بعيداً لأي مكان ويبدأ من جديد، بعد أن أصابته حالة اكتئاب قوية كادت أن تهدد مستقبله العلمي بعد أن انقطع عن العالم ومكث في المنزل وحيداً.. فأخذ ينظر إلى السماء عبر النافذة وحدّث نفسه قائلاً:

"إنها فرصتك من جديد ماكلين.. لقد جاء الوقت لتثبت أنك ما زلت على القمة مثلما كنت من قبل.. وها قد جاءتك فرصتك بالجامعة العبرية لتعيد مجدك الذي كاد أن يتسرب من بين يديك.. واسمك العالمي الذي كاد أن يطويه النسيان".

***

كان مبنى جهاز الشين بيت أو الشاباك (الأمن الداخلي) الواقع في وسط القدس في حالة استنفار لوصول واحد من أقوى رجاله.. الكولونيل إبرام.. اصطف الضباط والجنود صفين لتحيته منذ وصول سيارته حتى صعوده إلى مكتبه، وحوله مجموعة من مساعديه جميعهم يرتدون تيشيرتًا أبيض عليه قميص يضم شعار الشين بيت على الصدر، ومكتوب أسفله بالعبرية "الدرع الذي لا يُرى" ومدججون بسلاح العوزي (رشاش إسرائيلي الصنع).. ففتح باب مكتبه بقوة وألقى بمجموعة من الأوراق كانت في يده على المكتب ووجهه ينفجر من الغضب والشرر يخرج من عينيه الواسعتين وأخذ يصيح قائلاً:

– كيف يقوم مجموعة من هؤلاء المجرمين العرب بالقيام بتلك العملية ونحن غائبون؟! كيف سنحت لهم الفرصة للقيام بتلك العمليات الإرهابية المتتالية؟! يسير شاب فلسطيني بحزام ناسف في شوارع نتانيا دون أن يفتّشه أحد حتى يصعد إلى حافلة ويفجر نفسه فيها.. أنتم أغبياء ولا تستحقون أن تكونوا ضباطًا في الشين بيت.

فتلجلج أحد الضباط ورد:

– سيدي.. لقد قمنا بكل وسعنا في مراقبة تلك الخلايا الإرهابية، كما زرعنا بداخلها رجالنا لنقل الأخبار.. لكن يبدو أن تشكيلاتهم تعتمد على التنوع في التخطيط، مع وجود قيادات سرية لا يكشف عنها حتى داخل الخلية الواحدة.

فازداد إبرام غيظًا وصرخ بصوت عال:

– وما العمل إذن؟ إن كان أكبر جهاز أمني في إسرائيل كلها فشل في قمع مثل تلك العمليات.. فمن سيحمي هذا البلد.. عملية ناتانيا فقدنا فيها أكثر من عشرة مدنيين.. وهذا المعدل في مثل تلك المدينة السياحية شديد الخطورة.. يمكن أن يدمر مستقبل المدينة.. كما سيتسبب في ضياع هيبة الأمن الإسرائيلي وصحوة هؤلاء الفلسطينيين.

فرد الضابط مرة أخرى:

– لا تقلق سيدي؛ لدينا العديد من الأساليب في الضغط على الفلسطينيين وجعلهم ينهاروا أمامنا.. إنها مجرد عملية وقت.. ليس أكثر.

فرد إبرام بقوة ووجهه يغلي:

– لم يعد هناك وقت.. يجب أن تضيّقوا الخناق عليهم أكثر من ذلك، والقوا بأكبر عدد منهم في السجون، وزيدوا من أساليب التعذيب إبان التحقيق كي نضعفهم ونسحقهم.. وسوف نجتمع بعد يومين لأرى النتائج.. لديّ أمور أخرى تحتاج إلى تركيز.. الآن انصراف.

فوقف الضباط انتباهًا وحيوه التحية العسكرية الصارمة وانصرفوا.. فدخل خلفهم تال وعيناه توقد اللمعان وعلى وجهه ملامح الحماس، ويحمل حقيبة سوداء في يده.. فقام إبرام وحياه قائلاً:

– أهلاً تال.. ماذا أحضرت لنا اليوم؟

فأخرج تال من حقيبته ملفا كبيرًا وأعطاه له.. قائلاً:

– كل ما طلبته عنه في هذا الملف.. بالصور والمستندات.. لقد أصبح الآن بين أيديكم.

فابتسم إبرام ابتسامة صفراء وأخذ الملف متلهفًا وقال:

– دائمًا متفوق.. أنت وأستاذك لا تخذلونني أبدًا.

فرد تال بتعجب واضح على وجهه:

– ولكن لماذا طلبت صورة من الـguest book؟

فابتسم إبرام ابتسامة صفراء ورد بعينين لامعتين:

– عزيزي تال.. نحن نهتم بكل التفاصيل.. حتى الكتابات والخطوط نهتم بها ونحللها نفسيًا، وهذا ما يسميه علماء النفس "الجرافولوجي".. انظر.. إنه يكتب حرف d بشكل مائل وأصغر من الحجم الطبيعي، فهو يدل على شخصية حساسة وقلقة بخصوص ذاته، ومع ذلك يعتز بنفسه جداً.. كما أن كتابته لحرف I بدون نقطة يدل على شرود ذهنه.. وكتابته حرف T كبير في وسط الكلمة يدل على وقوعه تحت ضغط أو أنه يخفي أمرًا ما.

فاتسعت مقلتا تال وازدادت دهشته.. بينما أكمل إبرام:

– لدينا متخصصون في هذا الأمر.. سيحللون كل كبيرة وصغيرة فيه

بشكل علمي.

فكتم تال أنفاسه ثم قال:

– كل يوم أتعلم منكم الكثير.. كولونيل.. يجب أن أعود إلى الجامعة حتى لا يلاحظ أحد غيابي.

وبعد أن انصرف تال.. مال إبرام بظهره على الكرسي ووضع قدميه على المكتب وأشعل سيجارة وأخذ يقلّب في الملف باهتمام هو يردد بعض العبارات المكتوبة بها:

"الاسم: جيمس فيكتور ماكلين.. السن: ٥٤ سنة.. أستاذ بجامعة شيكاجو بالولايات المتحدة.. حاصل على الدكتوراه في مجال تاريخ الصهيونية.. محاضر عالمي وحاصل على العديد من الجوائز العلمية العالمية.. يعد واحداً من أعظم علماء التاريخ السياسي في العالم.. الحالة الاجتماعية: أرمل وله ولد وحيد يعمل في مجال الطيران.. شديد الذكاء وذو حضور قوي.. ناجح في حياته العلمية.. يميل إلى التفكير العميق في أغلب تصرفاته".

ثم رجع بظهره للخلف وقال في سره:

"ملفك مهول.. ماكلين.. يبدو أنك أخطر مما كنت أتوقع.. لكنك لن تستطع أن تفلت مني أبداً".

ثم أغلق الملف ووضعه بقوة على المكتب.. ثم نادى على أحد الضباط فهرع إلى مكتبه.. فوقف إبرام من مكانه وأمسك بصفحة من الملف قائلاً:

- أريدك أن تراقب هذا الشخص جيداً.. أريدك أن تكون عينيّ عليه في كل وقت وفي كل مكان.. أريد أن أعرف متى ينام ومتى يصحو.. من يقابل ومع من يتكلم.. أين يذهب وفيمَ يفكر.. أريدك أن تسكن تحت أنفه وتعد لي أنفاسه.. أن تكون ظله الذي لا يفارقه أبداً.. كوّن الفريق الذي سيساعدك ولك مني كل الصلاحيات.. أريد تقريراً دورياً مفصّلاً عنه.. لا أريد أي خطأ وإلا ستكون العواقب وخيمة.

فوقف الضابط منتبهاً ورد:

- تمام سيدي.. كل شيء سيكون على ما يرام.. بالمناسبة الجنرال شاؤول يريد مقابلتك.
- حسناً أخبره أنني قادم لمقابلته الآن.

أخذ إبرام مجموعة من الأوراق ومعها الملف واتجه نحو مكتب الجنرال شاؤول مدير جهاز الشين بيت، ودخل مكتبه الكبير المليء بالنياشين والكؤوس والجوائز العسكرية والأعلام.. وحيّاه التحية العسكرية ثم جلس أمامه.. فارتكز شاؤول على مكتبه وقال بقوة:

- الأخبار القادمة من ناتانيا سيئة جداً إبرام.. أريد انضباطاً وقوة أكثر من ذلك.. أنت واحد من أقوى ضباط الشين بيت.. وأنا أعتمد عليك في ردع هؤلاء المجرمين والانتقام بقوة منهم.
- حسناً سيدي.. نحن نعمل بكل طاقاتنا.

ثم انتبه إليه وأكمل قائلاً:

- وما أخبار الزائر الجديد؟

فرد إبرام متحفزاً:

- كل شيء جاهز سيدي. وضعناه تحت أعيننا ونرصد كل تحركاته.. وأدق تفاصيل حياته ستكون أمام سيادتك في تقرير مفصّل.
- إبرام.. هذا الأمر شديد الأهمية.. وجود مثل هذا الرجل في إسرائيل يمثل أهمية كبرى يجب استغلاله جيداً وإلا أصبح قنبلة موقوتة.

فنظر له إبرام بعينين لامعتين ورد قائلاً:

- سيدي. لا أريدك أن تقلق أبداً.. لقد وضعت الموضوع في يد من لا يخطئ.

فقام شاؤول من مكانه قائلاً:

- وأنا أعتمد عليك في تلك العملية اعتماداً كلياً.

فابتسم إبرام وقام من مكانه طالبًا الانصراف.. وسار خلال الممر المؤدي إلى مكتبه وهو يحملق بعينيه التي تشتعل ناراً في الملف، وارتسمت على وجهه ملامح التحدي وأخذ يحدث نفسه قائلاً:

"الآن بدأت اللعبة.. كن مستعداً.. ماكلين".

***

كان ليل القدس قد هبط بنسائمه على تلك المدينة البراقة وأضوائها اللامعة وشوارعها المزدحمة.. حينها خرج الدكتور

ماكلين مع بن أهارون وسط زحام نهاية الأسبوع حتى وصلا إلى "بار زوني" وسط القدس.. ودخلا إلى قاعة واسعة فخمة.. فأخذ بن أهارون يقوده إلى الطريق قائلاً:

– الليلة سوف أعرّفك على شلة البار.. إنهم أصدقائي المقربون ودائماً ما أسهر معهم.. إنهم من صفوة المجتمع.. ها هم هناك.

اقترب كل منهما من مجموعة من الرجال حول طاولة القمار.. فأشار إليهم بن أهارون قائلاً:

– دعوني أقدم لكم الليلة مفاجأة كبيرة.. صديقي القديم الدكتور جيمس ماكلين أستاذ التاريخ السياسي من الولايات المتحدة.. لقد جاء لينضم معنا إلى شلة البار.

فابتسم الدكتور ماكلين قائلاً:

– يبدو أنني قد عطلت عليكم لعبكم الليلة.

فقام أحدهم وكان نحيل الجسد ذا شعر خفيف يميل إلى البياض، ورقبة يملؤها العروق والتجاعيد:

– بالعكس.. لقد حدثنا بن أهارون عنك كثيراً.. بل أنني أريدك أن تشاركني اللعب.

فضحك بن أهارون قائلاً:

– هذا ناحوم كاتساف.. رئيس قسم السياسة بجريدة جيروزاليم

بوست.. محاور متمرس

وصحفي مراوغ.. بالإضافة إلى كونه لاعب بوكر محترف.. لا أحبذ أن تلعب معه.

ثم أشار إلى رجل آخر ضخم الجثة يظهر عليه الصرامة والقوة مع بعض من تقدم الزمن قائلاً:

– أما هذا.. فهو الجنرال إسحق ليفي.. قائد بسلاح الطيران برتبة " آلوف" من كبار ضباط جيش الدفاع.. رغم أن له العديد من الأفكار التي أتعارض معها لكنني أعتبره صديقي المقرب.. وهذا الأنيق هو راؤول رود صاحب شركة سياحة هنا في أورشليم ولها فروع عديدة بأنحاء إسرائيل والعالم.

فنظر الدكتور ماكلين إلى الشخص في نهاية الطاولة وابتسم.. فعلق بن أهارون قائلاً:

– أما هذا فأنت تعرفه جيداً.. صديقنا الكولونيل إبرام.. صديقنا في البار وأحياناً ما يسهر معنا هنا في وقت فراغه.. فهو دائماً مشغول.

كان إبرام جالساً بجوار أصدقائه ممسكاً بكأس من الفودكا، وأخذ ينظر للدكتور ماكلين بعينين حمراوين محاولاً إخفاء تحفّزه تجاهه، ورد بهدوء قائلاً:

– والآن ومع وجود الدكتور ماكلين اكتمل شملنا.

جلس الدكتور ماكلين بجوار الجنرال ليفي الذي كان يوزع الورق

على الجالسين.. فعلق كاتساف قائلاً:

– أتمنى أن يكون حظك اليوم أفضل.. جنرال.. ما حدث ليلة أول أمس في ناتانيا شيء بشع.

فرد ليفي بحسرة:

– إنها كارثة.. ناحوم.. إسرائيل كلها حزينة اليوم.. لكننا لن نتركهم يفرحون بضرباتهم.. وسيكون الرد أعنف مما تتوقع.

فأكمل رود:

– أنتم يا سادة لا تدركون مدى الخسائر التي فقدناها سياحيًا من جراء تلك الضربة والضربات السابقة.. وما سوف يأتي من ضربات ولا نعلمه.. هؤلاء العرب يعملون بنظام مدروس وتحت قيادات منظمة.

فرد ليفي بقوة وألقى الكروت من يديه قائلاً:

– راؤول.. نحن نعرف كيف نسيطر عليهم ونرد الضربة جيداً، وأعتقد أن الموضوع كله يحتاج إلى وقت للخلاص من كل هؤلاء المجرمين.. إنهم مجموعة من المخربين يخرجون إلينا من تحت الأرض ولكننا لا ولن نتركهم.

فقاطعه كاتساف ورد قائلاً:

– ولكن لا يجب الاستهانة بميليشيات كل من حماس والجهاد.. إنهم على مستوى عالٍ من التنظيم.. بالإضافة إلى أنهم يختارون أماكن

وتوقيتات حساسة لضربنا فيها.

فنظر بن أهارون إلى الدكتور ماكلين متسائلاً:

– ولكننا لم نسمع رأيك اليوم عزيزي ماكلين عن تلك الأزمة.

فرد الدكتور ماكلين بهدوء:

– إنني أتعجب بشدة مما يقوم به هؤلاء الفلسطينيون.. ماذا يدفع الشاب منهم للتخلي عن حياته ومستقبله وأحلامه ويضع كل همه في تفجير نفسه داخل سوق تجارية أو منتجع سياحي؟! وماذا سيجني من قتل عشرات أو حتى مئات من الناس يتخيل أنهم أعداؤه أمام الانتحار وفقدان حياته؟! وأي مقابل سيحصل عليه من جراء تلك العملية الانتحارية؟! لا بد أن لهؤلاء الناس فكرًا قويًا خاصًا بهم يدفعهم للقيام بتلك الأعمال.. إنه ليس بهيّن على الإنسان أن يفقد حياته إلا إذا كان مقابل شيء أغلى من حياته كلها.

فنظر إليه كاتساف ورد:

– فعلاً دكتور ماكلين.. رغم كل عمليات الردع والاعتقال التي تحدث بها ضدهم.. لكن مقاومتهم لنا لا تنتهي.. بل تزداد قوة وإصرارًا.. حتى تحول جميع الفلسطينيين إلى قنابل موقوتة يمكن أن تنفجر في وجوهنا في أي لحظة وفي أي مكان.

كان إبرام يستمع لما يدار من نقاش دون أن ينطق بكلمة.. فنظر إليه الدكتور ماكلين وعلق مبتسماً:

وتوقيتات حساسة لضربنا فيها.

فنظر بن أهارون إلى الدكتور ماكلين متسائلاً:

– ولكننا لم نسمع رأيك اليوم عزيزي ماكلين عن تلك الأزمة.

فرد الدكتور ماكلين بهدوء:

– إنني أتعجب بشدة مما يقوم به هؤلاء الفلسطينيون.. ماذا يدفع الشاب منهم للتخلي عن حياته ومستقبله وأحلامه ويضع كل همه في تفجير نفسه داخل سوق تجارية أو منتجع سياحي؟! وماذا سيجني من قتل عشرات أو حتى مئات من الناس يتخيل أنهم أعداؤه أمام الانتحار وفقدان حياته؟! وأي مقابل سيحصل عليه من جراء تلك العملية الانتحارية؟! لا بد أن لهؤلاء الناس فكرًا قويًا خاصًا بهم يدفعهم للقيام بتلك الأعمال.. إنه ليس بهيّن على الإنسان أن يفقد حياته إلا إذا كان مقابل شيء أغلى من حياته كلها.

فنظر إليه كاتساف ورد:

– فعلاً دكتور ماكلين.. رغم كل عمليات الردع والاعتقال التي تحدث بها ضدهم.. لكن مقاومتهم لنا لا تنتهي.. بل تزداد قوة وإصرارًا.. حتى تحول جميع الفلسطينيين إلى قنابل موقوتة يمكن أن تنفجر في وجوهنا في أي لحظة وفي أي مكان.

كان إبرام يستمع لما يدار من نقاش دون أن ينطق بكلمة.. فنظر إليه الدكتور ماكلين وعلق مبتسماً:

– ولكن يبدو أن صديقنا إبرام ليس معنا الليلة.. أهناك ما يأخذك منا؟

فنظر إليه إبرام بعينين قويتين وثبت نظره الثاقب داخل عينيّ الدكتور ماكلين.. وقال بهدوء:

– لقد علمني عملي أن أسمع أكثر مما أتكلم.. وخاصة إن كانت أطراف الحديث بين أيديكم.. سيكون له مذاق آخر.

فضحك بن أهارون وقال:

– الكولونيل إبرام دائمًا ما يلعب معنا في صمت.. ولكنه يفوز في النهاية.. ينتظر في هدوء حتى يظفر بالغنيمة كلها.

فرد الدكتور ماكلين:

– إذن ستكون في فريقي في اللعب.

فرد إبرام بقوة:

– لا أعتقد.. إنني أحب اللعب وحدي كي أفوز وحدي.

فكشف عن أوراقه على الطاولة، فنظر إليها الجميع متحسرين بينما أخذ يلملم الفيشات والمال الموجود على المنضدة، وهو ينظر إلى الدكتور ماكلين مبتسمًا ابتسامة صفراء، وقال بصوت يملؤه التحدي:

– أرأيت؟! المهم من يفوز في النهاية دكتور ماكلين.

ثم نظر إلى ساعته وقام من مكانه على عجل قائلاً:

– يبدو أنني سأضطر إلى مقاطعة هذا التجمع الجميل.. لكن عندي اجتماع عمل مهم.

فرد بن أهارون:

– حتى في مثل تلك الأوقات تعمل إبرام؟!

فرد عليه بنبرة قوة وهو يركز نظره على الدكتور ماكلين:

– أمن إسرائيل يجعلنا نعمل في أي وقت كي نحافظ عليه.

ثم أمسك يد الدكتور ماكلين بقوة وهو يصافحه قائلاً:

– سنتقابل مرة أخرى.

الاختبار الأول

بدأ العام الدراسي، ومعه كانت شوارع القدس شديدة الازدحام، وبالأخص مجمع "سكوبس" بالجامعة العبرية.. كانت الجامعة تعج بالطلبة والطالبات.. يهود منهم وعرب.. قد استعدت لاستقبالهم بتعليق الأعلام ولافتات الترحيب بالعبرية والعربية وبلالين هيليوم متطايرة عليها شعار الجامعة، ووقف عدد من الطلاب القدامى من اتحاد الطلبة يستقبلون الوافدين الجدد ويرحبون بهم في الجامعة، يخبروهم بأنشطة الجامعة والاتحاد.. وطلبة كل كلية يوزعون منشورات خاصة بهم سواء كانوا

يمينيين متطرفين أو يساريين أو علمانيين.. بينما أحاط بالجامعة كم غير طبيعي من رجال الشرطة.. حتى صعد رئيس الجامعة على منصة بالمسرح المكشوف يرحب بالطلبة الجدد فتجمع حوله الطلاب والأساتذة.. فقال كلمة قصيرة بصوت عالٍ:

"أبنائي الطلبة.. أعزائي وزملائي الأساتذة.. اليوم نبدأ عامًا دراسيًا جديدًا نتطلع فيه لإحراز تقدم علمي في جميع المجالات من أجل إسرائيل.. من أجل أن نعيش جميعنا بكل طوائفنا في سلام وأمان.. يجب أن نظل يدًا واحدة كي تتقدم الجامعة العبرية للأمام ونصنع ما يجعل هذا الوطن يفتخر بنا".

ووسط كل هذا الزحام صعد الدكتور ماكلين إلى مبنى كلية الإنسانيات ودخل إلى فصل الدراسات العليا حاملاً أوراقه وجهاز اللاب توب الخاص به.. أخذ يحدق في الطلبة الذين لم يزد عددهم عن عشرين طالبًا ثم قال مرحبًا:

– أعرفكم بنفسي.. اسمي الدكتور جيمس ماكلين.. أستاذ التاريخ.. وسوف ندرس معًا هذا العام تاريخ أورشليم.

ولم يكمل كلامه حتى رفع أحد الطلاب يده وقد ظهر على ملامحه الطابع العربي؛ ذو شعر أسود كثيف مجعد وبشرة تميل للسمار قائلاً:

– ولكن اسمها القدس!

فحدث هرج في الفصل وتعالت الأصوات والتفت إليه الدكتور

ماكلين بقوة قائلاً:

– أنت أكيد مصطفى القوادري. لقد سمعت عنك الكثير ويبدو أن شغبك سيبدأ مبكرًا.

فرد أحد الطلاب ضخم الجسد ذو بشرة باهتة وعضلات مفتولة مرسوم على ذراعه وشم على شكل نجمة داوود وله شعر أصفر يصل إلى حد البياض مرتديًا عليه الطاقية اليهودية:

– إنك لم تر شيئًا بعد.. هذا العربي هو أبشع شيء في هذا المكان.. يجب عليك أن تطرده قبل أن يملأ وقتك بهذيانه.

فرد عليه مصطفى بقوة:

– أنا لا أسمح لك بأن تخاطبني هكذا ديفيد.

فقامت فتاة جالسة خلف مصطفى ذات شعر أسود حالك طويل وجسد ممشوق وبشرة خمرية وعينين خضراوين مسحوبتين بكحل طبيعي أشبه بعيني القطط، واقتربت من ديفيد وقالت له بقوة:

– ديفيد.. يكفي هذا.. ليس كل عام تبدأه بالتشاجر مع مصطفى.. أرجوك اصمت.

فرد بعصبية:

– أما زلتِ متعاطفة مع ذلك العربي يا مريم؟! يجب أن أعطيه درسًا كي

لا يشعر بأن له قيمة..

فاحمرّ وجه الدكتور ماكلين وصرخ فيهم جميعًا:

– يكفي ذلك.. يجب أن تقدّروا أنكم داخل محاضرة ويجب أن يكون سلوككم أكثر تحضّرًا.. يبدو أن المشاكل قد بدأت مبكرًا كما قلت.. لكنني لن أسمح بذلك قط.. اجلس مكانك يا مصطفى ولا أريدك أن تتكلم إلا إذا طلبت منك ذلك، وإلا واجهك عقاب شديد.

فصمت الجميع وبدأ الدكتور ماكلين في مواصلة المحاضرة حتى قارب موعدها من الانتهاء فغادر المكان تاركًا الطلبة، فقفز ديفيد من مكانه وأمسك بمصطفى ودفعه في الحائط بغلظة ونظر إليه بملامح يكتسيها الغضب قائلاً:

– اسمع أيها العربي.. إذا حاولت أن تتحداني مرة أخرى فسوف أسحقك.

فهرعت مريم وأمسكت بذراع ديفيد قائلة:

– اتركه ديفيد.. اتركه.. أنا أحذرك.

فنظر إليها باستخفاف وألقاه على الطاولة قائلاً:

– هكذا إذن.. يبدو أن تعاطفك معه قد أنساك أشياء كثيرة.

ثم غادر الفصل ومعه العديد من أصدقائه خلفه.. فأخذت مريم تساعد مصطفى على الوقوف وهي تمسك بيده، وقد اكتسى وجهها بعلامات الانزعاج قائلة:

– أنا لا أعرف ماذا أقول.. أنت تعرف سخافات ديفيد.. لا أريدك أن تحزن.

فقام من مكانه قائلاً:

– لا عليك، أنا أعرفه جيداً وأعرف كيف أوقفه عند حده.

خرج مصطفى من الفصل وأخذ يتمشى بين طرقات المبنى وخلفه مريم وهي تلاحقه بعينيها، حتى نزلا إلى حديقة المبنى وجلسا كلاهما على الأرض وسط الحشائش.. فأمسكت بكراسة وأعطتها إياه قائلة:

– لقد نقلت لك مجموعة محاضرات من الأعوام الماضية والتي يمكن أن تفيدنا هذا العام.

فمد يديه وأخذها مبتسمًا وقال:

– أنا لا أعرف كيف أرد لك جميلك.

فنظرت في عينيه بعمق وأمسكت بيديه بدفء شديد قائلة:

– لا تقل هذا.. أنت أغلى شيء في حياتي.. لو طلبت مني روحي لن أمنعها عنك.

فارتسمت على وجهه ملامح الاضطراب وسحب يده من بين يديها ثم قال:

– مريم.. ما تفكرين فيه لن يحدث أبداً.. هناك فوارق عديدة بيننا لا

يمكن أن نتجاهلها.

فردت بقوة:

- لكوني يهودية وأنت عربي! هذا لا يهمني في شيء.. فأنا أحبك.
- لكن هذا لا يكفي.
- الحب يمكن أن يصنع كل المستحيل ويزيل جميع السدود التي بيننا.

فتنهّد مصطفى تنهيدة طويلة ثم أكمل قائلاً:

- هناك أشياء أقوى من الحب.. الواقع الذي نعيش فيه والدم هنا وهناك.. والأسلاك الشائكة حول الحدود.. كل هذا لا يمكن أن يعطينا السعادة.
- ولكن الوضع الآن أصبح أفضل كثيراً مما سبق.. إننا الآن نعيش في سلام.
- هذا ما يظهر على السطح.. لكن الحقيقة غير ذلك.

فنظرت إليه بعينين حالمتين وردت قائلة:

- رغم كل هذا ما زلت أحبك.. وسيأتي اليوم الذي تزال فيه كل الحدود وستكون أنت لي.. أنا لن أيأس أبداً.

فنظر إليها بعمق وقال:

- يبدو أنك ستنتظرين طويلاً.

فقام كل منهما من على الأرض، فقطفت مريم زهرة حمراء وأعطتها له قائلة:

- هذه كي تتذكرني.. ضعها بجانبك وأنت تذاكر.

فأمسك بالوردة قائلاً:

– أخاف ألا أستطيع أن أعطيك المقابل.

فردت بهدوء:

– وأنا لا أنتظر منك المقابل.. لأنك أعطيته لي بالفعل.

***

دخل الدكتور ماكلين مكتبه ووضع الأوراق جانبًا وارتمى على الكرسي بعد أن ظهرت على وجهه ملامح التعب والإرهاق.. فدخل عليه بن أهارون وأغلق الباب خلفه وجلس أمامه دون أن يلحظه.. فاستدار الدكتور ماكلين منتبهًا وقام من مكانه.. فعلق بن أهارون قائلاً:

– يبدو أن تعب اليوم الأول قد حلّ عليك.

فرد الدكتور ماكلين قائلاً:

– بالفعل عزيزي حاييم.. لقد كان يومًا شاقًا.. لم أتوقع أن مدى الصدام بين الأولاد قد يصل إلى تلك الدرجة.. وخاصة من ذلك العربي مصطفى.

فضحك بن أهارون ورد:

– ألم أقل لك؟! إنك لم تر شيئًا بعد.

فابتسم الدكتور ماكلين ثم استطرد متسائلاً:

– لكنني لاحظت شيئًا غريبًا اليوم على غير العادة.. هناك عدد مهول من الضباط والجنود وعربات الشرطة حول الجامعة رغم أنني لم ألحظ أي مظاهرة أو محاولة للشغب.

فاعتدل بن أهارون في جلسته ورد بملامح يملؤها الجد:

– دعني أقول لك شيئًا.. جامعتنا تضم عدداً غير قليل من الطلبة العرب في العديد من الأقسام.. وهم يمثلون عصبة في الجامعة وعادة ما يحاولون الاحتكاك بالطلبة اليهود وإحداث شغب وفوضى في اليوم الأول.. في بعض الأحيان يقوم عدد من طلبة اليمين الإسرائيلي المتطرف بالتعدي عليهم وضربهم، حيث إنهم لا يقبلون وجودهم بينهم.. وقد حدث في العام الماضي مصادمات بين مجموعة من الطلبة العرب وطلبة اليمين أدت إلى مقتل العديد منهم وإصابة عدد آخر.

فاحمرّ وجه الدكتور ماكلين وصمت قليلاً ثم قال:

– يبدو أن الأمر جدّي، على عكس ما كنت أتصور.

فابتسم بن أهارون ورد:

– لا عليك، فنحن معتادون على تلك المناوشات.. ونعرف كيف أن نصدها ونردع الطلبة المتطرفين من كلا الطرفين.. المهم أن تستطيع السيطرة عليهم وتمسك بلجامهم.

– ولكن دورنا كأساتذة بالجامعة أن نحاور هؤلاء الطلبة مهما كانت ميولهم أو

عقائدهم حتى نصل بهم إلى ما نريد.. العنف لن يولد سوى العنف.
– هذا ما في تخيلك.. ولكن في بلد مثل إسرائيل يضم العديد من الأجناس والألوان.. مهاجرين من كل مكان.. يهود شرقيين وغربيين وعرب ومسيحيين.. يجب أن تسيطر على كل ذلك.. وإلا انفلت الزمام من بين يديك.. أمن إسرائيل هو شاغلنا الأول.

فقام الدكتور ماكلين من مكانه وأحضر زجاجة عصير من ثلاجة صغيرة وملأ كأسين، له ولبن أهارون.. ثم اعتدل في جلسته أمامه وقال:

– أرى أنكم تهتمون بالأمن الداخلي والخارجي بشدة.

فرد بن أهارون قائلاً:

– الوضع الأمن أصبح معقداً.. فالعمليات الانتحارية التي يقوم بها الفلسطينيون تزداد يومًا بعد الآخر وهو ما ينهك قوات الدفاع.. وإن كانت تلك فرصتنا والعالم منشغل بالغزو الأمريكي للعراق، وهو ما يفيدنا بشدة للبطش بهؤلاء العرب.
– كيف ذلك عزيزي حاييم؟
– سقوط دولة مثل العراق يمكن أن يفتح لنا أسواقًا لترويج سلعنا من سلاح ومواد استهلاكية، والسيطرة على البترول.. كما أنها أصبحت حائط دفاع لنا في مواجهة إيران وتهديداتها من خلال موقعها الإستراتيجي.. لقد كانت البداية بضرب المواقع النووية في الثمانينيات.. ولكن ما قامت به الولايات المتحدة هدية لنا.. ولا تنس أنها كانت فرصتنا الذهبية لاسترداد بعض القطع الأثرية الهامة من متحف بغداد.. تلك القطع ستعيد صياغة تاريخ المنطقة وتعيد سيطرتنا الثقافية عليها.
– وماذا عن جنوب لبنان؟ أعتقد أن الحدود هناك ليست مستقرة.

فصمت بن أهارون قليلاً ورد:

- لقد كانت ضربة موجعة لنا بعدما أجبرنا على الانسحاب في عام ٢٠٠٠ نتيجة ضربات حزب الله المتتالية، وكان من الصعب الاستمرار في هذا المستنقع وفقداننا العديد من أبنائنا الجنود.. لقد فقدنا منذ عام ١٩٨٢ وحتى الآن أكثر من ١٥٠٠ جندي، في الوقت الذي لم تعد ميليشات لبنان الجنوبية الموالية لنا في السيطرة على الوضع.. ولم يعد "أنطون لحد" وأعوانه أي قوة تذكر في مواجهة حزب الله.. ورغم وجود هدوء حذر هناك فإننا قادرون على الرد في أي لحظة على صواريخ الكاتيوشا الخاصة بحزب الله وحماية مستوطناتنا هناك.
- وهل سيسكت السوريون على ذلك.. وخاصة أن الجولان ما زالت تحت سيطرتكم؟
- السوريون لا يملكون سوى المفاوضات، وهي لن تجدي معنا شيئًا.. فقد فشلوا في السيطرة عليها خلال حرب يوم كيبور ودخلوا معنا في العديد من المفاوضات.. وبشار الأسد مثل والده، لا يجيد سوى الكلام بصوت عالٍ والحديث عن الحرب، بينما قواته لن تتحرك شبرًا للأمام.. ويجب أن تعرف أن تلك الهضبة هي موقع إستراتيجي خطير لنا.. فبمجرد الوقوف على سفح الهضبة تستطيع تغطية الشمال الشرقي من إسرائيل بالعين المجردة، وكذلك الأراضي السورية أيضًا حتى أطراف العاصمة دمشق، مما جعلنا نقيم محطات إنذار عسكرية في المواقع الأكثر ارتفاعًا في شمالي الهضبة لمراقبة تحركات الجيش السوري.

فرد الدكتور ماكلين بانتباه:

- ولكن أكثر الأماكن خطورة هي الجنوب والحدود مع مصر.
- منذ كامب ديفيد والوضع مستقر نوعًا ما. حسني مبارك صديق حميم لنا ونحن نعرف كيف نستغله ونستميله إلينا، كما أنه كثيرًا ما يقدم لنا العديد من الخدمات الجليلة من خلال استثمارات مشاريع سياحية في سيناء وصفقات

تجارية. وهو يعمل على تحويل دفة السياسة المصرية من أجلنا.. فهذا الرجل كنز لنا بحق.. كما أن الجيش المصري أصبح متراخيًا الآن.. فلم يخض أي حروب منذ أكثر من ٣٠ عامًا.

فقاطعه الدكتور ماكلين قائلاً:

– ولكن لا تنس دور هذا الجيش في حرب كيبور.. رغم سباته العميق طوال ست سنوات بعد حرب الأيام الستة.. استطاع قواده من استعادة التنظيم والانضباط والصحوة مرة أخرى في حرب أذهلت العالم كله.. لا يجب أن تغفل قوة المصريين العسكرية إذا ما انطلقوا للحرب.

فصمت بن أهارون وقال:

– عندك حق.. يجب أن نتوخى الحذر وكل الحذر من المصريين.. سيناء ضاعت في أقل من ٦ ساعات بعدما كانت بين أيدينا ٦ سنوات.

ثم نظر في ساعته وأكمل:

– الحديث معك متعة لا تقاوم دكتور ماكلين.. والآن أتركك كي تستريح.

فنظر إليه الدكتور ماكلين نظرة عميقة وهو يغادر المكتب.. وما أن أغلق بن أهارون الباب خلفه حتى نقر الباب مرة أخرى.. فأذن الدكتور ماكلين للطارق بالدخول.. كان الطارق مصطفى.. فدخل بهدوء ووقف أمام الدكتور ماكلين وقال بصوت هادئ وملامح متأثرة:

– لقد أتيت الآن كي أعتذر لك عما بدر مني اليوم.. أعرف كيف تنظر لنا.. ولكنني جئت كي أحاول أن أغيّر تلك الصورة.. ما حدث مني اليوم كان رغمًا عني فلم أستطع الخلاص من استفزازات ديفيد.. ولكنني سأحاول أن أضبط نفسي أمامك كي أحسن من صورتي في عينيك.

فصمت الدكتور ماكلين ثم رد قائلاً:

– رغم أنني لم أتوقع منك هذا الرد، لكني لن أنكر إعجابي به.. يبدو أنني سأحاول تغيير فكرتي عنك.. لقد سمعت أنك من الأوائل في هذا القسم رغم العديد من الصعاب التي واجهتها هنا.. ورغم عدم اقتناعك بالمقررات الدراسية التي تدرسها كما سمعت وكما رأيت.. ولكن هذا لا يمنع من محاولتي في إقناعك تغيير أفكارك والتي بدورها يمكن أن تجعلك تتقبل وضعك الحالي.

فصمت مصطفى ثم قال:

– سيدي.. ما تتحدث عنه ليس مجرد أفكار أو أيدولوجيات يمكن أن ندرسها بين جدران تلك الجامعة أو نقرؤها في كتب أو مراجع.. يمكن أن نتأثر بها ونغيرها كلما ظهر منها الأقوى.. إنه وازع الوطنية الذي لن يتغير مهما طال الزمن ومهما تغيرت الأفكار.. إنه ما ولدنا عليه كديننا وعقيدتنا.. مهما تعلمت وقرأت ووصلت لأعلى الدرجات فهذا لن يحرك في إيماني بوطني شعرة.

فنظر له الدكتور ماكلين بعنين مبهورتين وعلق قائلاً:

– يبدو أنك عنيد ومعتد بأصلك ووطنك.. لكن رغم كل هذا لماذا أتيت

لتدرس هنا بالجامعة العبرية وباللغة العبرية، والتي أرى أنك تجيدها بطلاقة؟ ولماذا قررت أن تدرس التاريخ الإسرائيلي رغم عدم اعترافك به؟

فرد بهدوء:

– لقد فُرض علينا واقعًا مريرًا، يجب علينا أن نتقبله أو نرحل من أمامه.. لقد فرض علينا الإسرائيليون العُزلة والجهل، أو الانصهار داخل كيانهم ومحو هويتنا العربية.. وكان يجب علينا مقاومتهم بنفس السلاح.. لقد جاء الوقت كي نعرف ونفكر مثلما يفكرون.. ومن أجل أن أنفع وطني يجب أن أتعلم منهم حتى لو كلفني الأمر الكثير.

فازدادت علامات الإبهار على وجه الدكتور ماكلين محاولاً إخفائها.. ورد عليه قائلاً:

– يبدو أنني فعلاً سأغير وجهة نظري عنك.. وأتمنى أن تحافظ على مستواك الدراسي.. فهذا أهم الآن من معتقداتك وأفكارك.

فابتسم مصطفى ونظر داخل عينيه ثم طلب الانصراف.

***

جلس طلبة قسم التاريخ داخل كافتيريا الكلية الواسعة في وقت الاستراحة.. وكان ديفيد متكئًا على الكرسي يتزعم الجلسة بجانبه دان وعومير يتحدث بصوت عالٍ، في حين جلست مريم أمامه صامتة تنظر إليهم شذرًا دون أن تحاول أن ترد عليه.. فأمسك بكوب زجاجي فارغ وأخذ يضرب به على الطاولة بقوة وقال بصوت غليظ:

– يبدو أن الجامعة أصبحت مرتعًا للمهاجرين.

فردّ عومير بلكنة ساخرة:

– عندك حق.. السافارد من ناحية والعرب من ناحية أخرى.
– أنا لا أعرف كيف تسمح إدارة الجامعة لمثل تلك النوعيات في الانضمام إلينا.. ثم ماذا سيفعلون بالشهادة التي سيحصلون عليها! إما أن يعملوا في مزارع "الكيبوتس" أو موظفين من الدرجة الثالثة.

فردت مريم باستخفاف:

– يجب أن تعرف ديفيد أن مجتمع إسرائيل ليس آشكيناز فحسب.. إننا نتكون من أعراق مختلفة جئنا من أماكن مختلفة لنتعايش في مكان واحد، ويجب أن نتعايش بسلام كي نستطيع الاستمرار على تلك الأرض.. كما لا تنس أن الحكومة الإسرائيلية قد اقتطعت أراضي الفلسطينيين وضمتها إليها بما فيها العرب القائمين عليها.

فقام ديفيد من مكانه ونقل كرسيه بالقرب منها نظر إلى عينيها العسليتين، وهو يجتاحهما بقوة، وأمسك بيدها وقال بصوت هادئ:

– خسارة أنك تؤمنين بمثل تلك الخرافات.. لو جعلتني اقترب منك أكثر لعلّمتك الكثير من الأشياء.

فنظرت إليه واكتسى وجهها بملامح القوة وسحبت يدها من تحت يده قائلة:

– لن أسمح لك بذلك أبدًا ديفيد.. وأنت تعرف أنني مرتبطة.

فرد بسخرية:

– بذلك العربي؟! إنك مخبولة.

فاحمرّ وجهها غضبًا واشتعلت بشرتها الخمرية نارًا وقامت من مكانها كي تغادر.. حتى اقترب شاب من الطاولة فنظر إليه الجميع بانتباه.. وانقلب وجه ديفيد ورفاقه وعلق دان بصوت مهزوز:

– يبدو أن من يؤيدك قد أتى يا مريم.

وقف "دانيال مزراحي" أمام الطاولة حاملاً حقيبة على ظهره ويمسك ببعض اللافتات والأوراق في إحدى يديه.. كان شابًا ذا بشرة خمرية وشعر بني مجعد.. ملامحه شرقية تقترب من ملامح العرب، حتى أن البعض يعتقده من عرب ٤٨، وهو عضو بارز ومساهم في جماعات السلام المناهضة للحرب واليمين المتطرف.. ما أن رأته مريم حتى انتبهت وارتسمت على وجهها ملامح الهدوء ووقفت أمامه.. فنظر إليهم قائلاً:

– شالوم يا شباب.

فردت مريم:

– كيف حالك؟ وكيف حال قسم الصحافة؟
– أنتِ تعلمين مدى صعوبة الدراسة، فوقتي مشتت بين قسم الصحافة

والتدريب بالجريدة وعملي التطوعي.

فرد ديفيد بسخرية:

– ويا هل ترى ماذا ستكتب لنا هذا الأسبوع أيها المناضل؟

فنظر إليه دانيال ورد بهدوء:

– أيًا كان.. سيكون في صالح الناس ومن أجل حياة آمنة دون اضطرابات.

ثم تحول إلى مريم وقال لها:

– قبل أن أنسى.. بعد غد سوف تنظم جماعة "السلام الآن" مسيرة سلمية أمام مبنى الكلية من أجل ما حدث من قوات الجيش ضد سكان المخيمات.. أتمنى أن تنضمين إلينا أنت ومصطفى.

فوقف ديفيد مقاطعًا وقال بصوت حاد:

– ألا تخجل من نفسك؟! كيف تكون إسرائيليًا وتضع يدك في يد هؤلاء العرب؟ بل وتدافع عنهم!

فصمت دانيال قليلاً ونظر إليه بعمق قائلاً:

– عزيزي ديفيد.. هؤلاء يحتاجون إلى السلام كما نحن نحتاج إليه.. وهذا لن يأتي إلا إذا وضعنا أيدينا في أيد بعضنا بعض.. حينها سنعش جميعنا في أمن حقيقي سيتحقق أكثر مما أنت تؤمن به من القمع

والتعذيب.. كما أنك أنت نفسك تحتاج إلى تحقيق السلام الداخلي مع نفسك قبل أن تحققه مع من حولك.. شالوم.

فنظر إليه ديفيد وهو يرحل والدم يغلي في عروقه، حتى كادت رأسه تنفجر وألقى الكوب من يده على الأرض بغِلّ حتى انشطر إلى مئات الشظايا.. وأخذ يصرخ بصوته الأجش:

– هذا الملعون.. كيف يتجرأ ويخاطبني بهذه الطريقة.. يجب أن أنتقم منه وأقضي عليه نهائياً.

فأمسكه دان من ذراعه وهو يحاول تهدئته قائلاً:

– اهدأ يا ديفيد.. يجب أن نفكر في القضاء عليه بحكمة أكثر من ذلك.. سيأتي دوره لا محالة.

فرد ديفيد وهو يراقب دانيال وهو يرحل من بوابة الكلية بعينين مشتعلتين كعيني الصقر:

– لن تفلت مني أبداً.. ما أن أصل إليك حتى أشعل نار غضبي فيك وأجعلك تندم على اليوم الذي دخلت فيه الجامعة العبرية.. بل دخلت فيه إسرائيل.

داخل مقر جريدة "جيروزاليم بوست" بوسط القدس.. ذلك المبنى الضخم ذو الطوابق العشرة والذي يضم المئات من الصحفيين والمحررين الذين حالفهم الحظ في العمل في واحدة من أكبر وأقدم الجرائد اليومية والأوسع انتشاراً في إسرائيل.. هرع دانيال وهو يحمل حقيبته إلى صالة التحرير بقسم السياسة، وهي قاعة

مفتوحة تضم مكاتب العديد من الصحفيين الشباب والكبار.. ورغم أنه في مرحلة الدراسات العليا من دراسة الإعلام.. إلا أن ولع دانيال بالصحافة والإعلام جعله يسلك طريق الصحافة منذ أن كان في المدرسة.. وبدأ حياته مراسلاً في جرائد صغيرة مثل جريدة "كل العرب" الناطقة بالعربية، والتي توجّه نقداً لاذعاً لسياسات إسرائيل والولايات المتحدة.. وجريدة "كول هاعير" الأسبوعية التي تصدر فقط في القدس.. فكان يدخل حواري العرب وأسواقهم وبيوتهم ويعرف مشاكلهم، حتى أنه أتقن العربية بطلاقة ودخل في صداقة مع عائلات فلسطينية عديدة.. اقترب من مكتبه بين زملائه وهم منكبّون على مكاتبهم بين من يكتب مقالاً ومن يرسم كاريكاتير.. فقامت فتاة من مكتبها وقالت له بملامح مضطربة:

– لقد تأخرت كثيراً.. "آدون كاتساف" كان يسأل عليك بإلحاح وهو في قمة الغضب.

فرد دانيال بهدوء:

– أنا أعرف لماذا!
– ألن تكف عن كتابة تلك المقالات التي تزعجه؟!

فنظر إليها وقال بصوت رصين وملامح واثقة:

– هذا ما أؤمن به.. أتمنى أن يؤمن هو الآخر بوجهة نظري.. وسأظل أكتب وأكتب حتى آخر يوم في حياتي.
– أخشى عليك مما تكتبه.. إنك تطلق نيراناً من سن قلمك.
– ما أن وضعت قلمي على الورق.. فلا يجب أن أخشى شيئاً.

وفجأة انفتح باب مكتب رئيس القسم وخرج كاتساف وهو في قمة الغضب يحمل أوراقًا في يديه.. وما أن رأى دانيال حتى صرخ في وجه قائلاً:

– أريدك في مكتبي الآن.

فدخل دانيال في هدوء شديد وعلى وجهه ابتسامته إلى مكتبه الزجاجي في نهاية الصالة والذي يراقب منه كاتساف كل ما يدور بالجريدة. بينما جلس كاتساف على مكتبه وأخذ يلوح بالأوراق التي يحملها في يده وقال بصوت عالٍ:

– ما هذا الكلام الذي تكتبه.. لقد نسيت أنك تتدرب في واحدة من أكبر صحف إسرائيل.. صحيفة تصف سياسة الدولة وخطوطها العريضة.. كيف تؤيد العرب علانية في مقالة وتريدنا أن نتوقف عن محاربتهم.
– سيدي.. صدقني إن تعاملنا مع العرب بسلام لن يهاجموننا كما يعتقد البعض.. ولكن كل ما يحدث من حملات اعتقال وتصفية تزيد الأمر اشتعالاً.. وهذا ما سينعكس علينا جميعًا.

فاحمرّ وجه كاتساف ورد بقوة:

– إنك تهاجم سياسة الدولة.. تريد أن تحرك الوطن كما تريد.. يبدو أنك تريد أن تضر نفسك وتضرنا معك.. وأنا لن أسمح بذلك.. إذا أردت أن تذهب للنار فاذهب وحدك ولكن لا تأخذنا معك.
– أنا لا أريد إثارة المشاكل.. ولكن كل ما أريده أن أرى الوطن يعيش في سلام.

فقاطعه كاتساف بعد أن هدأت ثورته وقال بصوت هادئ:

– اسمع دانيال.. أنت تعرف كم أنا معجب بنبوغك وموهبتك الصحفية.. شاب في عمرك لا يمكن أن يتدرب في جريدة كبيرة وفي قسم السياسة إلا إذا كان فذاً مثلك.. لكن نصيحتي لك أن تتوخى الحذر.. أنت تعيش في مجتمع مركب يحكمه فكر عسكري، لا يسمح بأي أفكار مناهضة له، وإلا هدد كيانه وكيان الدولة كلها.. صدقني ما تكتبه لن يضر بك هنا في الجريدة فحسب ولكن في حياتك أيضاً.. إن كنت أحدّثك هكذا.. فلأنني أعتز بك.. ولكن هناك من لن يرحموك في هذا البلد.

فنظر إليه دانيال نظرة عميقة وقال بهدوء:

– لا تقلق سيدي. لقد سلكت طريقاً أعرف مدى صعوبته وأشواكه التي تتناثر عليه.. لكنني مُصرّ في المُضيّ فيه.. أعرف أن هناك من يتربص بي ويحاول إيقافي، ولكنني لن أيأس، وسأظل أقاوم من أجل حماية الوطن كي أراه كما أريد.

خرج دانيال من مكتب رئيس التحرير، وارتسمت على وجهه ملامح القلق؛ حاول إخفاءها.. وجلس على مكتبه والتفكير يحوم بعقله.. حتى أنه لم يشعر بزميله "جلعاد" رسام الكاريكاتير وهو يقترب منه.. ذلك البدين المرح الذي يثير جو البهجة في القسم وسوماته تغطي جدران الصالة.. جلعاد ودانيال ثنائي يساري، دائماً ما تتلاقى أفكارهما حول السلام.. فالكلمة والصورة هي سلاحهما، ففي مواجهة التطرف والظلامية كلمات دانيال اللاذعة ورسومات جلعاد الحادة.

اقترب منه جلعاد وربت بيده على كتفه قائلاً:

– لم أعتد عليك هكذا.. لا تجعل كلام هذا الرجل المزعج يؤثر فيك.

فضحك دانيال ثم أخرج جلعاد مجموعة رسومات من حافظته قائلاً:

– ما رأيك في تلك الرسومات؟! بالأمس رفضها ناحوم بدون أي أسباب.

فمسكها دانيال يتفحصها بعينين فاحصتين، ليتأمل الخطوط والألوان وشخصيات جلعاد الكرتونية التي تعلق بها الناس، حتى وقع نظره على رسمة قوية تمثل طفلاً فلسطينيًا يلعب بكرة ويركلها لطفل إسرائيلي ليرد عليه بقنبلة.. فوضعها دانيال على مكتبه وقال:

– سوف أخذ تلك الرسمة وأنشرها بطريقتي.. العالم كله يجب أن يرى إبداعك جلعاد.. حتى وإن طبعتها ووزعتها على الطلبة في الجامعة.. المهم ألا تتوقف عن الرسم يا صديقي.

فرد جلعاد ممسكًا ببطنه:

– ولكن قبل أن أرسم يجب أن نأكل.. فالإبداع يحتاج إلى غذاء يا صديقي.

فضحك دانيال وقال:

– لا تقلق.. انا الذي سأدفع الحساب.

***

كان البار مزدحمًا بالساهرين الذين علت أصوات ضحكاتهم، والبعض منهم يلعب القمار، بينما يحتسي البعض الآخر الخمر وهم يتبادلون الحديث.. دخل بن أهارون بين الزحام وكأنه يبحث عن شخص ما، حتى اقترب من البار ونقر على ظهر أحد الجالسين.. فاستدار له وهو يمسك بكأس الفودكا.. فقال له بن أهارون:

– ها قد عثرت عليك إبرام.. أنا لم أر البار مزدحمًا هكذا من قبل.
– أنت تعرف زحام ليلة "الشبات" البار هو المكان الوحيد الذي يلتقي فيه الناس بعد أشغالهم.

فجلس بن أهارون بجوار إبرام وطلب كأسًا من الفودكا.. فمال عليه إبرام قائلاً بصوت خافت:

– وما أخبار صاحبنا؟ أراه وقد اندمج في حياة الجامعة.

فابتسم بن أهارون ابتسامة صفراء ورد:

– ليس فقط الجامعة.. بل في الحياة العامة أيضًا.. لم يبق له سوى أسبوع وبدأ يجمع حوله المعجبين والمعجبات.. شخصية ماكلين ذات جاذبية بلا حدود.. إنه يمتلك قدرة خرافية على الإقناع مهما كان من أمامه.
– لذلك كان يجب على شخص مثل هذا أن يعمل معنا.. مهما كلفنا الأمر.. يجب أن يكون بوقًا للصهيونية على مستوى العالم.
– يجب أن تعلم أن ماكلين ليس مجرد أستاذ عادي بالجامعة.. إنه يكتب في العديد من الصحف والمجلات العلمية العالمية وشهرته ذائعة في كل جامعات العالم.. كما أن آراءه السياسية لها صدى كبير بالأوساط العلمية والسياسية.

فرد إبرام بقوة:

– ولكن يجب علينا نحن ألا نتركه يحركنا بذكائه الحاد.. القيادة الأمنية مهتمة جداً بأمره.. هذا الرجل إما أن يكون كنز إسرائيل أو باب الجحيم عليها.. لذلك يجب أن نسيطر عليه.

فرد بن أهارون قائلاً:

– لا تقلق.. أسلوب الدراسة بالقسم والتيار اليميني السائد به لن يعطيانه الفرصة كي يفرض ما لا نرغبه.. هذا بالإضافة إلى أننا شكّلنا له مناخاً جيداً للاستفادة منه والتأثير عليه.. إنه عبقري في مادته، وسيَبهر الطلبة بأسلوبه العلمي وسيثبت في أذهانهم مبادئ الصهيونية والولاء لأرض الميعاد والدفاع عنها.

فاعتدل إبرام في جلسته وقال بثقة:

– على العموم لقد جهزت له مفاجأة.. لا أعتقد أنه سيقاومها.

فانتبه له بن أهارون ورد قائلاً:

– أعرفها.. ولكن أتعتقد أنها ستجدي مع رجل مثل ماكلين.

فلمعت عينا إبرام وضحك بخبث قائلاً:

– لا أعتقد أن هناك رجلاً يمكن أن يقاوم تلك المفاجأة أيا كان.. حتى لو كان ماكلين نفسه.

فضحك كلاهما ورفع إبرام كأسه قائلاً باستهزاء:

– والآن نشرب نخب ماكلين والمفاجأة.

غصن الزيتون

بعد ساعة من الطريق الطويل الشاق، وصلت مريم إلى منزلها في مستوطنة "هاراحوما" جنوب شرق القدس، لتقضي مع أهلها عطلة نهاية الأسبوع والتي تبدأ مع غروب شمس يوم الجمعة.. تلك المستوطنة الكبيرة القائمة على جبل أبو غنيم التي بنيت كامتداد للقدس، والمحاطة بالأشجار وأغصان الزيتون، تعانقها الأسوار العالية والأسلاك الشائكة.

وتعني كلمة "هارحوما" جبل الجدار، نسبة إلى بقايا جدار كنيسة بيزنطية أقيمت في نفس المكان.

وسارت مريم عبر طريق جبلي مرتفع داخل المستوطنة، بين المباني البيضاء ذات الشكل الموحد، والتي لا تتعدي ثلاثة طوابق، حتى وصلت إلى منزلها في نهاية المستوطنة.

وما أن وصلت إلى منزلها البسيط حتى ارتمت على الكرسي المجاور للباب وقذفت حقيبتها بعيداً، بعد أن ظهرت عليها ملامح التعب والضيق.. وكانت أمها في المطبخ المعلق به ثمار الثوم وأوانٍ فخارية تحضّر الغداء، مرتدية مريلة المطبخ على ملابسها اليهودية التقليدية، وتغطي شعرها بغطاء الرأس يظهر من أسفله شعرات حمراء.. بدينة الجسم والوجه، ذات

عينين جاحظتين وأنف كبير ذي نهاية مستديرة. تملأ يديها وملابسها رائحة الطبخ. بينما كان إخوتها الصغار يلعبون بالمطبخ وهي تنهرهم.. فصاحت من الداخل:

– ها قد أتيتِ.. كنت أعتقد أنك ستقضين عطلة هذا الأسبوع في أورشليم.

فصاحت بصوت مرتعش:

– ألا تريدوا أن تروني؟
– بالعكس.. ولكن اليوم قد ظهرت عليك ملامح التعب والإرهاق.

فردت مريم بقوة:

– لقد مللت من الحياة هنا.. كل شيء هنا كئيب ومقبض.. المساكن عبارة عن كتل خرسانية كأننا في سجن.. الكل هنا يراقب بعضه ويخاف من بعضه.. ليتني بقيت في أورشليم.

فردت الأم قائلة:

– ولكن تلك هي حياتنا التي لن نستطيع أن نغيّرها.. لقد جئنا إسرائيل ولم تحتو جيوبنا سوى على الفتات.. لولا أبوك وعلاقاته هي التي جعلتنا في هذا المستوى.. ثم لا تنسي أنك تعيشين في أفخم مستوطنة وأجمل مجمع سكني بها.
– وأين هو الآن؟ أكيد يقوم بعض أعمال السمسرة.

لم تنه مريم كلماتها حتى خرج الأب "يعقوب عازار". ومعه

مجموعة من الأوراق ورزمة من الدولارات الأمريكية والشيكلات الإسرائيلية.. وكان قصير القامة ذا وجه تملؤه التجاعيد، وعينين ضيقين تظهران بالكاد خلف نظارة صغيرة، وبشرة شاحبة ورأس أصلع، تغطيه الطاقية اليهودية، له جبهة بارزة للأمام تظهر بها عروقه أسفلها.. فاقترب منهما ورد بصوته الأخنف:

– لقد سمعت كل ما قلتِه أنت وأمك الثرثارة.. ولكن حسنًا ما فعلت أنك جئتِ إلى هنا.. لقد أصبحت الأسعار في أورشليم باهظة ولا يمكن لأحد أن يقطن فيها أو حتى يتسوق.. وأنا أرجّح لك أن توفري مالك وتقضي عطلة الأسبوع دائمًا معنا هنا في "هارحوما".

فردت الأم قائلة:

– يعقوب.. اترك البنت كي تعش عمرها.. لا تكبتها هكذا لمجرد رغبتك في التوفير.

فنظر إليها الأب شذرًا ورد قائلاً:

– جولدا.. يجب أن تتعلم الفتاة التوفير.. الأيام القادمة صعبة.. وكما ترين كم نشقى كي نحصل على المال! لقد تعبت طويلاً كي أتمم تلك الصفقة من ذلك الرجل العربي الجشع.. لقد أرهقني كي يبيع الأرض بهذا السعر.

فردت الأم قائلة:

– أنا أعرف أن زوجي أشطر سمسار في أورشليم وضواحيها.. وهذا لا يحتاج إلى تأكيد.. ولكن نريد أن نرى نتيجة سريعة لتلك الصفقات.

ثم استدارت إلى مريم قائلة:

– بالمناسبة.. أرأيت ماذا حدث أثناء غيابك في أروشاليم؟! لقد عادت تلك المرأة المزعجة التي تسكن فوقنا التي تدعى "أوديت" من السفر، وعادت إلى عادتها السخيفة في نشر ملابسها المبتلة هي وزوجها فوق ملابسنا.. يكفي منظر ملابسهما الداخلية الواسعة لتعرفي أنها عائلة من العجول وليس البشر.. سيأتي اليوم الذي سأضرب تلك المرأة حتى أجعلها ترحل من هنا.. كما أني رأيت ابنها الأبله "بنيامين" وهو يعبث في حديقة المنزل فجريت خلفه بالعصا ولكنه هرب مني، ثم أنه...

فنظرت إليها مريم بعينين أصابهما الضيق، ولم تحتمل ثرثرة أمها، فأمسكت برأسها من الصداع وتركتها لتدخل حجرتها.

فسألتها الأم:

– إلى أين أنت ذاهبة.. إنني لم أكمل لك بقية الأخبار!

فردت مريم وقد زاد عليها التعب:

– أنا ذاهبة لأنام؛ لم أعد أحتمل.
– ولكنني أعددت لك طبق الباستا التي تحبينها.

فنظرت إليها وأكملت طريقها إلى الغرفة قائلة:

– سآكله عندما أستيقظ.

دخلت مريم حجرتها وأغلقت الباب بقوة واستندت بظهرها عليه.

ودموعها تسيل من عينيها، وارتسم على ملامحها الضيق والألم.. أخذت تحملق في صورة معلّقة على جدار الحجرة لشاب بالزي العسكري لسلاح الطيران.. فاقتربت منها وأخذت تخاطبها بصوت ضعيف مخنوق:

"أخي موشي.. لقد اشتقت إليك كثيرًا.. لماذا رحلت وتركتني؟! أنت الوحيد في هذا البيت الذي يفهمني ويشعر بي وبآلامي.. لقد ضقت ذرعًا من هذا المكان ولم أعد أحتمل الحياة هنا.. الكل يكذب ويغش ويتلصص على غيره.. لم أعد أشعر بالراحة والأمان ولا يوجد أحد بجواري سوى أب عاشق للمال والتجارة، وأم لا تعرف شيئًا سوى المطبخ وأخبار الجيران.. الحياة من دونك كئيبة وسوداء.. متى ستنهي خدمتك بالجيش وتعود! إنني أحتاج إليك الآن أكثر من أي وقت".

ثم خرجت لغسل يديها للوضوء من أجل الصلاة، وأخذت شالاً حريريًا ذا أهداب طويلة وارتدته على رأسها ولفته على كتفها، وأمسكت بكتاب المزامير واتجهت ناحية القدس لتصلي.. فأخذت ترتل بصوت مرتعش وجسدها كله يهتز وعيناها مليئتان بالدموع، قائلة:

"امنحني إلوهيم آذانك كي تسمع كلماتي وتبارك صلواتي.. انصت إلى بكائي وأنا أتعبد إليك.. فإنك تكره الكاذبين والظلّمة وتمقت الملطخة أيديهم بالدماء.. أما أنا فسأدخل بيتك وأسجد عند أعتاب معبدك المقدس.. ارشدني إلوهيم للطريق الصحيح.. لأن أعدائي قلوبهم حاقدة وألسنتهم جرداء.. وحناجرهم قبور مفتوحة.. دنهم ليسقطوا من مؤامراتهم بكثرة ذنوبهم.. ويفرح جميع المتكلين عليك ويبتهج

بك محبو اسمك.. آمين".

***

نزل يعقوب من منزله قاصداً القدس، فذهب إلى مقهى عربي مزدحم يجلس فيه العديد من التجار والعمال، تتعالي فيه أصواتهم رغم "صوت العرب" الخارج من الراديو القديم.. بعضهم يلعبون الطاولة والبعض يدخن النارجيلة مصحوبة بالشاي بالنعناع أو القهوة العربي.. جلس يعقوب في ركن بعيد بالمقهى بعد أن طلب هو الآخر شايًا بالنعناع، وهو ممسك بحقيبة بكلتي يديه وكأن المال بداخلها كائن حي يمكن أن يفر منه.. وعلى وجهه ملامح الترقب حتى وجده ضالته.. دخل إلى القهوة رجلان أحدهما يرتدي الزي الفلسطيني التقليدي، حيث الجلباب الرمادي ويلف على خصره حزامًا وعلى رأسه عقالاً أبيض والشال الفلسطيني على كتفه، والآخر يرتدي قميصًا وبنطلونًا، وكلاهما في منتصف الخمسينيات من العمر.. دخلا كلاهما القهوة وهما في شدة الاضطراب والقلق يبحثان بعينيهما عن شخص تأخرا عليه، حتى وجدا يعقوب فهرعا إليه، بينما ظهرت عليه بوادر التذمر وقال بصوته الأخنف للرجل ذي القميص والبنطلون:

– لقد تأخرت يا ناصر.. كل هذا من وقتك.

فرد ناصر:

– أنت تعرف الطرق في القدس وقت الذروة يا يعقوب.. كما أن الحاج أبو عمار عطلني هو الآخر.

فنظر إليه يعقوب.. فرد أبو عمار بتلجلج:

– لا أبداً يا ناصر.. لقد كنت أبحث عن عقود الأرض.. وها قد وجدتها.

فرد عليه يعقوب:

– خير ما فعلت يا أبو عمار.

ثم أكمل بصوت خافت:

– المهم أن تكون جاهزًا كي نتمم صفقة بيع أرضك.
– أنا فعلاً أحتاج للمال: كل من حولي باعوا أراضيهم ورأيتهم قد أصبحوا أغنياء في وقت قصير.

فنظر إليه يعقوب من تحت النظارة وضحك بخبث ورد:

– لا تقلق يا أبو عمار.. فأغلب الأراضي المحيطة بالقدس تم بيعها بواسطتي.

فتنفس أبو عمار الصعداء وهدأت أساريره ورد عليه ناصر:

– ألم أقل لك يعقوب عازار هو أفضل سمسار في ضواحي القدس.

فأخذ يعقوب رشفة من الشاي وأكمل:

– ولكن ما أعرفه أن أرضك ليست متاخمة للمستوطنات مثل باقي الأراضي.. لكن هناك شركة فرنسية تريد عمل مشروع مصنع أغذية عليها.

فانتفض أبو عمار من مكانه وقال بلهفة:

– وكم ستدفع؟

أخذ يعقوب رشفة أخرى وقال:

– امممم.. هذا ما سوف تحدده الشركة.. ولا تنس عمولتي في البيعة ليس أقل من ١٠%..

فارتسمت ملامح الفزع على وجه أبو عمار ورد:

– ولكن ١٠% كثير يا يعقوب.
– أنت لا تعرف كم ستدفع الشركة لي.. وهذه شروطي، وكل عملائي يعرفونها يا أبو عمار.

فنغزه ناصر في كتفه وقال له بصوت خافت:

– إنها فرصتنا يا أبو عمار.. يجب أن توافق.

قام يعقوب من مكانه وقال:

– عندي موعد آخر.. الأسبوع القادم في مكتبي تأتي ومعك العقد، فالشركة لن تنتظر كثيراً يا أبو عمار.

***

بعد أن غربت الشمس.. بدأ الظلام يلامس أرض المستوطنة والهدوء يملأ أركانها.. نزلت مريم مرتدية شالاً أخضر بعد أن شعرت بالضيق في منزلها، وأخذت تتمشى بين الأشجار وهي تستنشق نسيم الغروب بين التلال.. ودون أن تدري أخذتها قدماها بعيداً وهي تنظر إلى السماء والأفكار تحوط بعقلها.. حتى صعدت إلى قمة التل.. وفجأة سمعت صوت حفيف خلفها بين أوراق الشجر.. فاستدارت منزعجة وأخذت تحملق فيما حولها.. لكنها لم تر شيئاً وأكملت سيرها.. ثم سمعت نفس الصوت يقترب منها.. فتوقفت واكتسى وجهها بالقلق والتفتت حولها بقوة ثم استدارت كي تعود.. ولكن فجأة خرجت يد بين الأشجار وجذبت الشال بقوة.. فصرخت مريم وكادت أن تسقط على الأرض حتى خرج شخص من بين الشجر وأمسك بفمها بقوة ونظر إليها بعينين حمراوين.. فنظرت إليه بدهشة وأبعدت يده وقالت له بعنف:

– عساف! ماذا دهاك؟! ماذا تفعل هنا؟!

فرد عليها بصوت مهزوز:

– لقد مكثت هنا طوال الوقت كي أراك.. وها قد أتيتي كما أردت.

فنظرت له بقوة وقالت:

– يبدو أنك ثمل ولا تعي ما أنت عليه.. أو ربما تتعاطى تلك السموم التي أنت معتاد عليها.

- أيا كان.. لكن تلك المرة لن أدعك تفلتين من بين يدي.

فصرخت في وجهه قائلة:

- أنت مجنون.. أنت فعلاً لست بوعيك.

فضحك عساف قائلاً:

- إذا كنت تعتقدين أنني لن أستطع أن أصل إليك، فإنك تحلمين.. أنت ملكي ولن تكوني لأحد غيري.

فأمسكت بيده وأبعدتها عنها وابتعدت مذعورة وقالت:

- اغرب عن وجهي الآن وإلا صرخت بصوت عالٍ وطلبت لك الشرطة.

فنظر إليها بعنين حمراوين يملؤهما التحدي وقال:

- أنا سوف أتركك الآن.. ولكن أعدك بأنني لن أستسلم أبداً.. أبداً.

فلملمت مريم شالها وركضت مذعورة بعيداً حتى اختفت.. بينما خرج بين الأشجار شخص آخر بملابس رثة ووجه شاحب يعتليه ملامح بلهاء وعينين ثملتين، وأخذ يترنح بين أفرع الشجر حتى وصل إلى عساف.. فقال له بصوت مهزوز ولسان ثقيل:

- ماذا حدث.. هل خاطبتها؟!
- بلى.. ورحلت الآن.
- إذن اتركها وتعال لنكمل سهرتنا.
- لن يهدأ لي بال إلا بعد أن أسيطر عليها وأملكها بين يدي.. أنت تعرف يا

نعوم أنني إذا صممت على شيء لا أتركه.

فرد عليه نعوم ببلاهة:

– لكنك تعرف كم هي مغرورة وترى جميع شباب المستوطنة دون مستواها.
– وأبوها الجشع يعقوب يسير بين الناس يتغنى بها وكأن ليس لها مثيل.. فمنذ أن دخلت الجامعة العبرية وأكملت دراساتها العليا بها وهي ترى نفسها فوق الجميع.

فأمسك نعوم بيده وجذبه باتجاه التل قائلاً:

– أيًا كان.. دعك من هذا الهراء.. وتعال نعود إلى البار كي تغير مزاجك ونكمل الليلة السعيدة.

فرد بهدوء وعينه على طريق منزل مريم قائلاً:

– معك حق.. هيا بنا.

سار كل من عساف ونعوم بأعلى التل حتى وصلا إلى مكان مهجور بعيد عن العمران، بآخره ملهى مليء بالشباب الثمل وفتيات الليل الرخيصات، البعض منهم يرقص والبعض الآخر يحتسي الخمر أو يتعاطى حقن المخدرات وهم في حالة إعياء شديد.. فدخلا وسط الشباب حتى وصلا إلى البار.. فأحضر نعوم كأسين من النبيذ الرخيص وأعطى إحداهما لعساف قائلاً:

– أنا لا أعرف سبب تمسكك بتلك الفتاة المتعالية المغرورة.. منذ البداية وهي تنبذك ولا تهتم بك.. رغم ذلك أراك مُصرًا عليها بشدة.. رغم أنك محاط

بالعديد من الفتيات الجميلات المثيرات مثل سارة وراهيل.
– قلت لك سابقًا.. تلك الفتاة تمثل لي تحديًا كبيرًا.. إنها تتحداني وتستفز مشاعري.. إنها نوع آخر من الفتيات يحسب نفسه فوق بقية البشر ولا يستحق أحد أن يفوز بها.. لكنني مُصر على خوض التحدي ولن تكون مريم لأحد غيري.

فابتسم نعوم ابتسامة بلهاء وظهر على ملامحه تأثير الخمر المغشوش ورد قائلاً:

– أتحبها عساف؟!

فرد عساف بغيظ شديد:

– قلت لك أيها الأبله إنه ليس حبًا.. ولكنها رغبة في السيطرة والانتقام.. رغبة كي أثبت لنفسي ولها أنني لست أقل منها شأنًا لكوني فقيرًا أو عاطلاً.. بل أنني سأسيطر عليها وأذلّها رغم ثرائها وتعلمها.

لم يمض الوقت على المناقشة الساخنة بينهما.. حتى دخل الملهى فتاتان مفعمتان بالأنوثة ترتديان ملابس قصيرة ساخنة واقتربتا من البار.. فوقف نعوم يحدق فيهما بعينيه الضيقتين، فارتسمت على وجهه ملامح السعادة ثم علا بصوته قائلاً:

– ها قد قدمتا.. سارة وراهيل.. ليتكما أتيتما مبكرًا.

ثم لف نعوم ذراعه حول خصر راهيل ذات البشرة السمراء المثيرة والعينين العسليتين والصدر الممتلئ الرجراج قائلاً:

- ما رأيك في أن نرقص معًا.. أو نقضي الليلة معًا بالأعلى؟ سوف ترين مني ما لن يأتي ببالك أبدًا.

فضحكت ضحكة عالية تملؤها الأنوثة.. وردت قائلة:

- أنت شقي نعوم.. أحب هذا النوع من الرجال.

ثم اقتربت سارة من عساف.. تلك الفتاة الشقراء التي تضع ماكياجًا كثيفًا على وجهها وحلقًا ذهبيًا في أنفها ووشمًا على شكل قلب على ذراعها اليمنى.. والتقطت السيجارة التي قد أشعلها قائلة:

- ماذا بك؟ تبدو متجهمًا الليلة.. أهناك شيء ما يضايقك؟

فرد بوجه مليء بالضيق وهو متأفف:

- لا شيء.
- غير صحيح.. إنك على هذه الحال منذ مدة.. وأنا ألاحظ ذلك ولا أتكلم.. أهناك فتاة أخرى

في حياتك؟

فالتف إليها بقوة أخذ سيجارته قائلاً بغضب:

- قلت لك لا شيء.. فقط أعاني من بعض الضغوط.. سارة لا أريدك أن تضغطي عليّ أكثر من ذلك.

فأخذت حقيبتها وقامت من مكانها بعد أن اكتست وجهها ملامح الغضب:

– حسنًا.. أنا سوف أرحل الآن.. وعندما تعود إلى حالتك الطبيعية يمكن أن تكلمني على الهاتف.. أعتقد أن رقمي ما زال معك.

فنظر إليها عساف وهي تخرج من الملهى حتى اختفت.. فأخذ كأس النبيذ وشربه مرة واحدة وقال في سره:

– سيأتي اليوم الذي سأحصل فيه على كل ما أريد.. حينها سأتخلص من كل هذه الأشياء المزعجة وأستطيع أن أنتقم من الجميع.

***

سار مصطفى بين الناس بشارع سوق القطانين بالمدينة القديمة بالقدس الشرقية، تلك السوق المليئة بالدكاكين والمحلات القديمة، حيث تتعالي أصوات الباعة وتزدحم بالمارة وهو يحمل بعض الأغراض المنزلية حتى وصل إلى مسكنه العتيق عند طرف الشارع، حيث يسكن في منزل متهالك تظهر بواجهته شبابيك خشبية عثمانية الطراز من بيوت القدس العتيقة التي أصبحت مهددة بالانقراض.. وصعد إلى الطابق الثاني فوجد جارته السيدة أم محمود تخرج من المنزل.. فحياها بحرارة قائلاً:

– كيف حالك يا أم محمود الآن؟ أتمنى أن تكونين أفضل.

فردت بصوت هادئ وملامح راضية:

– نحمد الله.. ما زلت أتلقى علاج الأزمة القلبية رغم أنه قليل جداً في السوق.. وهؤلاء الملاعين لا يريدون أن يمدونه بالصيدليات إلا بالكاد.. أنا لا أعرف إن نقص ماذا يمكن أن أفعل!

فرد مصطفى مواسياً:

– لا تقلقي يا أم محمود.. أنا سأحضره لك من أي مكان.. وإن أردت أي شيء آخر لا تترددي في إخباري.. ألست مثل محمود؟!

فاغرورقت عيناها بالدموع ووقفت تدعو له بصوت عال:

– ربنا يبارك فيك يا بني.. ربنا يبارك فيك.

ثم دخل مصطفى منزله فوجد طبقاً من الجبن والخبز على المنضدة، ثم سمع يوسف زميله في السكن يغني في المطبخ.. فوضع مصطفى أغراضه ونادى بصوت عال:

– ما هذا؟ ألم تعد طعام الغداء بعد؟!

فرد يوسف قائلاً:

– دقائق وسوف أعد لك أفضل طبق "مقلوبة" أكلته في حياتك.

فامتعض وجه مصطفى وغمغم في سره:

– ربنا يستر.

ثم جلس على المنضدة وأمسك بطبق الخضروات قائلاً:

– وأكيد السلطة ستكون عليّ.

خرج يوسف من المطبخ حاملاً طبق المقلوبة، والتي سبقتها رائحتها القوية، بينما انتهى مصطفى من عمل السلطة.. وجلسا كلاهما يأكلان الغداء.. فقال يوسف وهو منهمك في الطعام:

– ما أخبار الجامعة اليوم؟ هل من جديد؟
– لا جديد.. فقط زادت حملة الاعتقالات والقمع، وقامت قوات الشرطة باستفزاز الطلبة، ودخلت داخل الجامعة وفرّقت مظاهرة واعتقلت عدداً كبيراً من الطلبة بطريقة وحشية حقيرة.

ثم نظر له يوسف نظرة خبيثة وسأله بابتسامة صفراء قائلاً:

– وما أخبار مريم؟ أرأيتها اليوم؟

فبادله مصطفى نفس النظرات.. ثم أراح ظهره للخلف وتوقف عن الأكل قائلاً:

– أتعرف؟ تلك الفتاة شديدة الغرابة.. محيّرة لدرجة كبيرة.. أوقات كثيرة أشعر كأنها لا تنتمي إلى عالمها وكأنها ليست يهودية.. تمقت المكان ولا تستطيع التعامل مع من حولها.. تريد أن تعيش في عالم خاص رقيق وحنون.. وفي أحيان أخرى أرى بداخلها بركان غضب مشتعل وناراً متأججة يمكن أن يحرق كل شيء.. ثورة طاغية ترفض كل ما يحيط بها وتريد تدميره.. كثيراً ما أشفق عليها وأريد احتواءها.. ولكن هناك بداخلها ما يجعلني أخاف منها.

فارتسمت على وجه يوسف ملامح الدهشة ووقف الطعام في حلقه وهو يقول:

- يا الله! إنه شيء غريب حقًا.. رغم أن لها ملامح رقيقة أخّاذة تخطف البصر.
- الجمال ليس كل شيء يا عزيزي.. ثم لا تنسى أنها يهودية متدينة، وهي أيضًا...

لم ينه مصطفى كلماته حتى سمعا ضجيجًا عنيفًا في الشارع.. فانتفضا مسرعين نحو الشرفة.. فقال مصطفى وهو يتبع يوسف قائلاً:

- إنه أكيد منصور.
- فعلاً إنه هو.

صعد كلاهما إلى الشرفة فوجدا شابًا لم يتعد الثلاثين من عمره، قعيداً يمشي على كرسي متحرك، يتشاجر مع مجموعة من العساكر الإسرائيليين المرابطين عند أحد المعابر التي تربط الشوارع الرئيسية ببعضها.. وأخذ يصرخ فيهم بصوت عالٍ وكلمات غير واضحة ويحرك يديه في الهواء حتى استطاع المرور من المعبر والعبور إلى الطريق، وهو يحرك عجلتي الكرسي بيدين ضعيفتين حتى غاب عن الأنظار.

فاستدار كل من مصطفى ويوسف وجلسا على المنضدة من جديد.. فأخذ مصطفى يأكل وعلى وجهه ملامح الشرود ثم نظر إلى يوسف قائلاً:

- أتعرف يا يوسف! في كل مرة أرى فيها منصور يزداد إعجابي به.. إنه

رمز للصمود والقوة.. فهو الوحيد الذي يعبر من المعبر نحو الطريق بعد أن يتشاجر مع القوات الإسرائيلية، ويحتمل صفاقتهم وإهاناتهم ويرد عليهم بقوة حتى يمر منه رغم إعاقته.. في حين أن الأسوياء لا يجرؤون على ذلك ويضطرون إلى المرور من فوق التل الوعر حتى يصلون إلى النصف الآخر من الطريق، بعد أن خصص هذا المعبر المباشر لليهود فقط.. إنه يتحدى إعاقته ويحمل كرامته على يديه ويعتبر المعبر مسألة كرامة وشرف.. وينجح فيما لم ينجح الآخرون فيه.

فرد يوسف بهدوء:

– خاصة بعد أن فقد ساقيه في المقاومة.. بعد أن أمسكه اثنان من الجنود الإسرائيليين وأشبعوه ضربًا على سيقانه بمؤخرة بنادقهم حتى فتتوا عظامه.. وأصبح من المستحيل إعادتها مرة أخرى.

ثم صمت يوسف قليلاً ثم قال بصوت يملؤه الحزن:

– بمناسبة المقاومة.. لقد حدث اليوم شيئًا قبل أن تأتي يجب أن أخبرك به ولا أريدك أن تحزن.. لقد أتت قوات الاحتلال وداهمت المنزل المجاور لنا، واعتقلت مروان بعد أن خربوا المنزل وشرّدوا من فيه.

فاكتسى وجه مصطفى بالوجوم وتوقف عن الأكل.. فرد يوسف قائلاً:

– لم أقل لك ذلك كي تحزن وتتوقف عن الأكل.. أنا أعرف كم تحب مروان وعائلته وماذا يمثل لك.. لكنك تعرف أن هذا الوضع أصبح عاديًا، نراه ونسمع به كل يوم.. وأنت نفسك مررت بذلك كثيرًا.

فرد مصطفى:

– مروان ليس مجرد جار وصديق.. إنه بمثابة أخ وأكثر من أخ لي.. كما أنه هو العائل الوحيد لأسرته ولم يكن له أي دخل في المقاومة.. وهم يعرفون ذلك جيداً.. لا أعرف كيف سيمر الوقت على والده المسن "عم حمزة" الذي لا يفعل شيئًا في حياته إلا بمساعدته.. منهم لله الملاعين.. إنهم يشعلون النار أكثر وأكثر دون أن يشعرون.

فرد يوسف:

– لا تقلق على عم حمزة.. أنا سأقوم باللازم.. فقط اهتم أنت بدروسك.

فرد مصطفى بصوت قوي:

– إنه واجب عليّ يا يوسف.. إنها مسؤوليتي تجاه أهلي وأصدقائي.. لا يجب أن أتخلى عنهم مهما حدث.

فصمت يوسف ثم رد قائلاً:

– أنت عظيم يا مصطفى.

***

داخل شركة "شالوم تورز" للخدمات السياحية والواقعة في شارع "الملك جورج" بالقدس الغربية.. حيث جلس الموظفون يرتدون زيّ موحداً ما بين اللونين الأبيض والأزرق أغلبهم من الآنسات الرشيقات.. وتجد البوسترات معلقة على جدران الشركة عليها

مناظر خلابة للأماكن السياحية في إسرائيل، مثل سواحل حيفا وتل أبيب ومزارات القدس العتيقة.. دخل أحد السائحين ذو شعر بني قصير وجسد رياضي ويحمل على كتفه حقيبة رياضية يرتدي تي شيرت فريق "لوس أنجلوس ليكرز" للسلة.. وجلس أمام إحدى الموظفات تشرح له البرامج السياحية التي تقدمها الشركة في القدس وبقية إسرائيل.. بينما كانت عيناه زائغتين لا ينتبه لكلامها.. حتى دخل راؤول رود صاحب الشركة.. وهو رجل أنيق لا يرتدي سوى بدل من ماركات عالمية ويضع عطرًا يسبقه قبل أن يدخل من باب الشركة، يخفي بعض شعراته البيضاء خلف الصبغة السوداء الحالكة.. صيفا وشتاء يفتح القميص ويظهر من أسفله سلسلة ذهبية تنتهي بنجمة داوود والتي لا تظهر.. حيّا رود السائح بحرارة ودعاه إلى مكتبه، فدخلا وأغلق رود الباب بإحكام واستدار نحوه قائلاً بصوت خافت:

- لم تتأخر كولونيل باركر!
- أحترم مواعيدي معك دائمًا مستر رود.
- ولكن كيف دخلت إسرائيل بتلك السرعة والسهولة؟ هل انتهت خدمتك بالجيش الأمريكي في بغداد؟

فاعتدل الكولونيل باركر وأكمل:

- حصلت على إجازة بصعوبة.. فسافرت إلى إسطنبول منها إلى تل أبيب.. ثم إليك رأسًا يا عزيزي.

فاقترب منه رود وقال بعينين لامعتين وصوت متحفّز:

- وماذا عن الوضع في بغداد.. هل وجدت ما نبحث عنه؟

– لحظك السعيد كنت ضمن القوة المكلفة بحماية متحف بغداد الوطني.. وهناك وجدنا كنوزًا لا تقدّر بمال. قطع أثرية وعملات ومخطوطات وغيرها.. ساعدت الجاليات اليهودية في أمريكا في نقل مجموعة كبيرة منها إلى هناك.. كما أنني أحضرت لك مجموعة منها.

فانتفض رود من مكانه وارتسمت عليه ملامح دهشة ومال إليه أكثر قائلاً:

– وأين تلك القطع؟

– لم يكن من السهل الخروج بها من بغداد والعبور بها عبر تلك المسافات كلها.. ولكنني نجحت في ذلك بفضل علاقاتي.

ثم أخرج من حقيبته ألبوم صور. فتسابقت عينا رود إليه وهي تحملق في صور التماثيل والمنحوتات الأثرية وكأنه يتحسس بنظره عارضات عاريات في مجلة **playboy**، يمتع نظره بتقاسيمها وخطوطها اللينة والنقوش والزخارف التي تزينها.. حتى سقطت عينه على مجموعة من المخطوطات والوثائق المكتوبة بالعبرية والعربية.. فاتسعت مقلتاه ولم يصدق ما يرى.. تلك المخطوطات هي الأرشيف اليهودي بالعراق والتي توثق السبي البابلي الأول والثاني. بالإضافة إلى أقدم نسخ من التلمود والتوراة منقوشة بالعبرية ومزينة ببعض الزخارف التي تمثّل نجمة داوود.. ظل رود يقلب في صور تلك المخطوطات حتى وصل إلى أخطرها.. وهي عقود ملكية لأراضٍ مملوكة لعائلات يهودية في العراق ترجع لمئات السنين.. فنظر إلى الكولونيل باركر وقال:

– إنها فعلاً كنوز لا تقدر بثمن.

فابتسم باركر ورد:

– صديقي رود أنت لست مجرد صاحب شركة سياحة.. بل من أكبر تجار الآثار في الشرق الأوسط.. وأعرف كيف ستسوّق كنزًا مثل هذا.. قوات المارينز نقلت ما يقرب من ٤٠ صندوقًا مليئًا بما رأيته من كنوز في هذا الألبوم.. ولكنني أريد أن آخذ نصيبي من تلك التركة الضخمة.

فزاد الانبهار في عيني رود وأكمل:

– لقد جئت للمكان الصحيح يا عزيزي.. أما بخصوص المخطوطات فأنا أعرف من يقدر قيمتها ويدفع فيها ما تستحقه.
– كل تلك القطع والمخطوطات موجودة عندي هنا في القدس الآن في مكان أمين.

فاقتنص رود الألبوم من باركر وقال له:

– اترك لي الألبوم لأتفحّصه بدقة.. وسأتصل بك خلال أسبوع لنرى هذا الكنز على الطبيعة.

***

أخذت طائرات الـF-١٦ الإسرائيلية تشق سماء إحدى القواعد العسكرية بشمال حيفا في جولة تدريب قوية.. وكان زئير تلك الطائرات يهز المباني رغم ارتفاعها الشديد عن الأرض، بعد أن استعرض الطيارون مهاراتهم في المناورة.. حتى اقتربت إحدى الطائرات من ممر الهبوط، فتجمع عدد من العساكر لإرشادها، فنزلت الطائرة بقوة شديدة على الممر حتى استقرت.. ونزل منها

طيار شاب ظهرت ملامحه شرقية سمراء، بعد أن خلع خوذته وظهر عليه الإرهاق.. فاقترب منه أحد العساكر قائلاً:

– هبوط جيد يا كابتن.. أهناك أي عيب في الطائرة؟

فرد الطيار قائلاً:

– يبدو أن عجلات الطائرة تحتاج إلى بعض الضبط، فهي تنحرف قليلاً عند الهبوط.

ونزلت طائرة أخرى بعد دقائق بنفس السرعة.. ونزل منها الطيار واقترب من زميله مسرعًا وهو يقول:

– موشي.. لقد أرهقتني اليوم في المناورات.

فابتسم موشي قائلاً:

– التدريب على المناورة وضرب المنشآت بالـF-١٦ ليس سهلاً يا مورد خاي.. كما أن أسلوب التدريب بهذا النوع من الطائرات يحتاج إلى وقت طويل ولياقة عالية.
– فعلاً.. خصوصًا أننا توقفنا عن التدريبات لمدة كبيرة بعد عملية غزة.

فاقترب منهما أحد الضباط قائلاً:

– كابتن موشي.. كابتن موردخاي.. القائد العام يريدكما الآن.

فارتسمت على وجهيهما ملامح القلق.. ثم دخلا في مبنى ذي ممر طويل وسط تحية الضباط والعساكر، حتى وصلا إلى مكتب

كبير. فطلبا الإذن بالدخول من سكرتير القائد ودخلا المكتب وحيّا القائد تحية عسكرية صارمة.. فوقف الجنرال إسحق ليفي القائد العام من مكتبه وحياهما مبتسماً ثم قال:

– كم أنا سعيد بوجود اثنين من أمهر الطيارين مثلكما في جيش الدفاع.. لقد جاءتني مجموعة من التقارير عن مستوى تدريبكما تظهر مدى تفوقكما في نظام التدريب الجديد.. هذا ما كنت أتوقعه منكما وأكثر.

فابتسم كل من موشي وموردخاي ثم ردا:

– نحن دائماً سنكون عند حسن ظن سيادتك. ومخلصين للوطن وجيش الدفاع.

– أتمنى أن تحافظا على هذا المستوى.. فنحن مقبلون على مرحلة قوية من دفاعنا عن أرض الوطن.

ثم أذن لموردخاري بالانصراف. بينما أمر موشي بالبقاء. فزدادت ملامح القلق عليه.. فاقترب منه الجنرال ليفي ووضع يده على كتفه قائلاً:

– اسمع موشي.. رغم معرفتي بطبيعتك الهادئة ومواقفك الإنسانية التي لا مكان لها هنا.. لكن هذا لا يحرك ثقتي في قدراتك الكبيرة في مجال الطيران العسكري وإخلاصك للوطن.. فأنا أعتبرك واحداً من أفضل طياري جيش الدفاع على الإطلاق.. ولكن جاءني تقرير من الميجور "آفيدان" قائدك المباشر غاية في السوء.. أعرف أنه متحامل عليك ويضطهدك بشدة.. لكنني لا أريدك أن تعطي له الفرصة لذلك.. أنا سوف أحفظ هذا التقرير وكأنه لم يأتني أصلاً.

فاحمرّ وجه موشي وأخذ يغمغم في سره:

– ماذا يريد مني هذا الملعون؟!

ثم طلب الإذن في الانصراف وخرج من المكتب.. فكان موردخاي في انتظاره.. فقال له بصوت يكسوه القلق:

– ماذا حدث؟

فرد موشي وقد ملأ وجهه الغضب:

– إنه آفيدان مرة أخرى.. يبدو أنه لم يكتف بما حدث قبل ذلك!

– ذلك الأشكينازي البغيض.. ألن يكف عن اضطهادنا.. إنه لن يرتاح إلا بعد أن يترك أحدنا هذا المكان.

فتنهد موشي بقوة ثم قال:

– يبدو أن معركتي معه لم تنته بعد.

ما لم ينه موشي كلماته حتى سمعا خطوات أحد الضباط تقترب خلفهما وسط انتباه العساكر.. وما أن التفتا حتى احمرّ وجه موشي وتحجرت مقلتاه.. فوقف أمامهما ضابط نحيل الجسد ذو وجه يملؤه التجاعيد رغم صغر سنه، ونظر إليهما بعين ثاقبة غائرة ووجه ممتلئ بالحقد والغضب.. فاستدار إليه موشي بقوة وصرخ فيه قائلاً:

– يبدو أنه قد جاء الوقت كي أوقفك عند حدك آفيدان.

فنظر إليه آفيدان بقوة قائلاً:

– كيف تجرؤ وتتحدث معي بتلك اللهجة أيها السفاردي.. يبدو أنك قد تعديت حدودك أيها الضابط.. أنتم هنا لتنفذوا الأوامر فقط.. وأنا هنا الذي يعطي الأوامر.

فازداد غضب موشي وبدأ يخرج عن شعوره، بينما أمسك به موردخاي كي لا يتهور.. فنظر إليهما آفيدان باحتقار شديد ثم أبعد موشي بيديه وهو يغادر قائلاً:

– أنصحكما أن تبتعدا عن طريقي.. وإلا ستندمان كثيراً.

فنظر إليه موشي والنار تخرج من عينيه بينما أخذ موردخاي يهدئه قائلاً:

– اتركه الآن.. سوف يأتي اليوم الذي نأخذ فيه اعتبارنا.

***

إنه يوم "الشبات" أو السبت.. العيد الأسبوعي المقدّس لليهود، فلا توجد خطيئة عند المتشددين تفوق عدم المحافظة على شعائر السبت إلا عبادة الأوثان.. في هذا اليوم تتوقف الحياة تمامًا في إسرائيل إلا عند بعض الأفراد والمؤسسات العلمانية.. فلا أحد يشعل نارًا أو يطفئها أو يحمل قلمًا أو نقودًا.. ولا تجد أحدًا في الطرق والشوارع إلا من هؤلاء الأقل تدينًا وتمسكًا بتعاليم التوراه.. فالحياة في تل أبيب متفتحة نوعًا، ولكن في القدس تطبق فيها تعاليم الشبات بشكل أكثر صرامة.. والكل ينتظر الشبات ليرتاح من عناء عمل الأسبوع، كما ارتاح رب اليهود في التوراه.. هذا اليوم هو يوم تجمع الأسر الإسرائيلية لتناول وجبات اليوم معًا، بداية من إشعال شمعتين من شموع السبت وتلاوة صلاة "القيدوش".. صلاة بداية يوم السبت.

ومع غروب يوم السبت وحلول الظلام وظهور النجوم في السماء.. جاء موعد وجبة العشاء الذي ينتهي به يوم السبت، فتجمعت أسرة عازار على المائدة، بينما أحضرت جولدا طعام العشاء المعد سلفًا من المطبخ، حيث كانت رائحة الطبيخ تفوح قوية، ووضعت رغيفين خبز على شكل جدائل بجانب الأكل، كذكرى للطعام الذي أرسله الرب لبني إسرائيل في البرية، ثم أزاحت المفرش المخصص لأكل يوم السبت عن الأطباق، المزخرف بنجمة داوود وبعض الأدعية بالعبرية منتظرة عودة يعقوب من المعبد، في حين أخذت مريم تساعدها في نقل الطعام، وأشعلت البخور لإضفاء روائح زكية للمنزل، وأضاءت "شمعة الهفدالاه" ذات فتائل كثيرة مجدولة في ضفيرة واحدة، والمخصصة لهذه المناسبة في وسط المائدة.. وجلس إخوتها الصغار في انتظار العشاء.. فدخل يعقوب متتبعًا رائحة الطعام وقال بصوت عال:

– ما كل هذا الطعام يا امرأة؟! ما كل هذه الرائحة؟! أتنوين تجهيز وليمة؟! نحن جميعنا في هذا البيت لا نزيد عن ستة.. في حين أن ابنك الشاب في الجيش.. إذن لماذا كل هذا الإسراف في الطعام؟!

فنظرت إليه بضيق وقالت بغيظ:

– إنك لن تقلع عن بخلك هذا أبداً.. إنني أجهز العشاء الذي يحبه الأولاد والذي حرمتنا منه شهرًا كاملاً بحجة التقشف.. كما أنني أجهزه منذ يومين.

فأكمل قائلاً:

– وما كل تلك الأنوار التي توقدينها.. لم يأتِ الظلام بعد.. ما زال هناك بصيص من الضوء بالخارج.. يجب أن تتعلموا التوفير.. الأيام القادمة صعبة.

فصرخت جولدا قائلة:

– يا رجل.. أتريدنا أن نعيش في ظلام من أجل أن توفر ثمن الكهرباء؟! حرام عليك!

فنظرت إليهما مريم وهي تشتعل من الشجار اليومي بينهما، وقالت في حنق:

– أليس هذا هو وقت تناول العشاء والصلاة؟! اتركوا الخلاف قليلاً.

فصمت كلاهما قليلاً، ثم وقف يعقوب على رأس المائدة ممسكا

بكأس الخمر ليرفعه لأعلى، وهو يردد صلاة "الهفدالاة"، وهي صلاة توديع يوم السبت:

– "مبارك أنت.. إلهنا ملك العالم.. الذي ميّز بين النور والظلمة.. وبين المقدس والمدنس.. وبين السبت وغيره من أيام الأسبوع".

ثم مرر الكأس على بقية أفراد أسرته.. ووضع الجميع أيديهم مبسوطة فوق شعلة الشمعة على مسافة يشعرون فيها بدفء نار الشمعة وخففوا إضاءة المنزل قليلاً حتى تنعكس ظلال أصابعهم على سقف المنزل.. ثم سكب يعقوب كأس الخمر على الشمعة المشتعلة فوق صحن "الهفدالاه" المزخرف.. ومع انطفاء الشمعة انقضت طقوس يوم السبت.

وفي منتصف العشاء انهمك يعقوب في الأكل وهو ينظر إلى ابنته قائلاً:

– ألم تجدي وظيفة مناسبة حتى الآن في أورشليم؟ كل زملائك وأصدقائك يعملون وهم طلبة ولا ينتظرون مساعدة أهاليهم.

فردت مريم بملامح غاضبة وصوت صارخ:

– أنا لا أريد أن أنشغل بأي شيء عن دراستي.. وبالنسبة إلى المصاريف سوف أتدبر أموري من المال الذي أحوشه في البنك.

وقامت منفعلة إلى حجرتها، بينما جلس يعقوب يكمل أكله.. فنظرت إليه جولدا بعينين غاضبتين قائلة:

– ألن تكف عن مضايقتها والضغط عليها!

فرد بصوت أخنف:

– لقد كبرت ابنتك وأنهت دراستها الأساسية.. وها قد جاء الوقت لتنفق على نفسها وتنزل إلى سوق العمل.. فأنا لن أدفع لها شيكلاً واحداً بعد اليوم.. يكفي ما صرفته عليها طوال عمرها.. الفتيات في عمرها ينزلن إلى الشوارع ليتكسبن لقمة العيش.. وابنتك جميلة وجذابة وتعيش في مدينة كبيرة وفرصها كثيرة.. يجب أن تستفيد من جمالها وتستغله أفضل استغلال.

فخرجت جولدا من المطبخ وألقت بالمريلة.. وقالت بصوت عال:

– لقد سئمت من الحديث معك.. سأخرج لألملم الغسيل من الشرفة.. ثم أذهب لأتحدث مع أختي "حاداشا" في الهاتف.

فانتفض يعقوب من مكانه وصرخ قائلاً:

– تلك المكالمة ستكون على حسابك.. أنا لن أدفع شيئاً.

فخرجت إلى الشرفة وأخذت تلملم الغسيل.. فوجدت عساف يقف أمام المنزل ثملاً وهو يترنح وأخذ ينادي على مريم بصوت عال.. فصرخت فيه قائلة:

– ماذا تريد أيها السكير الأبله؟! ارحل من هنا.

فنظر إليها بعينيه الحمراوين.. ورد قائلاً:

– أنا لا أريدك أنت أيتها العجوز الشمطاء.. أنا أريد مريم.. أين هي؟

فامتلأت بالغيظ وأكملت باستعلاء:

– إنها تذاكر لتكون سيدة هارحوما.. بل سيدة إسرائيل كلها.. وسيدتكم أيها الغجر الملاعين.

فرد عليها مستخفًا:

– إنها لن تفلح في حياتها.. ما دامت هي ابنتك أنت ويعقوب.

فاحمرّ وجهها واشتعلت غيظًا وأمسكت بفانلة من الغسيل وقذفتها في وجهه، بينما هو جرى ضاحكًا وقالت بجنون:

– اغرب أيها الخنزير.. لعنتك أمك.. ملعووووون.

أخذ عساف يجر ساقيه حتى وصل إلى الملهى.. فجلس على البار، وأخذ يحتسي البيرة الرخيصة بينما كان ينظر حوله وكأنه ينتظر أحداً ما.. حتى دخل رجلان يظهر من ملابسهما الثراء واقتربا منه.. فقام من مكانه قائلاً:

– لم تتأخرا.. جئتما في الميعاد.

فرد أحدهما قائلاً:

– نحن دائمًا ما نأتي في الميعاد.. المهم أن تلتزم أنت بالاتفاق.
– أنا دائمًا جاهز.. ماذا لديكما اليوم؟

فاقترب أحدهما وجلس بجواره وقال بصوت خافت:

– بعد غد ستصل شحنة جديدة عبر المعبر.. أتستطيع أن تهربها لنا؟

فرد عساف بثقة:

– لن أهربها لكم فحسب.. بل أستطيع تصريفها.

فرد الآخر بقوة:

– تصريف ١٠ كجم من الهيروين ليس بالأمر الهيّن.. يجب أن ينتهي الأمر بأسرع مما يمكن.. أعين البوليس مفتوحة بشدة.. كما أن الرجل الكبير لا يمزح في مثل تلك الأمور يا عساف.

فضحك عساف وأكمل:

– يجب أن تثقوا فيّ أكثر من ذلك.. لا يوجد أحد في هارحوما يمكن أن يساعدكم ويقوم بمثل تلك التسهيلات مثلي.. المهم أن تزيدوا نسبتي في تلك العملية.

فرد أحد الرجال:

– هذا سيتوقف على نجاحك.. كما أنك تعرف عاقبة الإخفاق أو الخيانة عندنا.

فنظر إليهما بعمق وابتسم ابتسامة صفراء.. ثم طلب لهما كأسين من البيرة.. فقال أحدهما:

– لا وقت لدينا.. يجب أن نرحل الآن.. وتذكر ما قلناه لك شالوم.

بينما خرج الرجلان.. دخل نعوم بشكله المزري وأخذ يحملق فيهما. حتى اقترب من عساف وقال وعلى وجهه ملامح الدهشة:

– ما هذا؟! أهذان "عزرا" و"كاهان"؟!

فرد عساف:

– بلى.

فأكمل نعوم بانبهار:

– أتتعامل معهما؟ إنهما أكبر تاجري مخدرات في المنطقة.

فرد عساف بقوة:

– أنا لا أتعامل معهما فحسب.. أنا شريكهما.

فصرخ نعوم وأخذ يرقص حول عساف:

– أخيرًا سيأتينا المدد كما نشتهي.. دون الحاجة إلى رجالهما والتذلل لهم.. وطبعًا ستعطيني ما أطلبه منك دون حساب.

فنظر إليه عساف باحتقار وقال:

– أنا لا أفعل ما أفعله من أجلك أيها المدمن.. إنها فرصتي الوحيدة كي أرتقي وأصبح ثريًا في وسط هذا المجتمع الجشع.. فبالمال ستكون

قويًا وتملك كل شيء وتتحكم في جميع الناس.. ولا يستطيع أحد أن يقهرك أو يسيطر عليك.. هنا في إسرائيل إما أن تكون قويًا وتضرب بيد من حديد.. وإما تدهسك الأقدام ويلقى بك في البحر.

فرد نعوم بصوت جاد:

– ولكن احذر يا صديقي.. إنك تلعب مع الكبار.. ومثل عزرا وكاهان لا يرحمون أحداً.

فنظر إليه عساف نظرة شاردة، واحتسى رشفة من البيرة قائلاً:

– لم يعد يهم.. نحن لا نملك ما نخسره أو نبكي عليه.. منذ أن أتينا إلى إسرائيل ونحن ضائعون.. قضينا سنوات نبحث عن وظيفة محترمة وسط هذا المجتمع الوحشي ولكن لم نجد.. لقد كانت حياتنا في المغرب أفضل كثيراً رغم كل ما كنا نعاني منه من فقر وتشرد.. لقد أنهيت دراستي الأساسية بالرباط وكنت أعد نفسي لدخول الجامعة.. لكنهم أغرونا بالحياة السهلة والثراء السريع وصوروا لنا المستوطنات التي سنعيش بها وكأنها جزء من الجنة.. ولكن مع وصولنا إلى هنا لم نر سوى سراب.. سنوات وسنوات ونحن نتخبط ما بين عمليات سمسرة بسيطة أو عمليات نصب أو سطو على المزارع كي نستطيع الحياة وسط خوفنا الرهيب من أصوات سيارات الشرطة.. بينما كانت الوظائف الكبرى تذهب لأصحاب النفوذ والمعارف أمثال يعقوب.. حتى لم يبق لديّ سوى التسكع في البارات ومصادقة الأغبياء أمثالك نعوم.

فرد نعوم ببلاهة:

– حظك الجيد أنك رأيتني وأصبحنا أصدقاء.

– بل من حظي العثر أن تعرفت عليك.. لكنك في بعض الأحيان تكون نافعًا رغم بلاهتك.. والآن لم يعد أمامنا الآن سوى المضي في هذا الطريق رغم النيران التي تحيط به، إلا أنني سأسير فيه إلى نهايته وأصنع أموالاً لا حصر لها، وأكون أنا السيد هنا.. مهما كلفني الأمر.

***

بدأ الأسبوع الجديد وسط غيوم الطقس في السماء والأجواء المشحونة داخل الجامعة العبرية.. وقف عشرات الطلاب من جماعة "السلام الآن" أمام مبنى كلية الإنسانيات وهم يرفعون أعلام كل من إسرائيل وفلسطين، ولافتات تحمل عبارات بالعبرية والعربية تهاجم الحكومة.. في حين اصطفت قوات الأمن المدججة بالسلاح تحاصر المجمع وتقف على مقربة منهم، بينهم إبرام جالسًا داخل إحدى المدرعات يراقب الوضع.. بينما وقف الطلبة والأساتذة بالشرفات يراقبون تلك اللحظات المهيبة بشغف وعلى رأسهم بن أهارون الذي أخذ يراقبهم من نافذة مكتبه.. أما الدكتور ماكلين فنزل من مكتبه ووقف على مقربة منهم وهو يشاهدهم بإعجاب شديد.

وقفت مريم بين المتظاهرين وهي تحمل علم إسرائيل، بينما تنظر حولها تبحث عن مصطفى كي يكون بجوارها في ذلك الموقف، إلا أن عينيها لم تلتقطه بين الجموع.. كان جسدها يرتعش وأناملها تهتز وصوتها الضعيف يرتعش وهو يردد الهتافات.. حتى نظرت إلى دانيال وهو يخرج بصلابة بين الناس ويصرخ بصوت حديدي "أوقفوا الاحتلال.. أوقفوا الدماء" والجموع تردد من خلفه بصوت يهز جدران الجامعة.. فاستجمعت شجاعتها

وأخذت تردد وراءه بصوت عالٍ.. ودون أن يشعر وجد الدكتور ماكلين نفسه يقترب منهم أكثر فأكثر ولسانه يردد عبارات الحرية خلفهم في سره، وقلبه يخفق بقوة من شدة الحماس.. حتى اشتعلت المظاهرة وأعطى إبرام أوامره بالتدخل.. فاقتحم جنود الأمن جموع الشباب بقوة ليفرقوهم وأخذوا يضربونهم بالعصي ويقذفونهم بالقنابل المسيلة للدموع.. فهرع الشباب وهم يتخبطون وارتفعت أدخنة القنابل البيضاء تغطي المكان، حتى سقط العديد منهم من شدة الاختناق.. بينما أخذ الدكتور يترنح من الاختناق، واصفرّ وجهه وتحجرت مقلتاه وتوقفت أطرافه عن الحركة، حتى كاد أن يغمى عليه.. وفجأة اجتذبه أحد الشباب وهرع به بعيداً وهو يحمله حتى دخل به المبنى وأرقده داخل إحدى الفصول، وأغلق الباب خلفه وأخذ يقوم بعملية التنفس الصناعي له، ويحل له ربطة عنقه.. حتى بدأت تتفتح عيناه ويعود إلى نفسه الطبيعي ونظر إليه نظرات مشوّشة، بينما ابتسم الشاب في وجهه وهو يقول له:

"حمداً لله على سلامتك دكتور ماكلين".. فاعتدل من رقدته وهو يدقق في الصوت وأخذ يحملق في الشاب وهو لا يصدق عينيه.. فقال بصوت مبحوح:

– مصطفى.. أنا لا أصدق أنك قمت بهذا.. لقد أنقذت حياتي.

فابتسم مصطفى وقال بهدوء:

– أرجوك لا تقل هذا.. أنت لا تعرف كم أنا أعتز بك.. ولا يمكن أن أراك في هذا الموقف دون أن أنقذك.

- إنني لن أنسى لك هذا الموقف الشجاع.. أنت بطل بحق.

وقام من مكانه واحتضنه بقوة والدموع تهتز داخل عينيه.. وفجأة انفتح الباب بقوة ودخل كل من بن أهارون وتال الفصل، وأخذا ينظران إليهما بنظرات نارية، واقترب بن أهارون من الدكتور ماكلين وهو يتظاهر بمساعدته واضعًا على وجهه قناع القلق ذا الملامح الناعمة والتعبيرات المقنعة، وأخذ يساعده على النهوض وهو يقول له بصوت مؤثر:

- إنني أعتذر لك بشدة.. لم أكن أتصور أن يخرج الموقف عن ذلك الحد.
- لا تقلق عليّ؛ أنا بخير.

فرد تال وهو ينظر إلى مصطفى بعينين ضيقتين وملامح خبيثة:

- لقد كانت تظاهرة رائعة.. لولا سلوك بعض العرب الغوغائي الذي أفسد الوضع.

فرد مصطفى بقوة:

- لقد بدأت الشرطة بالهجوم وقامت ببعض التصرفات الاستفزازية لإفساد المظاهرة.. وهذا ليس بجديد عليها.

فنظر إليه بن أهارون شذرًا وقال له بصوت عال:

- وأنت! ماذا تفعل هنا؟! إنك تضايق الدكتور ماكلين وترهقه.. أنت لا شك السبب في حالته هذه.. ارحل الآن.

فرد الدكتور ماكلين:

– بالعكس.. إنه هو الذي..

فقاطعه بن أهارون بصوته العالي قائلاً:

– بل أنا أعرف تلك التصرفات الوصولية التي يقوم بها العرب.. أنتم السبب في كل شيء.

فنظر مصطفى إليهم وكأنه يحرقهم بنظراته وغادر الفصل.. فتسلل خلفه تال تاركًا الفصل حتى وصل إليه وأخذ يحدق فيه بطريقة غير طبيعية.. كانت نظراته الغريبة تتفحص كل عضلات جسده بإعجاب مريب.. حتى وضع يده على كتف مصطفى وأخذ يتحسسه، فانتفض من مكانه، فنظر إليه تال قائلاً:

– لا تخف مني.

فارتاب مصطفى وظهرت عليه علامات القلق قائلاً:

– ماذا تريد مني؟!

فاقترب منه تال أكثر وازدادت اللمعة الغريبة في عينيه، وقال بصوت خافت:

– لم أكن أعرف أن جسدك رياضي هكذا.. لقد كنت رائعًا وأنت تساعد الدكتور ماكلين.. ما رأيك في أن تأتي معي أنا ورامون؟ ستقضي معنا أوقاتًا رائعة.

فارتعش مصطفى من الصدمة وتحجرت مقلتاه ونفر الدم في كل عروق جسده، وصرخ في وجهه قائلاً:

– ماذا تقصد أيها الملعون؟!

فأمسك تال بذراعه وأخذ يتحسسه بلذة وقال:

– لكنك رائع.. صدقني ستشعر معنا بشعور جميل.. لن تشعره مع أي فتاة.

فسحب ذراعه من بين يديه بقوة ودفعه إلى الحائط، ونظر إليه والشرر يخرج من عينيه قائلاً:

– أتظنني شاذاً مثلكما! اغرب عني أيها الملعون.

– سوف نفعل أي شيء تطلبه منا.. بل سندفع لك أي مبلغ تريده.. ولكن ابق معنا.

فأمسكه مصطفى من ياقة قميصه ودفعه بقوة قائلاً:

– إن لم تغرب عن وجهي الآن سوف أقتلك.

فضحك تال ضحكة صفراء ورد عليه قائلاً:

– من مثلنا يملؤون إسرائيل.

فنظر إليه مصطفى باشمئزاز وقال:

– إنكم دنستم الأرض؛ لعنة الله عليكم.

وابتعد عن المكان مسرعاً ونظرات التقزز تخرج من عينيه وتكاد تحرق تال.. بينما أخذ تال يحملق فيه وكأنه سيلتهمه بنظراته، وأخذ يغمغم في سره:

- خسارة.. ولكنني لن أتركك يا مصطفى.

مثل تال ورامون يمكن أن تقابلهم في أي مكان.. فالشواذ في إسرائيل جزء لا يتجزأ من المجتمع الإسرائيلي حتى أن الحكومة الإسرائيلية تفتخر بسن قوانين لحمايتهم ووضعهم في مكانة متميزة، حتى أطلق على إسرائيل "جنة الشواذ في العالم".. بل وصل الأمر أن سياحة الشواذ في إسرائيل جزء هام من برنامج السياحة بها.. فلهم مطاعمهم وباراتهم وفنادقهم، وحتى مهرجاناتهم وحفلاتهم العامة التي يشاركون فيها وسط الشوارع.. فتراهم أنصاف عراة بأجساد لامعة، يحلقون ذقونهم ويضعون على وجوههم مساحيق تجعل ملامحهم ما بين الأنثوية والصبيانية.. يعانقون بعضهم بعضاً ويرقصون بابتذال شديد وسط الشوارع الرئيسية وهم يرفعون علم الشواذ ذا الألوان السبعة، بينما تفتخر الدولة العبرية بمثل تلك المواكب وتنقلها عبر شاشات التليفزيون وتعدّها جزءاً من الحرية الشخصية المكفولة للمواطن الإسرائيلي.

ومن أشهر بارات الشواذ في القدس بار "شوشان" بشارع "يافا" والذي يأتي إليه شباب الشواذ فقط، لتبدأ به حياتهم الليلية والسهر والمجون بداية من منتصف الليل.. فتراه ذا إضاءة عالية ملفتة جذابة من الخارج، بينما يكسوه الإضاءة خافتة من الداخل، والتي تكاد تنير لكل منضدة، بالإضافة إلى إضاءة "البيست" الذي

يرقص فيه الشباب ويعلو فيها أصوات الموسيقى الصاخبة، بينما يملأ بالشباب سواء من داخل القدس أو من السواح الذين يأتون إلى البار بالاسم ليشربوا أنواع الخمور ويرقصون على أنغام "الميتال" و"الهارد روك"، ويتحررون من ضغوطهم اليومية ويشعرون بالحرية.. بل يصل الأمر إلى تعاطي المخدرات والتي تعلي لديهم الشهوة والنشوة وتعجلهم في لحظة اندماج، وإن كان هذا نادر الحدوث.

المفاجأة

جلس الدكتور ماكلين في مكتبة الجامعة، وهو يقلب في بعض المراجع والكتب الخاصة بالتاريخ اليهودي، ويتجوّل بين أرفف المكتبة، وهو في حالة انهماك شديد، بينما يفتح أمامه جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص به.. حتى شعر بالإرهاق، فقام من مكانه واستعار بعض الكتب، وخرج من المكتبة متجهًا نحو الممر المؤدي إلى مكتب الدكتور بن أهارون.. وفجأة اصطدمت به فتاة مسرعة كانت تدخل المكتبة وهي تحمل أوراقًا وكتبًا كثيرة.. فوقعت منها على الأرض وأخذت تلملمها وهي في شدة الارتباك وتتمتم بعبارات الاعتذار.. فنزل الدكتور ماكلين وهو يلملم الأوراق معها.. حتى وقع بصره على عينيها التي تركت الأوراق وأخذت تحدق فيه، بينما لم يقاوم بصره في متابعة صدرها الممتلئ الذي اقترب منه وشعرها الأحمر الناري المتطاير على وجهها ذي الملامح الوحشية وقوامها الممشوق وهي تقوم من على الأرض.. فوقف هو الآخر وهو يمسح جبينه المتصبب عرقًا.. فابتسمت قائلة:

- إنني في غاية الأسف.

فرد بابتسامة هادئة:

- بل أنا الذي يجب عليه الاعتذار.
- أنت في غاية الذوق والدماثة.. أنا لا أعرف ماذا أقول لك!

فابتسم قائلاً:

- لا شيء.. فقط اهتمي بنفسك.

ثم غادر الدكتور ماكلين المكان وهو يتابعها بعينيه وهي تدخل المكتبة، بينما نظرت إليه بنظرات ناعمة وهي تمىء بيديها مودعة له.. فاتجه نحو مكتب بن أهارون، فوجده جالساً على مكتبه يدخن سيجاره ومعه تال وهما يبحثان بعض الأشياء.. فحيّاه بن أهارون وأحضر له كوباً من العصير قائلاً:

- كنت أريد أن أخذ معك كأساً.. لكنني لا أشرب بالنهار.

فضحك ماكلين قائلاً:

- ولا أنا أيضاً.. وإن كان كأس المساء مقدس عندي أشبه بموعد برنامج لاري كينج لايف على الCNN.

فقال تال:

- من الواضح أن الدكتور ماكلين يحافظ جيداً على تقاليده.

فرد الدكتور ماكلين:

– فعلاً.. إنني أحب الحفاظ عليها.. ولكن لا تنسى عامل السن.. فقد اقتربت من المشيب.

فضحك بن أهارون قائلاً:

– لا تقل ذلك.. إنك ما زلت في أوج سحرك وجاذبيتك.

ثم رد تال قائلاً:

– لقد حكى لنا الدكتور بن أهارون عنك الكثير.

ثم نقر الباب، فسمح بن أهارون للطارق بالدخول.. فدخلت تلك الفتاة ذات الشعر الأحمر والجسد الساخن.. فأخذ الدكتور ماكلين يحملق فيها وكأنه لا يصدق ما يرى.. فابتسم بن أهارون ثم قال:

– ها هي إحدى أذكى تلاميذي.. دعني أعرّفك بـ"آشيرا كوهين".. إنها باحثة بالجامعة في نفس تخصصك دكتور ماكلين.

ثم استدار لها قائلاً:

– إنه من حظك الرائع أن تلتقي بالدكتور ماكلين وتتعاملين معه.

فابتسمت ابتسامة صفراء وردت بعينين لامعتين:

– لكننا التقينا قبل ذلك.. ولكن في صدفة محرجة.

فضحك الدكتور ماكلين قائلاً:

– ولكنها صدفة سعيدة.

فردت بصوت هامس:

– لكنها الأحلى بالنسبة إليّ.

فرد بن أهارون:

– إنها فرصتك الآن كي تتعاوني مع الدكتور ماكلين.. فهو الأفضل في مجاله.. وسوف يفيدك كثيرًا في أبحاثك.. أليس كذلك دكتور ماكلين؟

فردت آشيرا:

– أتمنى ذلك من كل قلبي.

فابتسم الدكتور ماكلين وقال:

– يبدو أنك لا تضيّعي أي فرصة أمامك.

فردت بهدوء:

– وخصوصًا إذا كانت ذهبية مثلك دكتور ماكلين.

فنظر إليها بإعجاب شديد محاولاً إخفاؤه أمام بن أهارون وتال، وأخذ يراقب كل شبر من جسدها وهي تنحني بليونة على مكتب بن أهارون، وهي تناقش معه بعض الأمور في بحثها..

وبعد أن انتهت معه اقتربت من الدكتور ماكيلن وهي تصافحه، وقالت بصوت خافت:

– أتمنى أن يحوز عملي إعجابك وأن نعمل معًا بعد ذلك.

فابتسم ابتسامة كبيرة ملأت وجهه ورد:

– أتمنى ذلك أيضًا.

***

جلس كل من "دان" و"عومير" داخل الفصل بقسم التاريخ، بعدما غادره جميع الطلاب، وأغلقا الباب على نفسيهما بعد أن ظهرت عليهما ملامح القلق.. فقال دان:

– يبدو أن ديفيد قد تأخر اليوم.. أخشى أن يفوتنا الاجتماع.

فرد عومير قائلاً:

– لا تقل ذلك.. إنه اجتماع مهم.. ولا أعتقد أن تلك الفرصة سيفوّتها علينا ديفيد، خصوصًا بعد أن اتخذنا قرارات حاسمة بشأن ما سنفعله في الفترة القادمة.

– ولكن الوضع الآن متوتر.. ولا بد من أن نستشير ديفيد فيما سننفذه.

وفجأة انفتح الباب.. فقام الاثنان من مكانهما مذعورين بعد أن تملكهما الرعب.. فكان ديفيد الذي أغلق الباب خلفه بسرعة قائلاً:

– لا تخافا.. ابقيا مكانكما.

فقال عومير بعد أن هدأ قليللاً:

– ماذا سنفعل الآن؟
– كل شيء على ما يرام.. المهم أن تهدأ قليلاً وسأشرح لكما كل شيء بالتفصيل.

فسمعوا أصوات أقدام تحوم حول المكان.. فقال ديفيد:

– يبدو أن المكان غير مناسب للحديث.. فلنرحل من هنا.

ثم نزل الجميع وغادروا الجامعة.. وجلسوا داخل أحد المقاهي البعيدة.. فاقترب ديفيد من دان وعومير وقال بصوت خافت:

– لقد تغيرت الخطة قليلاً.. سنذهب الآن لنقابل "الراباي" شمعون.. يبدو أن هناك أشياء خطيرة يريد أن يخبرها لنا.. وهي آخر مرة سنراه في نفس المكان.

وبعد أن أنهى ديفيد كلماته وسط إنصات شديد من دان وعومير.. قام الثلاثة من المقهى واستقلوا الباص الذي سار عبر شارع "بن يودا" الرئيسي بوسط القدس المليء بالمحال التجارية.. ثم نزلوا وسط الزحام وساروا عبر مجموعة من الشوارع الجانبية الضيقة، فركبوا سيارة "دودج" كانت تنتظرهم وساروا عبر شارع "يافا".. حتى وصلوا إلى أحد البيوت القديمة فصعدوا عبر درجات حجرية قديمة وهم يتلفتون خلفهم.. ونقروا على باب خشبي ضخم.. فنادى صوت من الداخل:

– من بالخارج؟

فاقترب ديفيد من الباب ورد بصوت خافت:

- نحن أبناء الهيكل.
- وما كلمة السر؟
- "بنت صهيون".

ففتح لهم الباب ودخلوا عبر ممرات حتى وصلوا إلى حجرة اجتماعات كبيرة مظلمة، لا ينيرها سوى ضوء الشمعدان اليهودي، ومعلق على جدرانها نجمة داوود في كل ركن، وعلى أحد الجدران معلق علم أصفر مرسوم عليه في منتصفه يد قابضة داخل نجمة داوود سوداء.. هو شعار حركة "كاخ" الصهيونية المتطرفة.. كانت الحجرة مليئة بمجموعة من الشباب ورجال الدين يتجاذبون أطراف الحديث.. حتى دخل الراباي شمعون ذو الوجه القاسي والملامح المتجهمة واللحية السوداء الطويلة يتخللها شعرات بيضاء.. يرتدي رداءً أسود طويلاً وقبعة سوداء كبيرة تنزل من جوانبها الـ"بيئوت" أو السوالف الملتوية دلالة التقوى.. فوقف الجميع احتراماً حتى جلس.. فأخذ ينظر إليهم بنظرات نارية ثم قال بصوت رخيم:

- أتعلمون لماذا جمعتكم اليوم؟

فأخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض.. فكسر حالة الدهشة التي وضحت في أعينهم وغمغمتهم وقال لهم:

- لقد اقتربنا من تحقيق حلمنا الأكبر.. الحلم الذي كافحنا من أجله وأتينا من شتى بقاع العالم إلى تلك الأرض الطاهرة لتحقيقه.. حلم كل

صهيوني على وجه الأرض ليراه بعينه ويلمسه بيديه.. لم يعد لدينا سوى القليل لدخول جبل الهيكل ونبني هيكلنا العظيم من جديد.

فارتسمت على ملامحهم السعادة.. وسأل أحد الحاخامات قائلاً:

– ولكن سيدي كيف سنستطيع دخول جبل الهيكل ونحن غير متطهرين.. لا بد من وجود بقرة حمراء تماماً لا عيب فيها كي نتطهر برمادها.. وهذا لا يوجد الآن.

فصمت الراباي شمعون ثم رد بعينين لامعتين قائلاً:

– وأنا أتحدث لكم الآن.. يقوم مجموعة من الإخوان في مزرعة معهد البحوث الوراثية بمستوطنة بيت شلومو بمحاولة التوصل إلى إنتاج بقرة حمراء لا عيب فيها، لاستخدام رمادها في تطهير أجسادنا قبل إعادة بناء الهيكل، وهو ما أكّده لنا الحاخام "شمارياشور".. وفي لويزيانا بالولايات المتحدة الأمريكية يجري الآن إعداد قطيع من الأبقار جاهز للنقل الفوري إلى إسرائيل جواً لإعداد تلقيح صناعي بينها وبين الأبقار الإسرائيلية.. وتنكب عائلة نتيف في أورشليم على إنتاج أدوات العبادة.. بينما تقوم أسرة ألفي بإعداد كسارة الحجارة التي تملكها في جنوب البلاد، لإنتاج مواد بناء الهيكل من عناصر طبيعية، كما خاطت أسرة تسورفيم أدوات الهيكل القماشية من نوع واحد.. في حين أنجز بعض العاملين في مصانع البحر الميت طرازاً مثيراً لمذبح جبل الهيكل.. وها جاء دورنا في صنع صخرة كبيرة لم تمسسها مطرقة أو إزميل ووزنها نحو أربعة أطنان، استعداداً لصنع العرش.. لم يعد على تحقيق الحلم سوى القليل.. يجب أن نكون على قمة الاستعداد للوصول إلى يوم الخلاص.

فصاح الجميع مهللين وأخذوا يصرخون مرددين عبارات النصر..

وأخذوا يحتضنون بعضهم بعضًا غير مصدقين ما سمعوا.. فوقف الراباي من مكانه وقال بحزم:

– اهدؤوا قليلاً.. لا يجب أن تنسينا الفرحة أنفسنا ونتصرف بعشوائية مثل الغوغائيين؛ يجب علينا الآن أن نركّز فيما سنقوم به بعد ذلك.

فسأله أحد الحاضرين:

– وماذا علينا أن نفعل الآن؟
– يجب إرهاب العرب والقضاء عليهم، حتى ولو وصل الأمر إلى التصفية الجسدية.. لا يجب أن نعطيهم الفرصة كي يتجمعوا أبدًا.. كما يجب أن نستمر في ضغطنا على الجماعات اليسارية المؤيدة للعرب.. هؤلاء دعاة السلام الذين يريدون بقاء العرب بيننا ويخربون دولتنا.. إنهم خونة والعدو الأول لإسرائيل.

ثم نظر إلى ديفيد وزملائه ثم أكمل قائلاً:

– كما لا يجب أن ننسى أبناءنا الشباب ودورهم الهام في الجامعات والتجمعات الشبابية.. يجب أن تعملوا على استقطاب العديد من الشباب حولكم وتسيطروا عليهم بأفكارنا.. كما عليكم أن تحاربوا الطلبة الفلسطينيين وأعوانهم من دعاة السلام وتقضوا عليهم.

ثم وقف من مكانه وأمسك بكأس من النبيذ وقال بقوة:

– لنشرب الآن نخب أرض الميعاد ويوم الخلاص.

فوقف الجميع ممسكين بكؤوسهم ورفعوها عاليًا وأخذوا يرددون بصوت عالٍ:

– نخب أرض الميعاد ويوم الخلاص.

وبعد أن رحل الجميع.. دخل الراباي شمعون إلى حجرة صغيرة، فسار ديفيد خلفه ونقر الباب ودخل، فوجده واقفاً يقرأ في كتاب كبير.. فهمّ ديفيد بالخروج، فأحس به الراباي وطلب منه الانتظار.. فقال ديفيد بهدوء:

– أعتذر سيدي الراباي.. يبدو أنك كنت تصلي وقد عطلتك عن قراءة المزامير.

فاستدار الراباي شمعون ورد بعينين لامعتين:

– إنني لم أكن أصلي.. وتلك ليست المزامير.. بل إنه كتاب أخطر وأقوى.. يجب على كل صهيوني أن يقرأه ويؤمن بما في داخله ويطبّقه حرفياً، كي نحافظ على كيان إسرائيل ونسيطر على كل من حولنا.. إنه "برتوكولات حكماء صهيون".

فأخذ نسخة من الكتاب وأعطاها لديفيد وأمسك بيديه بقوة قائلاً:

– هذه نسخة لك.. ديفيد.. إنه دستورنا الذي نعيش به.. خذه واحتوه بقلبك.. أنت وأمثالك أمل بنت صهيون.. الأمة العبرية التي جاءت لتعيد الشتات وتسيطر على العالم.

فنظر إليه ديفيد نظرة عميقة وأخذ الكتاب وأخذ يقلب فيه، فقال له الرابّاي:

– حكومات العالم أصبحت تحت أيدينا بفضل هذا الكتاب.. عام بعد عام ونحن نطبق البروتوكولات الـ٢٤ بمنتهى الحرفية والدقة.. بداية من السيطرة على التجارة والصناعة والزراعة. ثم الهيمنة على مصادر الفكر وإفساد التعليم ونشر الجهل.. ومنها إلى القبض على زمام الصحافة ووسائل توجيه الرأي العام.

فاتسعت مقلتا ديفيد وهو يسمع كلام الرابّاي بينما يتصبب العرق منه.. ثم أكمل الرابّاي:

– انظر كيف صنعنا في الشعوب العربية من حولنا.. جعلناهم مغيبي الوعي ومشتتي الفكر، لا دين لهم أو هوية.. ضاع بينهم دينهم وأخلاقهم حتى يكونون فريسة سهلة لغرائزهم، ومن ثم لنا.. جعلنا من رؤسائهم طواغيت عليهم بيدهم كل مقاليد الأمور.. وهم في حقيقة الأمر ينفّذون أهدافنا.. وجعلناهم يكتبون دساتير بلهاء لا قيمة لها يعتقدون أنها الملاذ لهم.. كل هذا بفضل هذا الكتاب.

فابتلع ديفيد ريقه وقال بصوت مهزوز:

– ولكن كيف حافظتم على سرية هذا الكتاب سيدي الرابّاي؟ أعرف أنه كان من المستحيل طباعته ونشره.
– لقد صنعنا المستحيل كي ننكر صلتنا به أمام العالم ولا تصل تلك البروتوكولات إلى أيدي العرب ولا يفهموا مضمونها.. سنوات وسنوات ونحن نخفي أمرها ويجب أن نستمر في تنفيذ تلك البروتوكولات في سرية ودقة وهذا ما يضمن لنا النجاح.. وأي مخلوق يحاول أن يقف في طريقنا ليس له سوى الموت.
– أمرك سيدي الرابّاي.

ثم ربت الراباي على كتف ديفيد وانحنى ديفيد على يديه يقبلها ثم غادر المكان.. ومثلما جاء خفية رحل ديفيد عبر شوارع وطرقات القدس الداخلية المظلمة خفية، دون أن يراه أحد، حتى وصل إلى شقته "الاستوديو" الواقعة في الطابق الأخير في عمارة يقطنها الطلبة والدارسون بشارع "بنجامين دزرائيلي" بحي "تلبية".. فصعد خفية وأغلق الباب خلفه بالعديد من الأقفال، فلم يكن يأمن لأي أحد في حياته سوى نفسه بل أنه كان يصل إلى درجة من الوسوسة والشك أن يعيش وحده بعيداً عن أهله.. وكانت تلك الحجرة الصغيرة تغطي جدرانها نجمة داوود وصور لزعماء الصهيونية العالمية، أمثال "تيودور هرتزل" مؤسس الصهيونية و"سبتاي زئيفي" الذي ادّعى أنه المسيح المخلّص في القرن السابع عشر، وصور لكبار حركة الكاخ الإرهابية التي ينتمي إليها ديفيد نفسه، أمثال "مائير كاهانا" مؤسس الحركة والإرهابي "إيلي هازئيف".. تلك الحركة التي تؤمن بتحقيق أحلام الصهيونية بالتوراة والسيف، وتنادي بالخلاص من الفلسطينيين إما بالقتل وإما بالطرد، هم ومن يؤيدهم.. فقد علق أعلى سريره علم الحركة مثل الموجود عند منزل الرأباي، ورغم أنه ذو خلفية دينية عميقة وأهله من "الحريديم" المتعصبين الذين هاجروا طواعية لإسرائيل، لكنه زاد في تطرفه وعاش بعيداً عنهم.. خلع ديفيد "التي شيرت" وجلس أمام المرآة نصف عارٍ، يتأمل الوشوم التي تغطي جسده وكأنها غابة من التعاويذ والإشارات.. فعلى جانبي ظهره مرسوم عبارات من التوراه بالعبرية، وفي المنتصف رسم تعويذة كف الخمسة أو "كف مريم" أخت النبي موسى وهارون، والذي يحمي ويمنع الحسد، بينما رسم على صدره جهة اليمين أسداً يقف على خلفيتيه، وهو أسد يهوذا أحد أسباط اليهود،

وعلى اليسار نجمة داوود غير التي على ذراعه.

جلس ديفيد على السرير وهو يتحسس صفحات كتاب البروتوكولات، بينما تشع كلماتها في وجهه وكأنها تضيء الحجرة، لتداعب خياله المريض ورغباته الوحشية، كلما وجد كلمات "الجشع" و"الإرهاب" و"العنف" و"قوة الذهب" و"السلطة".. أخذت عيناه تدور بين صفحات الكتاب وهو في انتظار ملك إسرائيل، وعلى رأسه المقدس التاج، ليصبح بطريرك العالم، وينهض ببنت صهيون لتحكم عالم "الجوييم"، أي الأغيار.

وسط هذا الطوفان من الأفكار الشريرة لم ينس كلمات الرأباي بسرية تلك البروتوكولات.. فأخذ الكتاب ووضعه أسفل مرتبة سريره، ثم استلقى على ظهره وهو يتخيل أن ينتقم من كل العرب وينكّل بهم، وهو يردد "الموت للجوييم".

***

عاد الدكتور ماكلين إلى المنزل بعد يوم طويل في الجامعة، فوجد يوري يصعد خلفه ممسكًا بأكياس بها زجاجات الويسكي رخيص الثمن، وإن كان في حالة وعي أفضل.. فما أن رآه يوري حتى أخذ يحييه صارخًا "دكتور ماكلين.. دكتور ماكلين". فانتبه إليه واستدار كي يسلم عليه.. فقال له يوري:

– شالوم دكتور ماكلين.. أريد أن أشكرك على ما فعلته معي أول أمس.

فربت الدكتور ماكلين على كتفه وقال:

- لا تشكرني.. أنت كنت تحتاج إلى مساعدة.
- والآن أنا أدعوك لمشاركتي كأساً من الويسكي.. إن لم يكن لديك مانع.

فصمت قليلاً ثم أومأ بالموافقة.. فدخل كلاهما إلى شقة يوري والتي كانت في حالة مذرية من الفوضى.. فزجاجات الويسكي والبراندي مترامية أسفل الكراسي وعلى الأرض، وأطباق الطعام ملقاة على منضدة الصالون، يقع منها بقايا الطعام رائحته عفنة، والأتربة والغبار يملآن المكان.. فأمسك يوري بفوطة ونظف أحد كراسي الصالون كي يجلس عليها الدكتور ماكلين قائلاً:

- أعتذر عن تلك الفوضى التي تراها.
- لا عليك يا عزيزي.

وبينما اتجه هو إلى المطبخ ليحضر كأسين للشراب، أخذ يرمق الدكتور ماكلين هذا الوضع المأساوي وهو يحاول التملص للمغادرة، حتى جاء يوري ومعه كأسي الويسكي.. أخذ الدكتور ماكلين كأسه ولم يستطع منع نفسه من السؤال الملحّ:

- كيف تعيش هكذا يوري؟!

فأخذ يوري رشفة من الويسكي وقال:

- أنا على هذه الحال منذ ثلاث سنوات.. أعيش هنا وحدي ولا أحد يتصل بي.. لقد كنت أعمل مدير حسابات في بنك "هبوأليم". أكبر بنوك إسرائيل، وكنت ذا مركز مرموق.. ولكن بسبب مشاكل مع مدير

البنك ورغبته في تعيين أحد أقربائه قام بإلصاق تهمة اختلاس لي، وتم طردي من البنك دون حتى أن أخذ مكافأة نهاية الخدمة.

فنظر الدكتور ماكلين إلى صورة مائلة معلقة على الجدار ليوري ومعه امراة وأطفال.. فتردد في السؤال، فلمح يوري السؤال في عينيه وبادره بالإجابة:

– هذه زوجتي "عليزا" وهؤلاء أبنائي "شيمون" و"جافريلا".. بالطبع هذا الوضع لم يرضها بعد أن أصبحت فضيحة كبيرة.. فزادت مشاجراتنا اليومية حتى أخذت الأولاد وهربت..

فصمت الدكتور ماكلين قليلاً وظهر على وجهه التأثر ورد بصوت خافت:

– وكيف تدير حياتك الآن؟!
– أعمل محاسباً في مطعم قريب من هنا.. بالطبع لم أعد أتحصّل سوى على مرتب ضئيل لا يزيد عن ٤٠٠ شيكل.. حتى أنني أحصل على الويسكي بالقسط من المطعم.

ثم قام من مكانه وأخذ يترنّح في جنبات الشقة قائلاً:

– منذ ذلك الحين وأنا لا أجد أي صديق لي سوى زجاجة الويسكي ومائدة القمار.. فكنت ألعب كثيراً على أمل التعويض واكتساب المال.. ولكن كعادة حظي السيئ أصبحت أخسر، حتى بدأت أبيع أجزاء من أثاث البيت كما ترى.

فازدادت علامات التأثر على وجه الدكتور ماكلين.. فأكمل يوري

بعدما أخذ رشفة من كأسه:

– أتعرف يا عزيزي أنت الوحيد منذ أعوام الذي زرتني في بيتي.. بل أنت الوحيد الذي اهتم بأمري هنا.. حتى أنني يمكن أن أموت في هذا المكان دون أن يشعر بي أحد.

فأخرج الدكتور ماكلين من جيبه دفتر شيكات وكتب شيكًا ووضعه بجوار كأس يوري.. فأبعد الشيك عنه متصنّعًا:

– أنا لا أخبرك قصتي كي تعطيني مالاً.
– هذا ديْن.. يمكن أن تسدده لي في أي وقت.

فأمسك يوري الشيك بلهفة ووضعه في جيبه قائلاً:

– هذا المبلغ سوف يحل لي مشاكل كثيرة.. أشكرك بشدة دكتور ماكلين.
– إذا احتجت أي شيء لا تتردد في طلبه مني يوري.

فمسح يوري دمعه الذي تسلل منه وردّ:

– أنت فعلاً صديق رائع دكتور ماكلين.. يا ليتك كنت في إسرائيل منذ زمن.

نام يوري في مكانه من شدة السُكر ودخل الدكتور ماكلين شقته وجلس على مكتبه، وهو يحاول استجماع أفكاره ليكتب بعضًا من مذكراته.. فكل ما يراه في إسرائيل سواء في تل أبيب أو القدس أصبح يلهب تفكيره ويمده بالإلهام.. فمنذ وصوله إلى القدس أخذ يخفي صفحة مذكراته القديمة ويفتح صفحة **word**

جديدة على اللاب توب الخاص به، ليكتب مشاعره الجديدة.. أحضر بجانبه كأس الكونياك اليومي كي يعطيه جرعة خاصة من الإلهام وسط إضاءة خافتة.. وسرعان ما سيطر عليه ما رآه في شقة يوري وحالته المذرية.. "ذلك اليهودي البائس الذي حطمته ظروفه السيئة.. صراعه في العمل الذي وصل به إلى الهاوية لمجرد أن ليس له وساطة أو قدرة تجعله يصمد أمام أطماع مديره.. وجعلته يدمن الخمر ويصبح عبداً له ويدخل دوامة الاكتئاب، كما كنت في هذا الطريق.. لا أعرف كيف أساعده.. ولكنه أصبح مستسلماً لما هو فيه.. يبدو أن يوري أحب الشعور بالضياع والتلذذ بتعذيب الذات.. كل ما أستطع أن أقدمه له زجاجة براندي أو كونياك أو أقرضه بعض المال أثناء لعبه للقمار".

أخذ رشفة من كأس الكونياك وأخذ يقلب فيما كتبه من قبل عن انطباعه عن طلبة القسم والجامعة العبرية.. "هؤلاء الطلبة بهم روح غريبة.. هجين غريب من البشر في مكان واحد وكأنهم نموذج مصغر لإسرائيل:

ديفيد ياكوفيتش: ذلك الفتى مفتول العضلات ذو الأصل الروسي، والذي يعتبر نفسه فوق الجميع.. متفوق دراسياً ويتمتع بنفوذ وتأثير بين أقرانه، فهو قائد الفصل وله كلمة مسموعة بينهم، ولا يتحرك إلا ومعه صحبته التي تتبعه كالساحر.. ولكنه يُسخّر ذكاءه في سبيل الشر وتدمير كل ما حوله.. وبداخله كمّ من التعصب والكره للعرب ومحبي السلام يكفي لتدمير إسرائيل كلها.

مريم عازار: جميلة القسم.. فالجميع ينتظرها ويتمنى الحديث

معها.. دائمًا ما أجدها تضحك وسط الجميع، ولكن هناك شيئًا ما تدفنه بداخلها.. أرى في عينيها تحديًا كبيرًا ورغبة في التفوق.. وأتوقع أنه سيكون لها مستقبل كبير في الجامعة.

مصطفى "العربي": فتى أسمر معتز بنفسه.. لم أقابل مثله في حياتي.. رغم وجود الكثير من الطلبة الأجانب والعرب يدرسون في جامعات الولايات المتحدة، لكنها أول مرة أرى طالبًا عربيًا يدرس في جامعة إسرائيلية.. جامعة دولة يرى أنها تحتل أرضه.. شاب حياته أشبه بلغز.. رغم أنني أستاذه لكنني أراقبه عن كثب.. وأريد أن أعرف المزيد عن تفاصيل حياته.. كيف يفكر الفلسطيني؟ وكيف يتعامل مع الإسرائيلي وهو دائمًا ما يحمل السلاح في وجهه؟! كيف يأتي أحدهم إلى نفس الجامعة ليتعلم وبجواره من يراهم أعداءه؟!".

كل ما يقوم به الدكتور ماكلين أو يقوله في بيته مراقب بكاميرات وميكروفونات عالية الجودة.. وضعت له في أماكن متعددة دون أن يلاحظها.. بينما يجلس فريق مخصص من الشين بيت بمراقبة كل تصرفاته وتسجيلها وكتابتها في تقارير تصل لإبرام أولاً بأول.. وأثناء مراقبتهم له وجد أحد الضباط الشاشة أمامه، والتي تراقبه في حجرة نومه، قد حدث بها تشوّش، فقام من مكانه منزعجًا وهرع إلى الكولونيل ليبلغه.. فارتسمت على وجهه تقاسيم الغضب وقال:

– كيف يحدث هذا؟ تأكد مرة أخرى أن العيب من الشاشة وليس الكاميرا.

فتلجلج الضابط وقال:

– متأكد سيدي الكولونيل.. هناك مشكلة في الكاميرا الموجودة بحجرة النوم.

– وما العمل إذن؟
– يجب أن يتم تصليحها مرة أخرى في مكانها سيدي.

فصمت زيفي قليلاً وهو يفرك ذقنة العظمية المدببة وقال:

– يجب أن يتم هذا الأمر في أسرع وقت.. نحن نحتاج إلى تلك الكاميرا بالذات لأمر مهم.
– الآن سيدي.

فوخزه زيفي في كتفه وقال بعنف:

– لا يا غبي.. يجب أن ننتظر خروجه من المنزل كي نعمل بهدوء ودقة.
– تمام سيدي الكولونيل.

***

في منتصف الليل وقف الكولونيل باركر أمام فندق "كيكار زيون" ذي النجوم الأربع في شارع "بن يودا" وأمامه صندوقان كبيران لأجهزة كمبيوتر ادّعى أخذهما من العراق كغنائم حرب.. حتى وقفت أمامه سيارة شيروكي ونزل منها راؤول رود، ووضعا بها الصندوقين وانطلقا إلى شركة رود بعد أن أغلقت أبوابها في تمام السابعة.. فدخلا وسط الظلام إلى مكتبه وأضاء إضاءة خفيفة.. فوجد باركر شخصين في انتظاره، هما بن أهارون ومدير

متحف إسرائيل الوطني.. وبعد أن تعرّف عليهما باركر فتح الصندوقين وأخرج مجموعة رائعة من التماثيل الصغيرة للملك "حامورابي العظيم" ملك بابل، من الجرانيت، وقطعًا حجرية منقوشة بالمسمارية، تضم أجزاء من قوانين حامورابي التي تميزت بها الدولة البابلية، وخناجر ذهبية عليها اسم الملك الآشوري "آشور بانيبال".. فأمسكها كل من بن أهارن ومدير متحف إسرائيل بلهفة، وأخذا يقلبان فيها بيديهما، بينما توقفت أنفاسهما وهما لا يصدقان ما أمامهما.. ثم أخرج باركر حافظة صغيرة وفتحها وأخرج منها مجموعة مخطوطات عليها اسم الملك نبوخذ نصر البابلي، تصف عملية تدمير هيكل سليمان بالقدس وسبي الآلاف من اليهود، وهو ما عرف بالسبي البابلي عام ٥٨٦ ق.م، حينما انطلق ذلك الملك الصارم ذو الحواجب السميكة واللحية المضفرة على صهوة جواده، وخلفه جيش جرار من جنود غلاظ يدكون أسوار القدس على رؤوس سكانها من مملكة يهوذا.. فهرع الناس في الشوارع يحاولون جمع ما استطاعوا جمعه، ولكنهم سقطوا أمام سنابك هذا الجيش الذي اجتاحهم كالإعصار المميت، فقتلوا منهم بسيوفهم ورماحهم الآلاف ودمروا كل ما أمامهم من بيوت ومبانٍ.. حتى اجتاحوا الهيكل الذي بناه ملك إسرائيل سليمان ذا الأعمدة الذهبية والجدران المرصّعة بالياقوت والزمرّد، فدمروه عن بكره أبيه ولم يبق منه سوى الأطلال، ونهبوا كل ما فيه من كنوز وتماثيل ذهبية.. بل أنهم ساقوا سكان يهوذا وسبوا الآلاف منهم في طوابير طويلة إلى بابل يكسوهم العار والذلة، بعدما أصبحت أورشليم مخربة.

تصفح بن أهارون مخطوطات أخرى، تصف مملكة إسرائيل في عهد الملك سليمان وفرقها العسكرية بالقوة والشجاعة والثراء الوفير، وثالثة عليها اسم الملك الفارسي "قورش" والذي سمح فيه لليهود بالعودة إلى فلسطين مرة أخرى، بعد تدمير مملكتهم على يد ملوك بابل، ومنحهم الأموال لتجديد بناء هيكلهم، ورد إليهم نفائس الهيكل المنهوبة المخزونة في خزائن بابل بعد قرون الذل والهوان.. فأمسك بن أهارون بهذا المخطوط وهو يتحسسه بقوة قائلاً:

– هذا هو وعد بلفور الأول.. أول تصريح بعودتنا لأرض الوطن.

فرد مدير المتحف قائلاً:

– هذه الوثائق في غاية الخطورة.. كيف كانت طوال تلك الفترة في أيدي العرب وليست في أيدينا؟!

فأكمل بن أهارون:

– لقد كنا ننتظر تلك اللحظة منذ سنوات.. نحاول بكل الطرق الحصول على تلك المخطوطات الخطيرة.. وها قد جاءت اللحظة الحاسمة.. تلك الوثائق ستغيّر مجرى التاريخ، كما أنها ستظل عندنا للأبد.

ثم أخرج باركر وثيقة حديثة وأعطاها لبن أهارون وهو يضحك:

– أعتقد أن تلك الوثيقة هي هدية لك.

فأمسك بن أهارون بوثيقة ملكية أرض بالموصل ترجع لعام ١٨٨٧، خاصة بعائلة بن أهارون عراقية الأصل، قبل أن يتم تهجيرها لإسرائيل عام ١٩٤٨.. فلمعت عيناه بقوة وطاف بذاكرته عندما كان صبيًا في العاشرة من عمره، يلهو في شوارع الموصل، حينما عملت الحكومة العراقية على تهجير اليهود عن طريق إرهابهم وتفجير دور عبادتهم.. فقرر "ساسون" والد حاييم الهجرة إلى إسرائيل، تاركًا وراءه جميع ممتلكاته وبيته وأرض أجداده، خوفًا من أن يصيبه أذى هو وأسرته، المكونة من حاييم وإخوته الخمسة وأمه.. تذكر لحظة هروبهم من العراق عبر سيارات نقل ضخمة لم يحملوا معهم سوى القليل من أغراضهم، بعد أن مروا بالعديد من نقاط التفتيش، حتى وصلوا إلى أرض الميعاد، مثلما سمح قورش لأجداده بالعودة بعد ترك بابل.. نظر بن أهارون إلى الوثيقة وقال بصوت رخيم:

– إنها أروع هدية صديقي باركر.

فقال رود ضاحكًا:

– أعتقد أن صديقنا الأمريكي يستحق هدية هو الآخر.

فربت مدير المتحف على كتف باركر قائلاً:

– هذا أمر مفروغ منه.. إنها خدمة جليلة من صديق وفي.. والشعب اليهودي لن ينسى خدمات الأخت الكبرى "الولايات المتحدة".

فضحك باركر ضحكة صفراء، وردّ:

– والأخت الكبرى تنتظر مكافأة أحد جنودها الصغار.

فرد مدير المتحف:

– سوف نُدخل تلك الكنوز إلى مجموعات عرض المتحف.. وبعدها نحتفل معًا احتفالاً كبيرًا.

***

جدران الغضب

خرج دانيال من مقر عمله بالجريدة في منتصف الليل، بعدما تسكع مع جلعاد كعادتهما، حتى انصرف، بينما أخذ يسير وحده في الشوارع الهادئة المظلمة، حاملاً بعض متطلبات المنزل، حتى وصل إلى منزله الواقع بشارع "هابلماخ" بوسط القدس.. أخذ يصعد السلالم وهو يلملم ساقيه من شدة الإرهاق، حتى اقترب من باب شقته وأخرج المفتاح من جيبه بصعوبة ليضعه بالباب.. فوجده مواربًا قليلاً، فانتفض من غفلته ودفع الباب بقوة ودخل المنزل، وأخذ يحملق فيه بعينين مرتعشتين.. فتجمّد الدم في عروقه وارتفعت دقات قلبه داخل صدره، وتحجّر جسده كالصنم وسقطت الأكياس من يده، وتدحرجت محتوياتها على الأرض.. كان أثاث المنزل مهشمًا ومبعثرًا في كل مكان، والأجهزة محطمة عن آخرها، والدواليب مفتوحة، وكل ما فيها ملقى على الأرض.. وكُتب على الجدران باللون الأحمر **"الخائن"** فهرع إلى حجرة المكتب فوجد أدراجه مفتوحة والأوراق منثورة بطريقة عشوائية.. فأخذ يبحث بينها على أوراق مقالاته بطريقة جنونية، حتى وجد ورقة

على المكتب مكتوبة باللون الأحمر تقول "ابتعد عن العرب.. وإلا قضينا عليك". فالتقطها بيدين مرتعشتين وأخذ يحملق فيها.. وازدادت أنفاسه في التصاعد، وتمتم في سره قائلاً "هم بالتأكيد؛ لا أحد غيرهم يقوم بذلك" ثم قبض عليها بقوة وأخذ يصرخ بصوت عالٍ "لكن مهما حدث لن أصمت ولن أتوقف عن الكلام".

وانطلق إلى الشارع حاملاً ما بقي من أوراق، وهو يضمها إلى صدره لا يدري أين يذهب. أخذت قدماه تقودانه من شارع إلى آخر والأفكار المتضاربة تحيط برأسه وتشرده عن مساره.. حتى دخل إلى شارع مظلم مسدود بعيد عن العمران يقتله السكون الشديد، مليء بأكوام القمامة.. وفجأة شق ظلام الشارع ضوء سيارة جيب سوداء، أخذت تطارده بسرعة جنونية حتى صدمته بجدار.. فسقط على الأرض وسقطت أوراقه حوله.. ونزل من السيارة أربعة شباب يرتدون أقنعة سوداء، ذوي بنية ضخمة وأحاطوه وأخذوا يركلونه بقوة ويضربونه بعصي وجنازير في كل أنحاء جسده، وهو يصرخ ويحاول المقاومة، حتى خارت قواه ونزف الدم من رأسه.. فاقترب أحدهم منه وجذبه من شعره وهمس له في أذنه بنبرة ساخرة قائلاً:

– ألم أقل لك لا تقترب من العرب؟! لكن يبدو أنك لا تسمع الكلام.. ابقَ هنا حتى يأتي من ينجدك.

فنظر إليه دانيال بعينين زائغتين لا تريان سوى خيالات، وهو يحاول رفع رأسه ناحية الصوت الذي أخذ يتشبّه عليه.. حتى انطلق صوت سيارة شرطة تقترب من الشارع.. فانتفض أحدهم وهو يقول لزميله بقوة:

– دعك من هذا ديفيد.. هيا بنا نهرب.

فهرعوا جميعهم إلى السيارة وانطلقت بعيداً.. حتى وصلت سيارة الشرطة إلى المكان ونزل الضباط وأحاطوا بالمكان، واستدعوا سيارة إسعاف وحملته إلى المستشفى، ودماؤه تسيل على وجهه وتلطخ كل ملابسه.. بينما تطايرت أوراقه في كل مكان تغطيها قطرات دمه.

داخل مستشفى "حداسا" بحي عين كارم بالقدس.. امتلأت الطرقات المؤدية إلى حجرة دانيال بباقات الورود، بينما كانت تعج حجرته بالزوار.. سار كل من مصطفى ومريم نحو الحجرة وهي تحمل باقة ورد ودخلا إليه، فوجداه راقداً على سريره مربّطاً بالشاش في معظم جسده، والسجحات تملأ وجهه وبجواره صديقه جلعاد.. فنظر إليهما بعينيه اللامعتين رغم انهيار جسده، واقتربت مريم من السرير ووضعت الباقة بجانبه قائلة:

– الجامعة كلها تريد أن تزورك.. أنت لا تعرف كم نحن نفتقدك!

فابتسم دانيال دون أن ينطق.. وأمسك مصطفى بيده وقال:

– ألم أقل لك أن الطريق صعب؟! لكنك قوي وسوف تعود.

فردّ جلعاد بصوت قوي قائلاً:

– هذه هي ضريبة الحرية.. لكن كلمة الحق يجب أن تقال مهما كان الثمن.

فارتسم القلق على وجه مريم وهي تحملق في جسده المنهك وقالت:

– ألا تعرف ماذا فعلوا بديفيد؟

فرد دانيال بأسى:

– لقد أثبت عدم وجوده بالقدس في هذا الوقت.. لقد شهد كل من دان وعومير معه أنهم كانوا في نزهة بـ"حيفا" ولم يعودوا سوى اليوم.

فتنهد مصطفى قائلاً:

– هناك من يدعم ديفيد ومن معه.. حتى القانون يمكن أن يطوّعوه لمصلحتهم.. يصبحون في موقف الشهداء بدلاً من القتلة.

فقاطع مصطفى نقر على الباب ودخل الدكتور ماكلين وهو يحمل باقة ورد.. فانتبه الجميع والدهشة تملأ وجوههم، وقام مصطفى ومريم من مكانهما، بينما همّ دانيال من رقدته كي يصافحه.. فأسرع الدكتور ماكلين نحوه وهو يربت على كتفه وقال بصوت هادئ:

– لم أستطع التأخر عن البطل الذي هز الجامعة العبرية كلها.. لقد كنت تذكّرني بهتافاتك بأيام دراستي في الجامعة، وما كنا ننادي به من حريات ومظاهرات ضد حرب "فيتنام".. وها أنت تعيد لي شبابي من جديد.

فرد دانيال:

– أنا لا أعرف كيف أرد على كلمات أستاذ مثلك.. تلك الزيارة وحدها أكدت ثقتي في نفسي.

فردت مريم مبتسمة:

– أرأيت؟ كل الجامعة تقف بجوارك!

فقاطعها الدكتور ماكلين قائلاً:

– الجامعة لا تتحدث سوى عما حدث لك.. وديفيد ومن معه يشيعون ببراءتهم عن الحادث.. لكن لا أحد يصدق.. وأنا شخصياً غير مقتنع بما يدور في التحقيقات، وخاصة بعد أن أفرج عنهم بتلك السرعة.. إنهم مجموعة من المتعصبين يجب إيقافهم عند حدهم.

فاقتربت مريم من الدكتور ماكلين، وقالت له بصوت خافت وعلى ملامحها القلق:

– دكتور ماكلين.. سأخبرك شيئاً لا أحد يعرفه بالجامعة العبرية سوى القليل.. إنه سر بيننا.. ديفيد وأصدقاؤه ليسوا مجرد مجموعة من الشباب المتعصبين فحسب.. إنه عضو بجماعة "كاخ" الدينية المحظورة، والتي لها مخططات دموية، وتقوم بعمليات مشبوهة ضد العرب واليهود أنفسهم، ما دامت ضد مصالحهم.. والخطير أن السلطات تعلم بأمرهم، لكنها لا تتخذ أي إجراء ضدهم إلا إذا تجاوزوا حدودهم.. والأخطر أنهم لسوا الوحيدين الذين ينتمون إلى تلك الطائفة بالجامعة.. بل هناك أساتذة أيضاً.

فصمت الدكتور ماكلين واكتسى وجهه بقناع من الحيرة

والشرود، ورد بصوت ضعيف:

– لقد كنت أظن أن صوت الحق دائمًا ما ينتصر.. لكن ما نشاهده على الشاشات ونقرأه بالصحف من دفاع عن الحرية والمساواة لم يكن سوى زيف.

فنظر إليه دانيال وقال:

– التعصب والكراهية أصبحا في كل مكان.. وهؤلاء الشباب ما هم إلا مجموعة من المتعصبين يجرون خلفهم مجموعة من الجهلة.. يحسبون أنهم هكذا يحمون إسرائيل ولكنهم يدمرونها.

فرد مصطفى قائلاً:

– وبعد كل ما يجري يطلبون منا سلامًا وهدوءًا! أي سلام يريدونه وهم يحاربون أنفسهم بأنفسهم؟!

فنظر الدكتور ماكلين إليهم وأخذ عقله في الشرود.. ودار في ذهنه كلمات الدكتور بن أهارون في أروقة جامعة شيكاجو، عندما كان الدكتور ماكلين يدعوه لإلقاء محاضرات عن الحرية والديموقراطية في إسرائيل.. كلماته الرنانة وأسلوبه الحماسي الذي اجتذب أساتذة الجامعة قبل طلبتها وهو يتحدث.. في الوقت الذي تعتلي ملامحه علامات التشنج ويهتز صوته من شدة الانفعال، وهو يروي تاريخ النضال ضد العرب وإقامة الدولة العبرية على أرض الميعاد، حتى ضجت جدران الجامعة بالتصفيق ودموع الانفعال تذرف من عينيه.. فأخذ الدكتور ماكلين يغمغم في سرّه

"أنا لا أصدق.. لا أصدق".

***

أخذت مريم تسير بجانب مصطفى بين الطرقات، وهواء الشتاء البارد يموج حولهما، وقطرات البَرَد تتساقط على شعرها.. كانت السماء المغيمة تنذر بمطر غزير فوقهما، وهي تفرك يديها بقوة ووجهها البارد تسير بعروقه الدماء الساخنة وملامح الشرود تملأ تفاصيله، وعيناها تائهتان بين المارة.. نظر مصطفى إليها وهو يراقب عينيها وتقاسيم وجهها قائلاً:

– منذ أن خرجنا من المستشفى ولم تنطقي بأي كلمة.. لم أكن أعرف أن قلبك ضعيف لهذه الدرجة.

فحرّكت عيناها من ثباتهما ونظرت إليه في شرود وقالت:

– أتعرف؟! ما حدث اليوم جعلني أشعر بالخوف أكثر من أي وقت.. لقد هز قلبي بعنف.. ما حدث لدانيال اليوم يمكن أن يحدث لأي أحد منا في أي وقت.. ولن نجد من يأخذ بحقنا.

فأمسك مصطفى بيدها ونفخ فيها قائلاً:

– أنت تعلمين أن هذا الكيان لا يحكمه سوى الأقوى.. ومن يحاول أن يخرج عن

النظام لا يجد سوى القوة. إما لتعيده مرة أخرى وإما تدفنه إلى الأبد.
– أمثال ديفيد ورفقائه أصبحوا يملؤون الجامعة.. بل إسرائيل كلها.. هم الذين يتحكمون في كل شيء، ويجب أن يخضع له الجميع وإلا كان هذا مصيره.. أنا خائفة.. أنا خائفة.

وبدأت الدموع تنهمر على وجهها البارد لتشعله، وازدادت رعشة يديها، حتى ملأت جسدها كله. فضمها مصطفى إلى صدره ومسح دمعتها ونظر داخل عينيها الخائفتين وقال:

– لا تخافي.. أريدك أن تتماسكي أكثر من هذا.

فردت بصوت هادئ:

– أتعرف؟ أنت الشيء الوحيد الذي يبقيني في هذا البلد! فأنا لا أشعر بالأمان سوى معك وداخل حضنك.
– لكنني لن أبقى معك طويلاً.. كما أن هذا الكيان لا أنتمي إليه.. سيأتي اليوم لأعود فيه إلى بلدي وأهلي.. وأنت تبقين هنا في مجتمعك بين أهلك وأصدقائك وعملك.
– ولماذا لا نعيش معًا؟! لماذا لا نجعل بلدي وبلدك كيانًا واحدًا.. نبني فيه بيتنا الهادئ ونعيش فيه معًا في حب وسلام.

فنظر إليها نظرة عميقة وابتسم قائلاً:

– صدقيني.. لا أحد يريد أن يعيش في الحرب للأبد.. ولكن الحب والدم لا يجتمعان.. يجب أن ننزع جميعنا السلاح حتى نستطع العيش في سلام.. نحن على أرض نزع من قلبها بذور الحب، ليغرس فيها أغصان الشوك والحديد.. وما تطلبينه اليوم لن يتحقق إلا بعد أن تزال كل هذه

الأشواك.. هي ومن زرعها.. ويعود الحق إلى صاحبه والبعيد إلى داره.. حينها يمكن أن ينبت الحب من جديد.

فأمسكت يده بقوة وقالت له وهي تمسح دموعها:

- وأنا سأظل معك حتى يأتي هذا اليوم.
- صعب.. يجب أن تفكري بعقلك قبل مشاعرك. نحن من عالمين مختلفين من الصعب أن يدمجا معًا مرة واحدة.. صدقيني مهما فعلنا فأحلامك لن تتحقق.. هناك واقع أقوى مني ومنك، يجب أن نواجهه ونتعايش معه.

أخذت أقدامهما تسير بهما حتى وصلا إلى محطة الأوتوبيس.. وصعدت مريم لتركب.. فأمسك بيدها وقال بصوت رقيق:

- أرجوكِ اهتمي بنفسك.

فاستدارت له وقالت:

- وأنت أيضًا.

وأخذ يراقب الأوتوبيس حتى غادر المحطة.. ثم أخذ يتمشى حتى أخذ الأوتوبيس المتجه إلى المدينة القديمة، مارًا بالعشرات من نقاط التفتيش، حتى نزل أمام المنزل.. فوجد زحامًا أمام المدخل والعديد من الناس في حالة اضطراب.. فتزاحم بين الناس وهرع إلى داخل المنزل.. فوجد جارته أم محمود راقدة على الأرض في حالة إعياء وحولها أولادها، بعد أن هاجمتها أزمة قلبية مميتة.. فصرخ محمود ابنها:

– لقد بحثنا عن أدوية لها لكننا لم نجد.. حالة الحصار التي فرضها الملاعين ستقتل أمي.

فرد مصطفى بقوة:

– إذن يجب أن ننقلها إلى أقرب مستشفى بالمنطقة.

فحملها أولادها ومعهم مصطفى حتى وصلوا إلى السيارة، وقاد محمود السيارة بسرعة جنونية حتى وصل إلى المعبر الرئيسي الذي يفصل الطريق.. فأوقفه الجنود الإسرائيليون وأشاروا إليه بالعودة.. فصرخ في وجههم:

– نحن نحمل مريضة ويجب أن نمر بسرعة وإلا تعرضت للخطر.

فخرج إليه ضابط إسرائيلي وقال بعجرفة:

– هذا المعبر مخصص للإسرائيليين فقط.. أما أنتم فيجب أن تصعدوا إلى التل إذا أردتم المرور.

فانفجر محمود صارخًا:

– حرام عليكم.. هذا ظلم.

فالتف الجنود حول السيارة شاهرين أسلحتهم في وجوههم، وقال لهم الضابط:

– ارحلوا من هنا وإلا قتلناكم كلكم في الحال.

فنظر إليهم مصطفى بحنق وقال لمحمود:

– لا فائدة من مجابهتهم هنا.. يجب أن نصعد عبر التل لنصل إلى الطريق العام.

– ولكنه واعر للغاية ولا يمكن الصعود بالسيارة عبره.

فصمت مصطفى وامتلأت عيناه بالحزن قائلاً:

– لا يوجد لدينا حل آخر.

فصعدوا بالسيارة عبر التل حتى تعذّر إكمالهم الطريق، فنزل الجميع من السيارة وأخذ مصطفى يحمل أم محمود على ظهره وهم يعبرون التل، وسط البرد القارس والسماء الممطرة، حتى هبط الليل عليهم، أخذ مصطفى يسمع نبضات قلب أم محمود الضعيفة وأنفاسها المتلاحقة وقلبه يعتصره الألم حتى مالت عليه قائلة:

– أنزلني يا بني.

فأنزلها مصطفى وجلست على الأرض والتف أبناؤها من حولها.. فقالت بصوت ضعيف:

– لم يعد منه بد ما تفعلونه معي الآن.. لم يتبق لي سوى لحظات كي أقابل وجه الله العظيم.

فاحتضنها محمود بقوة قائلاً:

– لا تقولي هذا يا أمي.. سنصل إلى المستشفى وستأخذين العلاج وستعيشين.

– صدقني يا بني.. اتركوني هنا ولا تحملوا أنفسكم المشقة أكثر من ذلك.. لا فائدة من ذلك.. كل ما أريده أن أترككم وأنا راضية عنكم وأريدكم أن تعتنوا بعضكم ببعض.

ثم نظرت إلى مصطفى وأكملت:

– أما أنت يا مصطفى فلا أعرف كيف أرد لك جميلك.. لقد كنت تتحمل عنائي طوال تلك الفترة وكأنك أحد أبنائي.. فلم أقابل قلبًا حنونًا مثلك.. وها قد جاء الوقت كي ترتاح من هذا العناء.

وأخذت تنظر إليهم نظرات شاردة وعيناها تودعان العالم، حتى أغلقتهما للأبد وهي تردد الشهادتين.. وسقطت برأسها على صدر مصطفى، وهو لم يتمالك نفسه من البكاء، واحتضنها بقوة، بينما أخذت سيول الأمطار تنزل على رؤوسهم وتغطي ملابسهم.. أخذ محمود يصرخ بأعلى صوته:

– حسبنا الله ونعم الوكيل.. حسبنا الله ونعم الوكيل.

***

في الموعد المتفق عليه.. جلس كل من أبو عمار وناصر في مكتب السمسرة الخاص بيعقوب عازار في هارحوما، ينتظرانه وهما في قمة الترقب.. ذلك المكتب الصغير عند مدخل المستوطنة والشهير بعمليات سمسرة الأراضي والعقارات.. وكثيرًا ما يتردد عليه الإسرائيليين وعرب ٤٨ وغيرهم.. أخذا

يحملقان في الداخل والخارج وينظران في ساعتيهما. فقام ناصر يسأل يوشع مساعد يعقوب –ذلك النحيف ذو الصوت المتحشرج– عن موعد مجيئه. فقال له:

– لا أعرف سيدي.

حتى دخل يعقوب ومعه رجل طويل أنيق يرتدي بدلة سوداء.. ما أن رآهما أمر يوشع همّ لإدخالهما إلى مكتبه سريعاً.. فجلس كل منهما أمام الرجل الأنيق.. قال لهما يعقوب:

– هذا السيد "جان ميشيل" المسؤول المالي لشركة الأغذية التي ستشتري الأرض.. أين الأوراق المطلوبة؟

ففتح أبو عمار حقيبته بسرعة وأخرج أوراق ملكية الأرض وأعطاها لمسؤول الشركة.. ثم أخرج يعقوب عقد الملكية كي يوقّعا عليه.. ثم أخرج الرجل الفرنسي شيكاً بمبلغ ١،٠٠٠،٠٠٠ شيكل أعطاه لأبو عمار.. فنظر أبو عمار في الشيك ممتعضاً وقال بصوت حانق:

– المبلغ زهيد جداً يا يعقوب.. نحن لم نتفق على هذا.
– هذا أقصى ما ستدفعه الشركة.

ثم مال إليه وأكمل دون أن يفهم مسؤول الشركة ما يقولان بالعربية:

– وهذا السعر مخصوص لك يا عزيزي. فالشركة لا تريد أن تدفع أكثر من ٧٠٠،٠٠٠ ألف شيكل فقط.. ولكن لمعزتك عندي رفعت السعر إلى هذا الحد.

فغمغم أبو عمار وتردد في الإمساك بالشيك.. فقال له ناصر:

– هذا المبلغ أفضل من لا شيء.. وإذا رفضته فالشركة ستنقص من قيمة العرض.

فنظر إليه يعقوب وأكمل:

– ها هو صديقك ينصحك يا أبو عمار؛ اقبل بالشيك.

فتردد أبو عمار، ثم مد يده وأخذ الشيك وهو ينظر إلى المبلغ المكتوب فيه، وعيناه تشعان سعادة.

***

في السادسة مساءً أخذ يوري يتسكع في الشوارع المحيطة بالمنزل، مستغلاً هدوء الحركة بها بعدما خرج مطروداً من إحدى البارات دون أن يدفع حساب زجاجات الخمر.. فتلاعبت الخمر برأسه وحاوطته الأفكار المجنونة، حتى قرر التسلل إلى داخل شقة الدكتور ماكلين، كي يحصل على إحدى زجاجات الخمر الفاخر.. فقفز من خلال فتحة صغيرة في زجاج النافذة ودخل إلى صالة الشقة.. فسمع أصوات خفيفة حوله جعلته يختبئ خلف التليفزيون الـLCD، حتى تحجرت مقلتاه وتجمد الدم الباقي في عروقه.. كانت مجموعة من الرجال ينتشرون داخل الشقة ومعهم أجهزة وأسلاك، لم يكونوا سوى فنيين من الشين بيت يحاولون إصلاح الكاميرا المثبتة في حجرة النوم.. حاول بقدر المستطاع التماسك، ولكن حالة السُكر التي غلبته لم تمكّنه من الجلوس

صامتًا، فسقط على الأرض حتى انتبهوا إليه بعد أن أصابهم الذعر.. فركله أحد الرجال في بطنه بينما انهال عليه آخر بعصا على رأسه وهو يحاول مقاومتهم، ولكن حالة السكر منعته من أن يقف على قدميه، وأوسعوه ضربًا في كل جوانب جسده حتى وقع على الأرض، وقطرات الدماء تغطي وجهه.. فانتبه أحدهم إليه وقال في اضطراب:

- ما الذي فعلتوه؟! ما كان يجب أن نضربه هكذا!
- لم نتوقع مجيئه.. لقد أربك جميع حساباتنا.

فمال أحدهم إليه ليتحسس حالته.. فوجد جسده باردًا لا ينبض.. فاكتسى وجهه بقناع من الخوف وتجمد الدم في عروقهم جميعًا بعد أن تأكدوا أنه مات.. فقال أحدهم:

- وما العمل إذن؟
- يجب أن نتخلص منه فورًا.. ولا يجب أن يعرف الكولونيل بما حدث!

حملوه خارج الشقة وأغلقوا بابها بإحكام، ولكنهم نسوا أمر الكاميرا المعطلة بسبب حالة الهرج التي أصابتهم.. وساروا به قليلاً حتى رموه في فناء المنزل الخلفي.. وفروا بسرعة البرق دون أن يلحظهم أحد.

وعندما جاء الدكتور ماكلين في المساء وجد المارة يلتفون حول جثة رجل، بينما يقوم رجال الشرطة بمعاينتها.. وفجأة وجد طرقًا عنيفًا على الباب فهرع ليفتحه.. فوجد أمامه ضابطًا ذا صوت أجش يقول له:

صامتًا. فسقط على الأرض حتى انتبهوا إليه بعد أن أصابهم الذعر.. فركله أحد الرجال في بطنه بينما انهال عليه آخر بعصا على رأسه وهو يحاول مقاومتهم. ولكن حالة السكر منعته من أن يقف على قدميه. وأوسعوه ضربًا في كل جوانب جسده حتى وقع على الأرض، وقطرات الدماء تغطي وجهه.. فانتبه أحدهم إليه وقال في اضطراب:

- ما الذي فعلتوه؟! ما كان يجب أن نضربه هكذا!
- لم نتوقع مجيئه.. لقد أربك جميع حساباتنا.

فمال أحدهم إليه ليتحسس حالته.. فوجد جسده باردًا لا ينبض.. فاكتسى وجهه بقناع من الخوف وتجمد الدم في عروقهم جميعًا بعد أن تأكدوا أنه مات.. فقال أحدهم:

- وما العمل إذن؟
- يجب أن نتخلص منه فورًا.. ولا يجب أن يعرف الكولونيل بما حدث!

حملوه خارج الشقة وأغلقوا بابها بإحكام، ولكنهم نسوا أمر الكاميرا المعطلة بسبب حالة الهرج التي أصابتهم.. وساروا به قليلاً حتى رموه في فناء المنزل الخلفي.. وفروا بسرعة البرق دون أن يلحظهم أحد.

وعندما جاء الدكتور ماكلين في المساء وجد المارة يلتفون حول جثة رجل، بينما يقوم رجال الشرطة بمعاينتها.. وفجأة وجد طرقًا عنيفًا على الباب فهرع ليفتحه.. فوجد أمامه ضابطًا ذا صوت أجش يقول له:

- عذراً سيدي على الإزعاج.. ولكننا وجدنا جثة رجل ملقاه في الفناء الخلفي، أعتقد أنها لأحد جيرانك.. فبطاقة الهوية التي وجدناها معه تدل على أنه يسكن هنا.

فازدادت قطرات العرق على جبين الدكتور ماكلين، ونزل مع الضابط فوجدها جثة يوري، فكتم أنفاسه وتحجرت مقلتاه بعدما وجد وجهه البائس الشاحب، وعيناه زائغتان مليئتان بالدماء وبجواره زجاجة نبيذ.. فنظر إليه الضابط وقال للدكتور ماكلين:

- هل تعرفه؟
- نعم.. إنه جاري، لم أعرفه سوى منذ أيام قليلة.. ولكنه شخص مسكين مثير للشفقة.

فنظر إلى الجثة ذات الملابس المهلهلة ورائحة الكحول تفوح من فمه باحتقار ولا مبالاة، وهو يتحقق من بطاقة الهوية، ثم أكمل:

- يبدو من اسمه أنه سافارد.. أعتقد أن أحدهم قد ضربه ضرباً مبرحاً على رأسه بغرض السرقة أو شجار سكارى في البار.. ضعوه هنا قليلاً حتى تأتي سيارة الإسعاف لتنقله إلى المشرحة.
- وماذا بعد؟

فنظر إليه الضابط بعجرفة:

- هذه الأشكال تعوّدنا على وجودها في شوارع أورشليم.. مجموعة من السكارى والمدمنين عادة ما تكون هذه هي نهايتهم.. أرجوك لا تشغل بالك سيدي.. عندما تبدأ النيابة في التحقيق سوف تستدعيك

لأخذ أقوالك.

فنظر الدكتور ماكلين إلى الجثة واكتست وجهه ملامح الشفقة وهو يلقي النظرة الأخيرة على جاره البائس الذي داسته جميع الأقدام.. بداية من زوجته ومديره في العمل حتى رجال الشين بيت.. حتى أصبح كومة قاذورات مهملة ملقاة على قارعة الطريق.. نظر إليه دون أن ينطق بكلمة.. سار نحو شقته ومنظر الجثة لا يفارق مخيلته، وكلامه عن مأساته بصوته الأجش، وكلام الضابط عنه كمتسول، ما زالا يسريان في أذنه، حتى دخل الشقة ولم يفق من هذا الذهول إلا عندما اصطدم بلوحة زيتية سقطت من مكانها.. فاتسعت مقلتاه وهو يحدق إليها وعليها آثار ارتطام، فدارت الشكوك حول رأسه، وأخذ يتجول في الشقة، فوجد فتحة الشباك وأسفلها آثار طين من الحديقة.. فارتعدت أطرافه وتجمد الدم في عروقه، وهو يردد: "ثمة شيء غير طبيعي حدث".

***

دخل موشي إلى مكتبه بعد أن استبدل ملابس التدريبات وارتدى البدلة العسكرية الرسمية زرقاء اللون، وعليها رتبة "سيرين" أو كابتن، وجلس على الكرسي بعد أن ظهرت عليه ملامح الإرهاق، فدخل عليه موردخاي حاملاً خوذته وهو ما زال بـ"الأوفرول" العسكري.. وقال له:

– يبدو أن هناك حملة لتصفية الطيارين تحدث الآن.. فأسلوب التدريب الذي يتبعه آفيدان سيقضي علينا قريبًا.

فرد موشي بقوة:

– هذا الوغد يريد أن يرفع مستويات التدريب إلى أقصاها، كي يحطم أعصابنا ويوصلنا إلى أعلى درجات الإرهاق، حتى لا يبقى ضمن المجموعة سوى من هم يتبعونه.

فصاح موردخاي:

– وبالطبع هم الأشكيناز.
– إنه سيدمر سلاح الطيران بأسلوبه المتعصب البغيض.
– ولكنك لم تعطه الفرصة.. فقد كنت دائمًا ما تتألق كي تحبط مخططه لطردك من التشكيل.
– لقد كنت ندًا عنيفًا لهذا المتغطرس.. فهو مريض نفسي لا يؤمن سوى بالقوة والعنف مع الجميع، ولا يسعده شيء أكثر من منظر الدم حوله.

فتنهد موشي بقوة ثم أكمل قائلاً:

– إنني لن أنسى عندما قمنا بعملية بجنوب لبنان.. حينها صدرت لنا الأوامر بالهجوم على قاعدة عسكرية تابعة للبنانيين.. ومع اقترابنا من الموقع اكتشفت أنها مجموعة قرى معزولة لا يقطنها سوى المدنيين.. إلا أن آفيدان قد أصرّ على الهجوم وضرب كل من في تلك القرية.. لم أستطع أن أتحمل الموقف وأنا أراه يحلق فوق المساكن البسيطة ويقصفها بوحشية حتى يدكها على رأس من فيها.. كانت سعادته الطاغية وهو يرى النار تتصاعد من المساكن وجثث الضحايا تنتشر حول المكان ودماءهم تملأ الشوارع، لا تقدّر.. حينها لم أستطع أن أفعل شيئًا سوى أنني ألقيت بحمولة الطائرة فوق قمم الجبال وادّعيت بأنني أخطأت الهدف.
– ولكن آفيدان علم بما فعلته وحوّلك إلى التحقيق.. وكاد أن يوقفك عن

الطيران ويحوّلك إلى وظيفة إدارية.. لولا تدخّل القائد العام ومساعدته لك حتى عدت ضمن تشكيلات المقاتلين مرة أخرى.

فصمت موشي وأكمل بصوت قوي:

– لقد التحقت بالخدمة في جيش الدفاع كي أحمي الوطن من أعدائه.. ولكنني لم أتخيل أن يكون الأعداء من المدنيين العُزّل والنساء والأطفال.. إنه ليس من الإنسانية أن أقاتل من لا يحمل سلاحًا أو يحتمي ببيته.. إن ما يقومون به هو منتهى الوحشية.. وللأسف هناك من يدعم آفيدان وأمثاله.

فانتفض موردخاي من مكانه وأخذ يهدئ من موشي قائلاً:

– أرجوك اصمت.. فالجدران لها آذان، وأتباع آفيدان منتشرون في كل مكان.. إنك تتحدث عن سياسة جيش الدفاع، وهناك عشرات، بل مئات من القادة يتبنون تلك السياسة.. أرجوك نحن لا نريد أن ندخل في مشاكل مع أحد.. فيكفي ما نحن فيه.

ثم صمت قليلاً وأخرج من جيبه ورقة وأكمل:

– قبل أن أنسى.. لقد وزّع علينا هذا المنشور بعد أن غادرت أنت.. لقد قرر آفيدان أن يغيّر مستوى التدريب، وسوف نتدرب على طائرات أباتشي بدلاً من F–١٦.

فارتسمت ملامح الدهشة والقلق على وجه موشي أخذ يغمغم قائلاً:

– لا بد أن هناك شيئًا سيحدث.. ويبدو أنه قريب.

فانتقل القلق إلى موردخاي واكتست وجهه الريبة واقترب من موشي قائلاً:

– ماذا تقصد؟!

فرد موشي بثقة:

– تحوّل التدريب على طائرات الأباتشي يعني أن هناك عملية ستتم داخل المدن.. فهذا النوع من الطائرات يمكن أن يستخدم في الارتفاعات المنخفضة وضرب أهداف قريبة من الأرض.. وهذا الأمر ينبئ بأن هناك معركة قريبة.. قريبة جداً.

***

جلس أبو عمار يشاهد ضوء القمر من أعمدة شباك بيته في وسط أرضه التي باعها لليهود. وكأنه يشاهده لآخر مرة من نفس المكان.. فلم يذق النوم في تلك الليلة، بعدها عصفت الأفكار والهواجس برأسه.. ولكنها لم تكن هواجس وخيالات، بل صدق حدسه تلك المرة.. فالأرض لم تشترها شركة أغذية كما أخبره يعقوب.. ولكنها شركة وهمية كي تحصل الحكومة الإسرائيلية على الأرض وتضمها لتوسيع المستوطنة.. فهي حيلة أحيانًا يلجأ إليها بعض السماسرة لأخذ الأرض بالتضليل.

خرج أبو عمار يسير في أرضه هائمًا، وهو يسمع صراخها وهي تئن، حتى وجد ناصر أمامه، فقال له بصوت مهزوز:

– أنا لن أبيع أرضي يا ناصر.. أشعر بشيء يحرق صدري وأنا أبتعد عن أرضي.

فنظر إليه ناصر ورد بقوة:

– أنت مجنون؟! لم يبق سوى ساعات وتأتي الشركة بجرّافاتها لاستلام الأرض.
– لا توجد شركة يا ناصر.. لقد سألت الجميع وأنكروا وجود تلك الشركة.. لقد بيعت الأرض للمستوطنة!
– وما الفارق إذن؟! كل ما كنت تريده هو المال، مثلك مثل جيرانك.. عندما يحضر المال فلا فرق بين أن تبيع أرضك لشركة أو للمستوطنة.. لقد جئتني وأنت تريد أن تبيع أرضك بأي ثمن.

فصرخ أبو عمار قائلاً:

– كنت مخطئًا.. أردت أن أعيش أنا وزوجتي وأولادي في مستوى أفضل.. الكل من حولي يبيع أرضه.. ولكن الآن غيرت رأيي بعد أن خدعتوني.. لن أبيع أرضي للمستوطنة.

فضربه ناصر على كتفه وقال:

– الإسرائيليون سيأخذون الأرض بأي شكل سواء رضيت أو رفضت.. غيرك سلبت منه أرضه عنوة دون أن يحصل على أي شيء.. أما أنت فحظك أفضل من غيرك.. فات الأوان؛ الإسرائيليون قادمون يا أبو عمار.

فانتابت أبو عمار حالة هستيرية، وأخذ يلطم على وجهه بقوة وهو يصرخ قائلاً:

- لن أبيع.. لن أبيع!

لم يمض الوقت حتى ظهرت الجرافات الإسرائيلية تغزو الأرض وحولها قوة من الشرطة تنتشر في أرجاء الأرض.. ونزل أفرادها من المدرعات يبعدون أي شخص يحاول الاقتراب من الجرافات بقوة.. فانطلقت الجرافات تزيل أشجار المشمش المثمرة تدهسها بوحشية وتقطع غصونها تحت مجنزراتها.. وأخذت تدمر المنازل الموجودة لتساويها بمستوى الأرض في لحظات.. خرج أهالي المنطقة من بيوتهم يرون هذا المشهد، يحبسون أنفاسهم ودموعهم دون أن يتلفظوا بكلمة.. هذا المشهد المتكرر اليومي الذي اعتادته الأعين الفلسطينية دون أن تستطيع أن تتحرك.. الأرض تسلب والدم يراق عليها.. وصراخ وعويل أمام المدرعات الإسرائيلية التي تدهس الأرض دون رحمة.

اقتربت الجرافات من منزل أبو عمار لتدمره، حتى خرج أبناؤه حاملين أمتعتهم يجرون أقدامهم.. بينما نظرت زوجته إلى الجرافات وهي لا تصدق ما ترى عيناها فسقطت على الأرض وأخذت تلطم بقوة وتأخذ من تراب الأرض وتضعه على رأسها، وصوتها يزلزل أركان الأرض وهي تصرخ في وجه زوجها الذي نزلت دموعه على لحيته قائلة:

- بعت أرضنا لليهود أيها الخائن؟! بعت أرضك وأرض أجدادك يا أبو عمار؟! أنا لن أغادر الأرض حتى أموت عليها!

فانطلق نحوها مجموعة جنود ليبعدونها عن طريق الجرافات وهي تحاول أن تقاومهم، حتى جذبوها من ذراعيها وجرّوها على

الأرض بعيداً. وساقاها تحفران في الأرض، فانتفض أحد أبنائها ليبعد عنها الجنود، فضربه أحدهم على رأسه ببندقيته.. وسارت الجرافة نحو المنزل لتدكّه تماماً، ومعه كل ما امتلك أبو عمار وأهله من ذكريات وتاريخ وأصالة.. خرجت رائحة الأجداد من الأرض بلا عودة لتتطاير في السماء.. وبعدها بدأ الجنود في نشر السياج الحديدية والأسلاك الشائعة وعليها أعلام إسرائيل، لتعلن انضمام أرض أبو عمار ضمن مساحة مستوطنة هارحوما.

لحظات ضعف

كان الدكتور ماكلين جالساً في مكتبه يقرأ تقارير الطلاب، وقام من مكانه وصنع لنفسه كوباً من "السبرسو" من الماكينة الموجودة بمكتبه.. ثم عاد مرة أخرى وجلس يتابع التقارير باهتمام.. فنقر الباب ودخلت آشيرا.. فانتبه الدكتور ماكلين واعتدل في جلسته.. كانت آشيرا مرتدية "بَادي" ضيقاً ملتصقاً بجسدها الشهيّ يُظهر كل تضاريسه الساخنة ويحدد صدرها الممتلئ بوضوح، والجينز الضيق الذي يوضح معالم فخذيها المكتنزين.. فاقتربت منه قائلة:

– أعتذر إن كنت قد عطلتك عن عملك.. لقد أتيت لأريك أجزاء من رسالتي، ولكني أخاف أن يكون الوقت غير مناسب.

فردّ بانتباه قائلاً:

– أبداً.. لقد كنت أراجع بعض تقارير الطلبة فحسب.. تفضلي.

فجلست بجواره ووضعت أمامه مجموعة من الأوراق.. فأخذ نظارته والتقط بعض الأوراق وأخذ يقرؤها، بينما هي تراقبه بعينيها الثاقبتين وتطلق منهما نظرات الإعجاب والفتنة.. فخلع النظارة وأكمل قائلاً:

- بحثك رائع.. يبدو أن قسم التاريخ قد كسب باحثة ممتازة.

فردت بصوت دافئ:

- حقاً؟ أنا لا أصدق أن تقول عني هكذا.
- أنا لا أمزح.. إنك فعلاً رائعة.

ثم نظر إليها بإمعان وضحك مجاملاً وقال:

- يبدو أنك رائعة في كل شيء.

فنظرت إليه نظرة حالمة وقالت:

- ويبدو أنك لست أستاذاً في التاريخ فحسب.. بل أستاذاً في الغزل.

فضحك الدكتور ماكلين قائلاً:

- ولكن ليس لهذه الدرجة.
- بل أكثر من ذلك.

ثم اقتربت منه أكثر.. وأخذت تتشمم رائحة عطره، وقالت بهدوء:

- ما نوع العطر الذي تضعه؟ إنه رائع.

فرد قائلاً:

- Chanel.
- حتى ذوقك في العطور رائع.. إنك فعلاً ساحر.

فابتسم الدكتور ماكلين محاولاً إخفاء انجذابه إليها.. لكنها لم تعطه الفرصة كي يهرب ولاحقته بعينيها وكلماتها قائلة:

- إنني لم أرَ أحداً في الجامعة.. بل في أورشليم كلها في شخصيتك.. أنيق ووسيم وجذاب.. وفوق كل ذلك عالم فذ.. إنني أحسد زوجتك على الكنز الذي تملكه.

فصمت قليلاً ثم قال بهدوء:

- إنها متوفية.

فتراجعت قليلاً وأكملت بأسى:

- أنا آسفة؛ لم أكن أعلم ذلك.
- لقد حدث ذلك من مدة.. لا عليك.
- أكيد كانت سعيدة معك.. أنت تسعد أي امرأة تكون معك.

فابتسم الدكتور ماكلين وأكمل:

- عندما يحب المرء بجد.. يعطي كل ما عنده.. ولكنني الآن أعيش وحيداً.

فنظرت إليه برقة وأمسكت بيده قائلة:

– لا أريدك تقول تلك الكلمة.. ما دمت هنا بأورشليم أنت لست وحيداً.. أنا سأكون بجوارك وحولك دائماً.. لن أتركك وحدك أبداً.

فنظر إليها بهدوء ثم نظر في ساعته وأكمل مبتسماً:

– ولكن يبدو للأسف أنني أنا الذي سأتركك.. لقد جاء موعد المحاضرة.

فقامت من مكانها ولملمت الأوراق ومدت يدها لتصافحه قائلة:

– سأراك مرة أخرى.. أليس ذلك؟!

فأمسك يدها بحرارة ورد بعينين لامعتين:

– أكيد آشيرا.. أكيد.

لم يكن الدكتور ماكلين يدري حقاً ماذا يجري له عندما يرى آشيرا أو مجرد يسمع صوتها.. فقد كان تأثيرها الساحر له مفعوله الرهيب عليه، وهو ما لم يستطع مقاومته.. كانت الكلمات الخاصة بها على صفحات مذكراته تصفها وكأنها "مفاجأة تسللت إلى حياته.. إكسير السعادة الذي كان ينتظره منذ مدة". فقد أتاح لخياله المساحة في أن تسكن فيه وتحتله بحيلها المتمرسة وفتنتها القاتلة.. أصبح ينتهز الفرصة التي تجمعهما معاً ليعيش معها ما كان يفتقده في حياته.. وأصبح لقاؤها يغيّر حالته المزاجية ويجعله هو الذي يسعى إليها، بعد أن استولت على تفكيره وعوّدته على رؤيتها.

وفي منتصف الليل بينما هو يكتب بعض مقالاته، دق هاتف

المنزل وكأنه يتوقع من المتصل أو أنه يتمنى أن يسمع صوتها.. وما أن التقط السماعة بشغف حتى انطلق صوتها في أذنيه كالسحر.

- آسفة على الإزعاج.
- لا تقولي هذا.
- هل أيقظتك من النوم؟
- أبداً.. بالعكس.
- لكنني لم أستطع النوم دون أن أسمع صوتك.
- أتعلمين أنني كنت أفكر فيك الآن؟! وكأنني أتوقع أن أسمع صوتك!
- حقاً؟! أتعرف ماذا أفعل أنا الآن؟ إنني أجلس في حجرتي أستعيد كل اللحظات التي كنا فيها معاً.. أتخيلك معي الآن.. فلم أعد أستطع أن أمنع نفسي من أن أراك ولو حتى في أحلامي.

فصمت الدكتور ماكلين ليلتقط أنفاسه.. إلا أنها منعته من التفكير ولاحقته قائلة:

- ولكن قل لي الحقيقة.. هل تتمنى أن أكون معك الآن مثلما أنا أتمنى؟
- نعم.. ولكنني لن أحتمل.. فيبدو أنك ستكسبين.

فضحكت ضحكة أنثوية عالية رجت أركانه وأكملت قائلة:

- يبدو أنك أنت الذي ستسيطر عليّ.

كانت ممددة على السرير وهي تتحدث إليه وهي تؤرجح ساقيها في الهواء.. وأخذت تلعب في إحدى خصلات شعرها الأحمر المتدلي على وجهها، وهي تصف له وضعها حتى ندى جبينه..

ثم أكملت قائلة:

- غداً هو يوم عيد ميلادي.. وأنت مدعو للاحتفال معي به.
- ولكن...
- لا أريد منك أي أعذار.. سأمر عليك بالسيارة لنحتفل معًا.. أريد أن أراك غداً أجمل رجل في إسرائيل.

وما أن وضعت السماعة حتى انطلق صوت من خلفها قائلاً:

- ماذا فعلتِ؟
- كل شيء على ما يرام.. سيكون جاهزًا في الميعاد كما أردتم.
- إنك رائعة يا آشيرا.. لا يمكن لأحد أن يفلت من تأثير أنوثتك.. خذي تلك الكاميرا الصغيرة لتضعيها في حجرة نومه.. نريد أن نسجل ونصور كل شيء.

وقف الدكتور ماكلين أمام باب منزله بكامل أناقته المعتادة.. مرتديًا بدلة سوداء وربطة عنقه الحمراء المميز بها.. تفوح منه رائحة عطره.. وأخذ ينظر في ساعته الذهبية التي أشارت إلى العاشرة مساء.. حتى وقفت أمامه سيارة آشيرا.. فاقترب منها قائلاً:

- دائمًا في الميعاد.

فابتسمت آشيرا قائلة:

- الليلة ليلتنا.. لا أستطع التأخر.. والآن سوف نسهر في أجمل مكان في أورشليم.. إنك لن تنسى هذه الليلة.

وصلا إلى مطعم فخم في شارع "حاناتسيف" بوسط المدينة.. ودخلت آشيرا وهي تعلق يدها في ذراعه مرتدية فستانًا أسود دانتيل بحمالات، وتضع على كتفها شالاً حريريًا، وشعرها الأحمر مرفوع متدلية منه خصلتان على جبينها.. وجلسا على طاولة بالقرب من الموسيقى.. فنظر الدكتور ماكلين في عينيها وأخرج علبة حمراء من جيبه وقدمها إليها.. ففتحتها ووجدت خاتمًا "سوليتير" براقًا.. فلمعت عيناها وردّت بصوت حنون:

– أنت مذهل ماكلين.. هذا كثير عليّ!
– إنك تستحقين الكثير.. لقد منحتني سعادة لم أكن أتخيلها.

فاقترب منهم النادل حاملاً زجاجة "شمبانيا" وصبّ أمام الدكتور ماكلين فأشار إليه بالرفض.. فنظرت إليه آشيرا قائلة:

– الليلة يجب أن تتحرر من كل شيء.. أنت الآن معي.. ويجب أن تشرب نخبي.

فابتسم الدكتور ماكلين وأماء برأسه موافقًا ورفع كأسه قائلاً:

– نخب آشيرا.

فردت برقة:

– بل نخب ماكلين وآشيرا.

وبدأت الفرقة الموسيقية في عزف موسيقى هادئة.. فقفزت آشيرا من مكانها وشدت يد ماكلين للرقص معها، فلفّت

ذراعيها حول كتفه، واقتربت بصدرها ليلامس جسده، ونظرت داخل عينيه وكأنها تغزوه وهو يضع يديه حول خصرها، وكأنه يلمس قطعة من الجمر تشعل أنامله.. واقتربت من أذنه وأخذت تهمس قائلة:

– لقد بحثت عنك في كل مكان منذ يومين لكنني لم أجدك.. لقد قلقت عليك.

– أكيد إما كنت مع بن أهارون وإما مع شلة البار.

– لقد قلت لك مرارًا لا تجلس مع هؤلاء.. إنهم عواجيز وجلستهم مملة وكل كلامهم عن السياسة أو حال البلد، وأنت ما زلت شابًا.. لا أريدك أن تجلس مع أحد هنا غيري.. ولا تفكر في أحد غيري.

فابتسم الدكتور ماكلين ورد:

– لكنك ستملين مني.

فوضعت إصبعها على شفتيه وتحسستهما وكأنها تحرقهما، وقالت:

– لا أريدك أن تقول هذا.. أنت ملكي ولن أسمح لأحد أن يأخذك مني.

وبعد أن انتهت الموسيقى قالت له بصوت ناعم:

– ما رأيك في أن نكمل الليلة في منزلك؟
– ولكن المنزل غير ملائم لاستقبالك.. أنت تعرفين بيوت العزاب.
– لا تقلق؛ أي مكان نكون فيه معًا يكون ملائمًا.

وقادت آشيرا سيارتها وهي تشق الطريق بجنون وكأنها تسابق الزمن، حتى وصلا إلى المنزل.. ففتح الدكتور ماكلين النور، فدخلت آشيرا بخطوات رشيقة متمايلة، وهي تصدر صوتًا مثيرًا بكعبها العالي، وأزاحت شالها الحريري وهي تكشف عن كتفيها، وصدرها المرمري وكأنه يريد القفز من الفستان الضيق.. وأخذت تنظر إلى اللوحات الفنية المعلقة على الحائط وقالت:

– شقتك رائعة.. يبدو أنك تعشق الفن.

فابتسم الدكتور ماكلين ابتسامة صفراء ورد بوجنتين حمراوين:

– في الحقيقة.. إنها ذوق بن أهارون.. هو الذي اختار المنزل والأثاث الذي يحتويه.

فردت قائلة:

– لكنك اخترتني أنا.. وهذا يكفي.

ثم اقتربت من طاولة بمنتصف الصالة عليها نسخة من الإنجيل، بينما دخل إلى المطبخ المفتوح وهو يبحث عن مشروب لهما.. فنظرت إليه باستخفاف وقالت:

– أرى أنك متدين أيضًا.. أدائمًا تقرأ في الإنجيل؟
– في بعض الأحيان.. إنه هدية من أحد الأصدقاء.

فأزاحته بيديها ووضعت شالها على الطاولة، واستمرت في التجول داخل المنزل، حتى ارتمت على أريكة ومددت جسدها الناري، وكأنه

يتوعد للدكتور ماكلين بكل ما يحوي من أنوثة صارخة.. أخذت تهز ساقيها في الهواء وهي تفك إبزيم صندلها حتى أطلقته بعيداً.. وبقيت بفردة واحدة تمايلها وتتلاعب بها بقدميها حتى خلعتها وعلقتها عند أطراف أصابعها.. حتى دخل الدكتور ماكلين حاملاً كأسين من الشامبانيا المثلجة ماركة Bruno Paillard الفاخرة الشهيرة ووضعها على الطاولة، واقترب منها وهو يفكك ربطة عنقه قليلاً.. أخذ جبينه يتصبب العرق الغزير وجسده يرتعش، وهو يحاول مقاومة ذلك السلاح الذري الممدد أمامه.. كانت عيناه تتسابق في ملاحقة نهديها المشتعلين اللذين يصرخان في وجهه ويناديانه ليقترب منهما، بينما أخذت يديها تتحسس ساقها البيضاء حتى وصلت إلى صندلها المعلق.. فقذفته بعيداً باتجاه إحدى الغرف.. فقامت من مكانها وهي تترنح حاملة كأس البيرة، وأشارت إلى الصندل وقالت بلسان ثقيل:

– أووه! لقد سقط الصندل.

فمال الدكتور ماكلين وحمله مقترباً منها وقال:

– لا تقلقي؛ أنا سأحضره.

فأخذته بيدها وألقته مرة أخرى داخل الحجرة، وكأنها تلقي بالكرة ليجري وراءها القط.. وقالت بعينين لامعتين:

– هيا نحضره من الداخل.

فدخل كلاهما إلى حجرة نومه.. كانت تخطو بقدميها الحافيتين

والدكتور ماكلين يبلع ريقه بصعوبة، ملاحقًا ثنيات جسدها الملتوي داخل الفستان الضيق.. كانت آشيرا تنظر إلى أركان الحجرة بدقة شديدة متصنعة ثملها.. ورفعت كأسها بيد مهتزة وهي تطيحه يمينًا ويسارًا حتى أسقطت البيرة على صدرها وفستانها.. فنظرت إلى الفستان بملامح ساذجة وقالت بصوت ناعم:

- خسارة لقد اتسخ الفستان.
- لا عليكِ اخلعيه كي أنظفه.

فزادت لمعة عينيها وأضاء بريقهما ملامحها الجريئة، وكأنها تخطو آخر خطواتها نحو خط النهاية، وتحركت دون انتظار إلى ما أتت من أجله.. تحسست بيديها الحمالات وأنزلتها من فوق كتفها.. انزلق الفستان من على جسدها بسهولة وسقط تحت قدميها، ووقفت أمامه عارية تمامًا.. وسارعت إلى غرفة النوم، حيث ثبّتت كاميرا صغيرة عالية الجودة بجوار السرير.. ومالت على السرير وجميع مفردات جسدها يناديه.. فاقترب منها وهو يلقي كل محاولات المقاومة خلف ظهره، وتسارعت أنامله نحوها وهو يتحسسها، وهي تضمه دون أن تعطيه أي فرصة للتراجع.. بداية من ساقيها المرمريتين أشبه بعمدان نور مصقولتين، مرورًا بكهفها الوحشي حتى صدرها المكتنز المرصع بحبتي عنب، وصولاً إلى رقبتها مخملية الملمس عسلية الطعم.. ذاب جسده داخلها وهي تحيطه بذراعيها، وشفاهما المشتعلة تلتصق وكأنها فتيل قنبلة.. حتى مال بنظره إلى صورة داخل برواز بجانب السرير.. فانتفض من مكانه مذعورًا وكأن تيارًا كهربيًا عنيفًا صعق جسده.. نظر إلى صورة زوجته وهي تتغلغل داخله وتطرد

جميع الأرواح الشريرة من دماغه.. نظر إلى عيني ليندا وكأنها ترقبه وتلومه.. اغرورقت الدموع في عينيه ووضع يديه على وجهه وكأنه ارتكب خطيئة البشرية الأولى. ونزل من فوق السرير ونظر إلى آشيرا، وغرق وجهه في ملامح الخزي. وقال بصوت مهزوز:

– أنا آسف.. لن أستطيع؛ هناك ما هو أقوى مني.

فنظرت إليه بدهشة شديدة وهي تحاول كتم دموعها، والتقطت فستانها من على الأرض.. نظرت إلى الصورة والدموع تهرب منها، وهي تراقب ملامح ليندا الملائكية.. ارتدت الفستان ووضعت يدها على كتفه وقالت بصوت حزين:

– أنا مَن يجب يتأسف.. أنا لم أر إخلاصًا مثل ذلك في حياتي.

فمسح الدكتور ماكلين دمعه وقال:

– ليندا ليست داخل الصورة فقط.. إنها في كل مكان حولي.

ثم قام من مكانه واتجه نحو الباب ليوصلها.. فأمسكت بيده وقالت:

– ابقَ معها.. إنك في حاجة إليها الآن.. وأنا أعرف طريقي جيداً.

وبعد أن رحلت آشيرا وأغلقت الباب خلفها، أمسك الدكتور ماكلين بالصورة واحتضنها بقوة ودموع عينيه تنزل عليها.. أخذ ينظر إلى عينيها الزرقاوين ويتحسس بأصابعه صورة وجهها، وقال بصوت خافت:

– أنا آسف ليندا.. آسف.. سامحيني أرجوك.. أعدك أن أظل معك للأبد.

بعد أن أوقفت سيارتها أمام مبنى الكلية بطريقة جنونية ونزلت غير مبالية بما حولها.. دخلت آشيرا إلى قسم التاريخ متّشحة بالسواد، ترتدي نظارة سوداء تخفي بها ملامحها الغاضبة، وهي تلملم شعرها الأحمر دون أن تتحدث إلى أي أحد.. فمرت أمام تال ورامون ونظرت إليهما دون أن تنطق بكلمة.. فنظرا بعضهما إلى بعض، فقال رامون مندهشًا:

– ماذا بها؟ إنها أول مرة أرى آشيرا بهذا الشكل!

فصمت تال مستغرقًا في التفكير ورد قائلاً:

– لا أعرف.. يبدو أن في الأمر شيئًا.

ودخلت إلى مكتب بن أهارون وأغلقت الباب خلفها بقوة.. ونظرت إلى كل من بن أهارون وإبرام اللذين كانا في انتظارها وكأنهما جالسان على الجمر.. فقفز بن أهارون من مكتبه متلهفًا واقترب منها وقال بعينين ضيقتين:

– ماذا حدث؟ بشريني بالنتيجة.

فرد عليه إبرام قائلاً:

– أنا أعرف النتيجة مبكرًا.. إنها آشيرا تلميذتي.

فنظرت إليهما شذرًا وارتمت على الكرسي، وقالت بصوت ضعيف:

– لم يحدث شيء.

فانتفض كلاهما وكأن النار قد مسّتهما.. وقام إبرام مشتعلاً والغليان يلوّن وجهه بالسواد، وجذبها من ذراعها، وقال بصوت أجش:

– أنتِ أكيد تمزحين.. ماذا فعل بك هذا الرجل؟!
– قلت لك لم يحدث شيء.

فاقترب منها بن أهارون مذعورًا وقال:

– كيف ذلك؟! لقد كان كل شيء محسوبًا حسب الخطة.

فنظرت إليهما وردت بهدوء:

– لقد وقفت زوجته بيننا.

فقام إبرام وقال صارخًا:

– أيتها الحمقاء! زوجته ماتت منذ فترة طويلة!
– لكنها ما زالت تعيش في وجدانه.. إنه لم ينسها أبدًا.

فرد بن أهارون قائلاً:

– ماذا تعنين؟
– تلك الأساليب الرخيصة لا تجدي مع شخص مثل الدكتور ماكلين.. إنه شخص أكبر وأرفع من ذلك.

فقاطعها إبرام بقوة:

– بل إنك التي فشلتِ في مهمتك.. لقد أصبحت ضعيفة ولن تصلحي لمثل تلك الأعمال.

فنظرت إليه بعينين ممتلئتين بالدموع وقالت:

– بل أنت الذي لا تعرف شيئًا عن الوفاء.. لقد رأيت في هذا الرجل ما لم أره في أي رجل عرفته طيلة حياتي.. يسكن قلبه كمٌ من الوفاء والإخلاص يملأ الدنيا كلها.. إنه يملك قلبًا ذهبيًا لا مثيل له.. أرجوكم اتركوا هذا الرجل وشأنه.. إنه لا يستحق منكم ما تخططونه له.

فنظر إليها إبرام بعينين حمراوين يخرج منهما الشرر.. وقال صارخًا:

– أعدك بأن مصيرك لن يكون أرحم من مصيره.. اصبري علينا قليلاً حتى نفرغ منه.. ثم نختار لك الجزاء الذي يليق بمكانتك عندنا.. والآن ارحلي من هنا وإلا أطلقت عليك الرصاص.

فانتفضت آشيرا من مكانها متجهة نحو الباب ومسحت دموعها وقالت بتحدٍ:

– لم أعد أخشى ما ستفعلانه بي.. لم يعد عندي ما أبكي عليه.

وبعد أن أغلقت الباب بقوة.. نظر إليه بن أهارون قائلاً:

– وما العمل الآن؟

- يبدو أن هذا الرجل مُصرًا على الخروج من دائرتنا.. يجب أن نسيطر عليه بأي طريقة مهما كلفنا الأمر.
- لقد أصبح خطيرًا علينا.. بدأ يعرف ما لا يجب معرفته، وأصبح يتغلغل في أوساط المجتمع كالماء، والكل يتأثر به ويسمع كلامه.. يجب أن تضع له حدًا إبرام.
- سيحدث عزيزي، وسيكون أسرع مما تتخيل.

***

البركان

بعد انتهاء المحاضرة استعد الطلاب للخروج، بينما جلس مصطفى بجوار النافذة تكتسي ملامحه بعلامات الشرود.. ينظر عبر النافذة بعينين ضائعتين متشحًا بالسواد، تاركًا لحيته تبرز على وجهه دون تهذيب.. فاقتربت منه مريم ووضعت يدها على كتفه دون أن يلقي بها بالًا ثم مالت عليه قائلة:

- ماذا بك؟ إنك لم تكن في حالتك الطبيعية اليوم، ظللت طوال المحاضرة صامتًا حتى لاحظ الجميع عليك ذلك.. وهذا ليس اليوم فقط، بل منذ أسبوع وأنت على تلك الحالة.

فظل مصطفى على صمته، ثم استدار لها في بطء وقال بصوت مجروح:

- ما حدث شيء وحشي.. أبشع مما يتخيله أي إنسان.. لا يوجد أي عرف في الدنيا يسمح بترك مريض في أحرج حالاته حتى يموت.. حتى في عالم الحيوانات يبقى جزء من الرحمة بينها.. أما هنا فلا يوجد سوى الكراهية والحقد والدم.

– أنا أقدّر ما تمر به.. فما حدث لجارتك ليس بسهل.. ولكن لا يجب أن تترك نفسك هكذا.

– إنها لم تكن مجرد جارة لي.. بل كانت أكثر من أم.. لا تمر أي مناسبة حتى أجدها هي وأبناءها حولي.. لقد حملتها على ظهري وأنا أعبر التل بعد أن منعنا الملاعين من العبور.. حاولت أن أنقذها لكنني لم أستطع.

فنظرت إليه وردت بصوت هادئ:

– أيًا كان السبب لا يجب أن تنفعل هكذا.. يجب أن تظل قويًا وشجاعًا كما أريدك أن تكون.

فنظر إليها بقوة ورد:

– أنا لا أنفصل عن أهلي مهما كان الأمر.. هؤلاء الناس جزء مني وأنا جزء منهم، وهم الأبقى لي في النهاية.

– لكنني أنا الذي أحبك.. ولا أريدك أن تتعلق بهؤلاء الضعفاء حتى لا تتأثر بهم وتصبح مثلهم.

فنظر مصطفى في عينيها وأخذ يحملق في ملامحها.. فوجد نظرة نارية لم يرها من قبل.. فمالت عليه مريم ووضعت يدها على كتفه، وقالت بصوت عميق:

– اسمع يا مصطفى.. كل ما يحدث حولنا لسنا طرفًا فيه، ولا يجب أن نتعاطف معه بهذا القدر.. كل يوم يموت فلسطينيون وإسرائيليون.. ومع ذلك تستمر الحياة.. المهم أن نعيش لنستفيد ونستمر في الحياة، ولا نتعلق بأفكار عاطفية وخيالات مريضة يمكن أن تؤخرنا.. المهم من يعيش وليس من يموت.. يجب أن تبتعد عن أهلك ونعيش معًا..

من هذا البلد.. وهي ابنة عمي من بلدتي.. ولم ولن أحب سواها.. والآن اغربي عن وجهي فلم أعد أحتمل.

نزلت كلمات مصطفى على أذني مريم كالزلزال الرهيب.. كسّرها إلى شظايا متناثرة.. لم تشعر بجسدها وهو يترنح بعد أن أصابها الدوار وبدأت ترى العالم من حولها يضيق ويزداد سواداً حتى أغلقت عيناها ولم تعد ترى شيئًا.. أخذت تجري في الشوارع دون أن تشعر، حتى وصلت إلى مسكنها بمستوطنة "هاراحوما"، دون أن تدري كيف ساقتها قدماها إلى هناك وهي في هذه الحالة.. كان الصداع يفتت رأسها من الألم حتى والدنيا تدور من حولها.. أخذت تهذي ببعض الكلمات غير المفهومة وكأنها قد أصابتها لوثة.. بل أصابتها بالفعل.. دخلت حجرتها وأخذت تحملق في المرآة بطريقة غريبة.. فرأت ملامحها المضطربة وشفتيها المرتعشتين، وأخذت تهذي بصوت مخنوق:

– لم أكن أعرف أنك يمكن أن تضيّع حبي لك بمنتهى السهولة.. لقد فعلت المستحيل من أجلك يا مصطفى.. ولكن يبدو أنك لم تقدّر ذلك.. لقد خنتني رغم كل ما قدمته لك.

وأخذ جسدها يتشنج بشدة وهي تصرخ:

– أنتم العرب كلكم خونة؛ يجب أن تبادوا جميعكم مثل الحشرات.

وأمسكت بمقص وألقت به في المرآة، فكسرتها إلى شظايا، وهي تصرخ وتردد كلمة "خونة.. خونة.. كلكم خونة".

***

داخل مبنى الشين بيت دخل أحد العساكر إلى مكتب إبرام وأخبره بأن هناك امرأة تريد مقابلته.. فاتكأ إبرام على كرسيه وأذن لها بالدخول.. دخلت مريم مرتدية شالاً أسود كثيفاً تغطي به شعرها، ونظارة شمس كبيرة تخفي أغلب ملامح وجهها المضطرب.. أخذ إبرام يرمقها بعينيه اللامعتين، حتى جلست أمامه، فاعتدل في جلسته واقترب منها وقال بصوت قوي:

– مريم يعقوب عازار.. طالبة الجامعة العبرية.. أهلاً بك في مبنى الشين بيت.

فاندهشت مريم بشدة، واكتسى وجهها بملامح الارتباك.. فلاحقها إبرام قائلاً:

– لا تقلقي هكذا.. فنحن نعرف كل شيء.

فازدادت ملامح الدهشة عليها وحاولت التماسك وقالت بصوت منخفض محاولة إخفاء ما بداخلها:

– لقد أتيت إلى هنا كي أبلغ عن شيء يحدث ضد مصلحة الوطن.

فانتبه لها إبرام.. فأكملت قائلة:

– أريد أن أبلغ عن زميل عربي في الكلية.. منضم إلى مجموعة من الخلايا الإرهابية.. وأعتقد أنكم تريدون الإيقاع به، اسمه...

فقاطعها إبرام ورد بسرعة:

– مصطفى إبراهيم القوادري.. أليس كذلك؟

فانتفضت مريم من مكانها، واحمر وجهها، وازدادت علامات الدهشة عليها.. فضحك إبرام بخبث ورد قائلاً:

– عزيزتي مريم.. نحن نعرف كل شيء عن كل فرد هنا في إسرائيل.. أنتِ هنا في الشين بيت أخطر جهاز أمني في العالم.

وصمت قليلاً، بينما كانت مريم تتصبب عرقاً ثم أكمل قائلاً:

– كما أننا نعرف كل تحركات مصطفى القوادري وأعماله.. ولكن ننتظر الوقت الحاسم للقبض عليه واعتقاله.. إنك لا تعرفين كم نحن سعداء بقدومك هنا للإبلاغ عن واحد من أعداء الوطن.

– إنه واجب وطني على كل مواطن هنا بإسرائيل.

فابتسم إبرام ولمعت عيناه ورد قائلاً:

– ولكن لماذا قمت أنتِ بالإبلاغ عنه؟ على حسب مصادرنا أنكما قريبان بشدة بعضكما من بعض.. كما أنك كنت تؤيدين العرب في العديد من المواقف.

فصمتت قليلاً وردت بصوت مغلول:

– يبدو أنني كنت مخطئة في موقفي هذا.

فاقترب إبرام منها أكثر ومال عليها قائلاً:

– هل حدث شيء ما بينكما.. أخبريني، فأنا مثل أخيك الأكبر.

فتلعثمت في كلماتها قليلاً ثم قالت:

– لا سيدي.. لم يحدث شيء.. فكما أخبرتك من قبل.. إن موقفي هذا بدافع خوفي على الوطن.

فأمعن إبرام النظر داخل عينيها بعينيه الثاقبتين.. وازدادت ابتسامته الصفراء، ورد قائلاً:

– على العموم.. نحن سعداء بموقفك الوطني، ونتمنى أن يكون كل شباب إسرائيل بحماسك هذا، من أجل القضاء على الإرهابيين الذين يدمرون الوطن.. هذا هو الكارت الخاص بي، فيه كل أرقامي.. وأود أن تبلغيني بكل ما يحدث حولك من أحداث وأشخاص.

أخذت مريم الكارت ووضعته في حقيبتها بسرعة.. فنادى إبرام أحد العساكر كي يوصلها إلى باب المبنى.. وبعد أن خرجت اتكأ إبرام على كرسيه مجدداً ووضع قدميه على المكتب وأشعل سيجارة، وأخذ يحملق في الدخان المتطاير، يتخيل فيه وجه مصطفى القوادري، وأخذ يضحك بطريقة هستيرية.

***

خان شاهين

كانت الجامعة العبرية خالية من تكدس الطلاب بعد انتهاء موسم الامتحانات وبداية إجازة منتصف العام.. عدا قليل من الطلبة الذين كانوا يترددون على المكتبة أو الطلبة من سكان القدس، سواء العرب أو اليهود.. فكان معظم الطلاب يسافرون إلى مدنهم وقراهم التي وفدوا منها.. وقف الدكتور ماكلين أمام نافذة مكتبه، يراقب حركة بعض الطلاب القليلين الذين كانوا يتجولون في فناء الكلية، وهو يحتسي السبريسو المعتاد عليه.. فوجد مصطفى جالساً في الفناء على الأرض يمسك بكتاب، لكنه لا يقرأ فيه.. كانت نظراته الشاردة واضحة عليه وملامح الوجوم تشكّل تقاسيم وجهه، وكأنه يجلس في عالم آخر بعيد، رغم وجود بعض الطلبة حوله.. نزل الدكتور ماكلين من مكتبه، واقترب منه دون أن يشعر به مصطفى، وأمسك بالكتاب الذي كان معه، فانتفض مصطفى من مكانه وهمّ بالوقوف.. فربت على كتفه وجلس بجواره على الأرض.. وأخذ الدكتور ماكلين يقلّب في الكتاب وهو يسأله بابتسامة:

– ماذا تقرأ يا مصطفى؟

فرد بهدوء:

– إنه كتاب لإميل توما.. "جذور القضية الفلسطينية".

فأمسك الدكتور ماكلين بالكتاب بعينين يملؤهما الإعجاب وقال:

– ذلك الكاتب الفلسطيني المسيحي.. والذي كان يدرّس في الجامعة الصهيونية بالقدس في أوائل القرن العشرين.. يبدو أنك متأثر به بشدة، حتى أنك تشبهه كثيرًا في أفكاره وأفعاله.

فرد مصطفى بوجوم:

– بلى.
– ولكن يبدو أنك لم تقرأ منه سوى القليل.. هناك ما يشغل بالك إلى درجة كبيرة.

فصمت مصطفى وازدادت ملامح الحزن على وجهه.. فأكمل الدكتور ماكلين قائلاً:

– لقد علمت بما حدث.. وفاة جارتك دون أن يساعدها أحد، لهو أمر بحق بغيض.. ولكن لا يجب أن تترك نفسك للحزن هكذا.. يجب أن تتماسك أكثر من ذلك كما تعودت أن أراك.. أريد أن أرى مصطفى القوي الذي رأيته من قبل.

فابتسم مصطفى قليلاً، فوضع الدكتور ماكلين يده على كتفه وقال له:

– ولكن لماذا لم تسافر مع بقية زملائك في فترة الإجازة؟
– إنني بالفعل أريد أن أعود إلى بلدتي.. فأنا من مدينة الخليل.. ولم أذهب إلى هناك منذ عدة أشهر، ولقد اشتقت إليهم كثيرًا.. ولكن ماذا ستفعل أنت.. فهل ستعود إلى الولايات المتحدة؟

فرد الدكتور ماكلين:

– لا أعتقد.. فإن الوقت لن يسمح.. كما أنني أريد أن أكتشف المزيد عن فلسطين.

فلمعت عينا مصطفى، وقفزت فكرة سريعة في ذهنه، وقال له:

– ما رأيك في أن تأتي معي إلى الخليل؟!

فانتبه الدكتور ماكلين إليه بعد أن راقته الفكرة.. فهو لم يذهب خارج القدس قبل ذلك، حيث كان معظم زياراته محصورة ما بين تل أبيب والقدس.. ولم ير أي مدن فلسطينية على الطبيعة من قبل سوى في نشرات الأخبار والبرامج التسجيلية التي تنتجها إسرائيل.. ولم يتردد في انتهاز الفرصة ليرى ما لا يمكن أن يراه، وقبل الدعوة بحماس شديد.. أخذ الدكتور ماكلين يجهز أغراضه استعداداً للسفر، وهو يضع في مخيلته ما قرأه عن المدينة وما رآه في القنوات الفضائية عن حياة عرب فلسطين من بدائية وسذاجة.. بل يصورهم البعض وكأنهم إرهابيون متطرفون.

وبعد أقل من ساعتين وصل الأوتوبيس إلى مدينة الخليل.. تلك المدينة المشرقة الواقعة على هضبة والمليئة بالبيوت والأحياء العريقة التي تفوح منها رائحة التراث، ومزارع الزيتون الخضراء اليانعة، تتخللها أحياء وشوارع حديثة.. فنزل كل من مصطفى والدكتور ماكلين، وخرج بصيص من شعاع الشمس من بين السحب الكثيفة، ليدفئ شتاء المدينة البارد وكأنه يحييها.. فأخرج مصطفى من حقيبته الشال الفلسطيني، ولفه على كتفه، فنظر إليه الدكتور ماكلين بدهشة.. فابتسم مصطفى ورد:

- أهلاً بك في الخليل.

ثم أخذ حقائب الدكتور ماكلين وقال له:

- إن بيتنا ليس ببعيد.. يمكن أن نتمشى حتى نصل إليه.

فابتسم الدكتور ماكلين، وأخذا يمشيان بين شوارع حي القزازين بالبلدة القديمة.. بينما كان الدكتور ماكلين يراقب المباني القديمة، والتي ترجع إلى العهد الأيوبي والمملوكي والعثماني، والناس وهم يسيرون في أسواق البلدة وأزقتها الحجرية الضيقة، وهو يصور كل تفاصيل المدينة بكاميرا الفيديو الصغيرة.. حتى اقتربا من أحد البيوت القديمة ذات الطراز العربي.. فصاح مجموعة من الأولاد يلعبون أمام البيت "مصطفى عاد.. مصطفى عاد". فتنبّه أهل البيت وخرجوا لاستقبالهما.. فطار مصطفى نحوهم يملؤه الشوق والحنين وأخذهم بالأحضان، ودخلوا عبر باب حديدي أزرق ذي عقد نصف دائري مزخرف، ومنه إلى حوش البيت المزدان بأغصان الزيتون حتى حجرة الاستقبال، التي جلست فيها كل عائلته على وسائد وحُصر على الأرض، معلق على جدرانها صور قديمة للخليل.. حتى وصل إلى أبيه الحاج إبراهيم القوادري، وقبّل يديه.. وكان رجلاً قارب الستين من العمر، ذا لحية بيضاء وملامح تملؤها الهيبة والوقار، مرتدياً ملابس أهل الخليل التقليدية، حيث القمباز، ذلك الرداء الطويل المشقوق من الأمام وعليه جبة قصيرة وعباية سوداء، ويلف على خصره بالحزام القماشي العريض، ويمسك بعصا طويلة يتكئ عليها.. فجلس الدكتور ماكلين وسطهم وهو لا يصدق مدى الحفاوة التي قوبل بها.. فقال الحاج إبراهيم:

– أهلاً بك في الخليل، في دارك ووسط أهلك.

فهم مصطفى ليترجم له ما قاله.. فأماء الدكتور ماكلين بيده مقاطعًا وقال:

– أنا أعرف القليل من العربية.. وأفهم ما قاله له سيدي.. وأنا في منتهى السعادة والشكر لما رأيته منكم.

فرد مصطفى:

– إنك لم تر شيئًا بعد.. يجب أن ترى الكرم العربي على أصوله.

فعلّق أحد الشباب الجالسين بقوة، وكان طويل القامة ذا شعر قصير وبشرة خمرية، مرتديًا الشال الفلسطيني، قائلاً:

– يجب أن يعرف أنه فعلاً بين أهله، ويعرف الفارق بيننا وبين غيرنا.

فانتبه له الدكتور ماكلين.. فرد مصطفى معرفًا به:

– أما هذا فهو غسان.. ابن عمي وصديقي وأقرب شخص لي في الحياة.

فرد الحاج إبراهيم قائلاً:

– لقد حدّثنا مصطفى كثيرًا عنك في مكالماته.. ولكننا لم نتوقعك صغيرًا هكذا.. إنك لا تعرف لأي درجة هو معجب بك.

فضحك الدكتور ماكلين ورد:

– يبدو أنه يبالغ كثيراً.. مصطفى من أشجع وأفضل الطلبة عندي.. وأنا أفتخر به بشده.

ولم ينهِ الدكتور ماكلين كلماته حتى فتح الباب ودخلت فتاة جميلة ممشوقة القوام ذات وجه ملائكي أبيض، تنزل عليه بعض من خصلات شعرها الحالك السواد، والذي يغطيه شال تلف به رأسها، وعينان مكحلتان ذاتا رموش طويلة أخاذة.. كانت ممسكة بصينية عليها إبريق من القهوة العربية ومجموعة من الأكواب الصغيرة.. وما أن رآها مصطفى حتى تغيرت ملامحه وانتفض من مكانه وأمسك الصينية عنها ووضعها على المائدة.. فاحمرّ وجهها خجلاً وجلست بجوار أخيها غسان.. وطوال الجلسة لم ينزل مصطفى عينيه من على وجهها المشرق، بينما هي كانت تبادله النظرات بعينيها الرقيقتين، وكأنها تريد أن تنقل له رسالة دون أن يقرأها أحد سواهما.. فأشار إليها الحاج إبراهيم قائلاً:

– أما تلك الجميلة.. فهي زينة، ابنة أخي بركات.. طالبة في جامعة الخليل.. تدرس الحقوق.

فاستمر مصطفى يحملق في وجهها، وعيناه تحتضن ملامحها كأنه يريد أن يكمل "وحبيبتي أيضاً".

وأخذ يطوف بذكرياته عندما كان يلعب معها وهما صغيران في مزارع الزيتون، حتى كبر وجاء ميعاد رحيله إلى القدس ليكمل دراسته.. وفجأة انفتح الباب بقوة ودخل شاب بدين الجسد ذو

عينين غائرتين وبشرة شاحبة وملابس مهلهلة.. وأخذ يهرول نحو مصطفى وهو يهلل بصوت مرتفع "ها قد جاء البطل"، وأخذ يحتضنه بقوة حتى كاد يكسر ضلوعه.. بينما أخذ الحاضرون ينظرون إليه باشمئزاز.. فصاح الحاج إبراهيم بقوة:

– نزار.. هلا أخفضت صوتك قليلاً.. لا أحد يعلو صوته داخل بيت القوادري.. ثم ما الذي أتى بك إلى هنا؟! يجب أن تكون بجانب زوجتك الحامل.

فجلس نزار مقرفصاً بعد أن خلع حذاءه واستمر في صوته العالي وهو يحرك يديه في الهواء قائلاً:

– جئت لأرى البطل وأحييه.. زينة شباب عائلة القوادري الذي يرفع رأسنا أمام اليهود.

ثم نظر إلى مصطفى وأكمل قائلاً:

– وكيف حال القدس الآن؟ الناس والجامعة.. أريدك أن تحك لي عن كل شيء.

فرد مصطفى متأففاً:

– كل شيء بخير.

فأكمل نزار بأسلوب مستفز وهو ينظر إلى زينة:

– وكيف حال الفتيات هناك؟ أعرف أن بنات اليهود لا يقاومن.

فانتفض الحاج إبراهيم وصرخ فيه:

– نزار.. أنت تعلم أن مصطفى ليس من هذا النوع.. إنه في القدس لمهمة معينة.. كما يجب أن تعلم أنني قد ربيت ولدي على طاعة الله والقيم السليمة.
– لا أقصد شيئًا يا عمي.. بل كنت أمزح معه فقط.

ثم نظر إلى الدكتور ماكلين وأكمل بعينين يقفز منهما الفضول:

– ومن هذا الرجل المهيب الذي أتى معك يا مصطفى؟
– إنه أستاذي في الجامعة.. وقد استضفته هنا لمدة أسبوع.. هل عندك سؤال آخر؟

فصمت نزار وأومأ برأسه دون أن ينطق بكلمة.. ثم وقف من مكانه وارتدى حذاءه وهم بالرحيل قائلاً:

– والآن.. يجب أن أرحل فعندي ميعاد مع بعض العملاء.. كما يجب أن أطمئن على أمينة، فهي وحدها.. ولولا الظروف لأتت معي.. المهم أنني اطمأنيت على البطل.

وما أن رحل نزار حتى تنفس الجميع الصعداء.. فمال غسان على مصطفى وقال له بصوت خافت:

– زيارة نزار غير مطمئنة.. إنه لا يطيقنا ولا يأتي إلى هنا إلا للظروف الصعبة، ويأتي متضررًا.. لذا أنا أجزم أن وراءه غرضًا.

فنظر إليه مصطفى وأكمل قائلاً:

– وأنا أشك في هذا الغرض.. وأتمنى ألا يكون صحيحاً.

***

وصل نزار إلى بيته غير البعيد من بيت القوادري.. وأغلق الباب خلفه بقوة، فخرجت زوجته أمينة من المطبخ، وقد ظهرت عليها أعراض الحمل.. فقالت:

– لقد أتيت مبكراً الليلة.

فرد بغيظ:

– ألا تريدينني أن أعود إلى البيت؟! إنه بيتي وأعود وقتما أشاء.

فأكملت في لهفة:

– هل رأيت مصطفى؟ كيف حاله؟ هل هو بخير؟
– إنه كما هو.. مثلما ذهب مثلما عاد.. محمّلاً بالخيبة والفشل.. وأنتم تجعلون منه بطلاً قومياً لمجرد أنه يدرس في جامعة اليهود.

فصرخت أمينة في وجهه قائلة:

– لا تقل على أخي هكذا.. إنه بطل رغماً عنك.. مصطفى أفضل من أخرجتهم عائلة القوادري.. شاب طموح ومكافح.. يقاوم الصهاينة ويقف أمامهم وسيعود بالشهادة العليا عن قريب.. يجب أن تتعلم منه بدلاً من جلوسك على القهوة وأعمال السمسرة التي تقوم بها مع هؤلاء المشبوهين.

فرد بقوة:

– إن هذه الأعمال هي التي تفتح لنا بيتنا.. وهي التي ستربي ابنك القادم.

فنظرت إليه شذرًا وأكملت:

– لم أتمنَ أن يأتي ولدي ليراك أباه ومثله الأعلى.

فأمسك بذراعها بقوة ودفعها قائلاً:

– أنا لا أسمح لك أن تخاطبينني بتلك الطريقة.. ما لا يعجبك الآن سيجعل مني رجلاً غنيًا وسأكون أفضل من فارسكم مصطفى القوادري.

ثم دخل غرفته وأغلق الباب على نفسه، وأخرج صندوقًا صغيرًا كان يخبئه في درج سحري في الدولاب، وفتحه بمفتاح وأمسك برزمة من الشيكلات الإسرائيلية والدولارات، وأخذ يعدّها، ثم وضعها مكانها وأغلق الصندوق ووضعه مكانه، ثم خرج من الحجرة.. وصاح بصوته العالي:

– سوف أجلس على القهوة لأقابل بعض العملاء.. وإن سأل أحد عليّ فأنا سوف أتأخر.

وخرج مسرعًا بعد أن أغلق الباب خلفه بقوة.. ثم سار بعيدًا عن المنزل عبر التلال وهو يغطي وجهه بشال، وأخذ يتلفّت حوله حتى وصل إلى نقطة تفتيش إسرائيلية.. فدخل على الضابط

قائلاً:

– أريد أن أقابل الميجور "دان".

فنظر إليه الضابط قائلاً:

– من أنت؟ ولماذا تريده؟
– أنا نزار عباس.. صديق الميجور دان.. وعندي له أخبار هامة وعاجلة.
– انتظر قليلاً.. ستأتي دورية وستأخذك إليه في مركز القيادة بمستعمرة "كريات أربع".

بعد أن ظل ساعات في الانتظار وهو يتصبب عرقًا.. أتت الدورية، ركب معها نزار حتى وصلت إلى المركز.. فدخل وهو يرتعش من كم الضباط والعساكر المحيطين به.. حتى وصل إلى مكتب الميجور دان.. فوجد سكرتيرته "تاليا" جالسه بالبدلة العسكرية.. فمال عليها وقال بصوت هادئ:

– أريد أن أقابل الميجور الآن.

فنظرت إليه باحتقار وردت قائلة:

– وهل هناك ميعاد سابق يا عباس؟
– لا.. بل هناك معلومات هامة يجب أن أقولها له.. كما أن اسمي نزار.. وسيكون أجمل اسم لو نطقت به من شفتيك الجميلتين.

فزادت من نظرة الاحتقار له وقالت باشمئزاز:

– لم يبق سواك لتغازلني! ادخل وانتظره بالمكتب.

فدخل نزار وجلس أمام مكتب الميجور وقد ظهرت على وجهه ملامح القلق، وأخذ يفرك يديه من شدة القلق.. حتى فُتح الباب بقوة ودخل الميجور دان.. وكان رجلاً ضخم الجسد أصلع الرأس ذا عضلات مفتولة.. ما أن رآه نزار حتى انتفض من مكانه وأخذ يزداد في عرقه.. فنظر إليه الميجور بقوة وأمسك بكتفه وصرخ فيه قائلاً:

– ألم أقل لك لا تأت إلى هنا أبداً؟! نحن الذين نستدعيك بطريقتنا.

– سيدي الموضوع لا يحتمل التأجيل.. العصفور وقع.

فهدأ الميجور ورد:

– ماذا؟ ماذا تقصد؟

– لقد عاد مصطفى القوادري اليوم.. وجاء بزفة وكأنه قادم من حرب.. ويبدو أنه سيلملم حوله هؤلاء الملاعين من أصدقائه مرة أخرى، وسيقوم بتأليب الأهالي ضدكم.

فصمت الميجور قليلاً ثم أكمل قائلاً:

– هذا الولد مشاغب ومثير للمشاكل ودائماً ما يقود المظاهرات ضدنا.. اعتقلناه عشرات المرات ولكنه لا يكف عن فعلته.. وأنا على يقين أنه على علاقة بالعديد من منفذي العمليات الإجرامية التي حدثت في الفترة الأخيرة.. إنه يتخيل نفسه زعيماً.

فأكمل نزار قائلاً:

– وها هو الآن أصبح بين أيدينا.. كما أنه قد قدم هذه المرة ومعه رجل

أجنبي يقول إنه أستاذه.

فغمغم الميجور في سره قائلاً:

– هذه المرة لن أتركك يا مصطفى.

ففرك نزار يديه وقال بعينين لامعتين:

– ألا أستحق شيئًا على هذا الخبر؟! إنه يساوي مليون شيكل.

فدفعه الميجور بقوة من كتفه وقال:

– نحن من نقرر قيمة الخبر أيها الأبله.. اذهب وخذ من تاليا ٥٠٠ شيكل، ولا تأت إلى هنا إلا إذا استدعيناك.

فهرول نزار إلى الخارج.. واقترب من تاليا السكرتيرة وطلب منها المال.. ففتحت الدرج بجانبها وأخرجت له الـ٥٠٠ شيكل وقذفتها في وجهه.. فأمسك بها بلهفة وقال بنعومة:

– ألم يحن الوقت كي ترضي عني؟! لم أر في حياتي جمالاً قاسيًا مثلك.

فصرخت في وجهه قائلة:

– هل جننت؟! كيف تتجرأ وتخاطب ضابطًا في الجيش الإسرائيلي هكذا.. ارحل قبل أن أخبر الميجور.

فأسرع خارجًا وهو يتحسس كتفه قائلاً:

- لا.. أرجوك.. فأنا أعرف معزتي عند الميجور.

ثم خرج من المركز وهو يحتضن المال ويخبئه تحت ثيابه، وأعاد تلثيم وجهه مرة أخرى حتى عاد إلى المدينة.

***

سار كل من مصطفى وغسان وسط الظلام الدامس والبرد الشديد بين المزارع، وهما يغطيان وجهيهما بالشال.. فأخذ مصطفى يلتفت حوله ونظر إلى غسان قائلاً:

- هل كل شيء على ما يرام؟

فرد غسان بثقة:

- لا تقلق.. كل شيء كما خططت.. والشباب جميعهم في الانتظار.

واقتربا من بيت قديم على أطراف المدينة.. ونزلا إلى بدروم البيت، ونقر غسان الباب بطريقة معينة حتى انفتح.. وكان يوجد أربعة شباب ملثمون بالشال الفلسطيني وسط مجموعة من الصناديق الخشبية.. ما أن رأوا مصطفى حتى قاموا واحتضنوه بقوة.. فقال أحدهم:

- حمد الله على السلامة يا زعيم.

فرد مصطفى بحماس:

– لقد اشتقت إلى هذا المكان.. ما زلت أشم رائحة البارود فيه وكأنني تركته أمس.

فرد غسان:

– كل شيء جاهز كما أخبرتنا آخر مرة.
– كان لا بد أن نوقف نشاطنا طيلة الفترة السابقة، وأن أبقى في القدس خلال الدراسة حتى لا يربط أحد بيني وبين العمليات.
– وها قد عدنا من جديد.
– وما أخبار السلاح؟
– ها هو موجود بالكميات التي طلبتها.. بعد أن ساعدنا إخواننا في الأردن في تهريبه عبر الأنفاق إلى هنا.

فالتفت مصطفى بلهفة نحو صناديق الأسلحة قائلاً:

– وأين "قسّام"؟

فنظر إليه أحد الرجال مبتسماً ورد:

– إنه في انتظارك.

فدخل اثنان من الرجال يحملان صاروخ "قسام".. الذي سمي على اسم الشهيد عز الدين القسام بطل المقاومة الفلسطينية، والذي استشهد على يد قوات الاحتلال البريطانية عام ١٩٣٥.. ووضعاه على المنضدة.. فوضع يده عليه وكأنه يحتضنه، وأخذ ينظر إليه بعينين متشوقتين، وقال:

– هذه المرة لن تكون العملية سهلة.. يجب أن تكون موجعة حتى لا تنسيهم ما فعلناه آخر مرة.

فرد غسان:

– بعد أن فقدوا أربعة ضباط كبار في دورية عسكرية كبيرة.. انكسرت شوكتهم بشدة في الخليل وأصابهم الذعر والجنون.. لقد كانت ضربة في الصميم.

فرد مصطفى بصوت متحشرج:

– هذه المرة يجب أن يتألموا أكثر وأكثر.. يجب أن أجعل قلوبهم تحترق بالنار التي حرقوا بها قلوبنا قبل أجسادنا.. هذه المرة سآخذ بثأر أم محمود التي راحت حياتها هدرًا بسبب غطرستهم وجنونهم.. دم تلك المرأة لن يذهب سدى أبدًا.. أبدًا.

وأخذ يمسح الدموع التي سالت من عينيه.. فربت غسان على كتفه وقال:

– إنه ليس ثأرك وحدك.. إنه ثأرنا كلنا وكل الفلسطينيين.. وكلنا سوف سنأخذه معك.

فرد مصطفى بقوة:

– هذه المرة ستكون العملية في المعبر الرئيسي عند مدخل المدينة.. وقت تغيير الوردية ستكون مليئة بالضباط والجنود.. يجب أن نحصد أكبر عدد من الضباط الكبار.

فصاح الجميع بحماس شديد:

– الله أكبر.. الله أكبر.

وأحضر غسان مصحفًا ووضعه على مائدة.. فوضع الجميع أيديهم عليه.. وقال مصطفى:

– لنتعاهد الله على استمرار الكفاح.. إما النصر وإما الشهادة.

***

كان يومًا مشمسًا على غير عادة شتاء الخليل.. فخرج كل من مصطفى والدكتور ماكلين يطوفان في شوارع المدينة وحواريها، وكان مصطفى يقوم بدور المرشد.. فأخذه نحو سوق "خان شاهين". تلك السوق القديمة المليئة بالمارة. بينما كان الدكتور ماكلين يشاهد بدقة مباني الخان العتيقة ومنتجاته التراثية، ما بين جلود وأقمشة وخزف، وأخذ يراقب حركات البائعين وأصواتهم وهم يتغنون ببضائعهم.. ولكنه لاحظ مسحة حزن على وجوه البائعين وأصحاب المحال. فكان أغلبها مغلقًا بأمر القانون الإسرائيلي، حيث إن الشارع الرئيسي للمدينة المؤدي إلى الأسواق مغلق أمام حركة السيارات. بعدما احتلت إسرائيل المدينة في عام ١٩٦٧ وجعلته خاصًا لأهالي المستوطنات، التي أحاطت بالمدينة كالمخالب، وأكبرها مستوطنة كريات أربع عند مدخل الخليل، التي انتشر سكانها في المدينة بالسرطان وأصبحوا ينتفعون بها أكثر من أهلها.. فطوال الطريق وهو يرى استفزاز قوات الأمن للبائعين وأهالي

الخليل، بينما يسير سكان المستوطنة بحرية مطلقة رافعين أعلام إسرائيل ويرتدون تي شيرتات عليها كلمات بذيئة ضد العرب، مثل "اللعنة على العرب" و"العرب خنازير".. حتى وجد صبية إسرائيليين يرتدون الطاقية اليهودية وتي شيرتات عليها علم إسرائيل، يجرون خلف سيدة مسنّة فلسطينية تحمل أكياسًا لمستلزماتها المنزلية، ويقذفونها بالأحجار ويمطرونها بالسباب بالعربية والعبرية.. فقام أحد الرجال من مكانه على القهوة ليدافع عن السيدة، فانطلق خلفه رجال قوات الأمن يضربونه بمؤخرة بنادقهم ويطرحونه أرضًا حتى نزف من رأسه بشدة.. والكل يشاهد ويصمت.

وأثناء مرورهما وجدا مجموعة من الصبية يبيعون الشال الفلسطيني على الطرقات ويلوحون به وكأنه علم.. فنظر إليهم بإعجاب شديد ولم يترك كاميرته لحظة عن التقاط كل ما يراه.. فأقبل مصطفى على واحد منهم واشترى منه شالاً فلسطينيًا وأعطاه للدكتور ماكلين قائلاً:

– هذه هدية من الخليل.. كي تذكرك بنا.

فأمسكه بتلهف ووضعه على كتفه سعيدًا، وكأنه واحد من أهل البلد الذين يسيرون في الطرقات.. وما أن مر الوقت حتى ارتفع صوت أذان العصر.. فتحرك كل منهما إلى المسجد الإبراهيمي ذي الأسوار الحجرية العالية والمداميك السميكة.. ذلك المسجد العتيق الذي يشعّ من أروقته نورًا روحانيًا، ويفوح هواه أشبه برائحة مسك قادم من الجنة.. ويضيء المسجد أنوار ربانية قادمة من خلال شبابيك زجاجية مزخرفة تعكس الضوء على أرضيته الرخامية.. ويضم بين جنباته أضرحة أنبياء

الله المكرمين، يعلوها قباب ضخمة.. فترى ضريحًا ضخمًا للنبي إسحق وبجواره قبر زوجته رفقة، ومنه إلى الحضرة الإبراهيمية، تلك الحجرة الضخمة ذات الجدران والأعمدة الرخامية المطعمة بالصدف، بينما زيّنت الجدران بآيات من القرآن الكريم، وبها ضريح خليل الله وأبي الأنبياء إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وبجانبه قبر زوجته سارة أم إسحق، والمزينة جدرانه بآيات الله (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

ومن خلال شباك نحاسي في الحضرة الشريفة يطل على قبر النبي يوسف عليه السلام والمبني من الحجر، ترى ساحة المسجد الفسيحة التي يغطيها الحمام يرفرف بجناحيه، وكأنه يشعر براحة في هذا المكان النوراني، وفي نهايته ضريح النبي يعقوب الرخامي، وبجواره ضريح زوجته لائقة.

إلا أن هذا الجلال والبهاء تطاولت عليه يد الإسرائيليين بعد عام ١٩٦٧.. فسيطرت الحكومة الإسرائيلية على المسجد ونسفت الدرَج المؤدي إلى المسجد.. وضيقوا الخناق على المصلين المسلمين فزرعوا بوابات إلكترونية عند مداخل المسجد وكاميرات مراقبة، وطوقوا المنطقة المحيطة به بدوريات وحواجز أمنية.. وأصبح دخول المسلمين إليه أشبه بمعجزة أو عملية فدائية.. وبعد أن اجتاز مصطفى مراحل التفتيش الثالثة متحملاً سخافات جنود الاحتلال الذين لم يرحموا شيخًا أو صغيرًا.. حيث دخل في طابور عبر بوابة حديدية، تم تفتيشه ذاتيًا ثم مر بنقطة أخرى بها أربع بوابات إلكترونية، ومنها إلى نقطة ثالثة، ثم نقطة رابعة من خلال بوابتين أخريين.. نجح في الدخول إلى الجانب المخصص لصلاة المسلمين والذي يغلق تمامًا مع قدوم أعياد

اليهود.. ووقف مع المصلين الذين كانوا يملؤون المسجد عن آخره، بينما كان صوت الإمام جهوراً، يصل بقوته إلى خارج المسجد ويرج جدرانه كالزئير، وهو يكبر مع كل ركعة "الله أكبر.. الله أكبر" ومع كل سجدة له كانت تسيل الدموع من عيني مصطفى وهو يدعو الله أن يوفّقه في العملية الجديدة، بينما كان قلبه ينفطر من الحماس.. وما أن انتهت الصلاة حتى خرج من المسجد، فوجد الدكتور ماكلين واقفاً ينظر إلى المسجد بانبهار شديد بعدما انتظره في استراحة أقامتها بلدية الخليل الإسرائيلية، لتسد الرؤية عن المسجد وتجذب السائحين إليه.. وأخذ ينظر إليه وسط جموع المصلين وقال له:

– منظر المصلين وهم يخرجون من المسجد أفواجاً مهيب.. يهتز له القلب بشدة.. تجمعكم بهذا العدد وقت الصلاة، لم أر مثيله بأي مكان رغم عمليات التفتيش.. ولا حتى عندنا.

فابتسم مصطفى وصمت قليلاً ثم أشار إلى المسجد وقال:

– هذا المسجد ليس مجرد مكان للصلاة.. إنه شاهد لتاريخ الخليل ورمز لكرامتها.

ثم صمت قليلاً وأشار بإصبعه إلى داخل المسجد وأكمل قائلاً:

– هنا.. وبهذا المسجد حدث أبشع ما سجل تاريخ البشرية.. وبالأخص في فجر يوم ٢٥ من فبراير عام ١٩٩٤.. عندما جاء العديد من المصلين يجتمعون هنا لأداء صلاة فجر منتصف رمضان وسط هدوء شديد وخشوع تام وهم يسلمون وجوههم إلى الله.. وفجأة دخل أحد المستوطنين يُدعى "باروخ جولدشتاين"

المسجد ممسكًا برشاش، وأخذ يطلق الطلقات بوحشية على المصلين، حتى سقطوا شهداء وسالت دماؤهم الطاهرة على أرضية المسجد.. ولم يصل الموقف إلى هذا الحد فحسب.. بل تدخل الجيش الإسرائيلي وفتح النار على كل من حاول الخروج من المسجد، مما زاد من عدد الشهداء والأبرياء.. وبعد تلك المذبحة عاقبت الحكومة الإسرائيلية الضحية لصالح الجلاد.. وقسمت المسجد إلى قسمين، أحدهما لليهود وحوّلوه إلى هيكل به أضرحة الأنبياء، ووضعوا به صناديق تضم لفائف توراتهم، والآخر بمساحة أصغر تركوه لنا.

وأخذت عيناه تسيل وصوته يتحشرج.. بينما كان الدكتور ماكلين يستمع له وهو في قمة الذهول وصمت من هول الصدمة.. فأمسك بمصطفى واحتضنه وقال بصوت مخنوق:

– لم أكن أتصور أن يصل العداء إلى هذا الحد من الوحشية.. ترويع المصلين في دور عباداتهم.. هذا شيء رهيب ومقزز.. لا يطيقه أي إنسان سويّ.

فمسح مصطفى دموعه ورد قائلاً:

– الآن عرفت لماذا نكرههم إلى هذا الحد ونقف في وجههم ونهاجمهم باستمرار! هؤلاء الناس قدموا من الشتات ليحتلوا أرضنا بغير حق ويخرجوننا منها بمنتهى الوحشية والدموية.. ثم تأتون لتلقوا اللوم علينا عندما ندافع عن أرضنا.

ولم ينه مصطفى كلماته حتى خرجت من المسجد جنازة أحد شهداء المظاهرات.. ولم يمض الوقت حتى تحولت الجنازة إلى مظاهرة كبيرة، وأخذ المتظاهرون شبابًا وشيوخًا وأطفالاً يرددون

كلمات العداء لإسرائيل، ويهتفون باسم فلسطين وهم يطوفون بجثمان الشهيد.. حتى وصلت دوريتان إسرائيليتان نحوهم ونزل منها الجنود مدججين بالسلاح وأخذوا يطلقون النار عشوائياً على المتظاهرين الذين كانوا يلقون الحجارة عليهم.. فسقط العشرات منهم على الأرض دون أن يفرقوا بين أطفال أو شيوخ.. فأخذ مصطفى يشد الدكتور ماكلين ليهربوا من وسط تلك الاشتباكات، حتى رآهما اثنين من الجنود وأخذا يركضان خلفهما.. حتى اختبئا في حارة ضيقة دون أن يراهما الجنديان.. ثم صعدا إلى سطح أحد البيوت ليراقبا ما يحدث.. وأخذ الدكتور ماكلين يحملق فيما يحدث حوله دون أن يصدّق عينيه.. فرأى مجموعة من الجنود تركض خلف أحد الشباب حتى أسقطوه وأخذوا يضربونه بوحشية بمؤخرة بنادقهم ويوخزونه بالسكاكين، حتى كادوا يقطعون أوصاله هو يصرخ من أعماقه، حتى أغشي عليه من شدة الألم.. فحمله أربعة جنود من كلتي يديه وقدميه كالذبيحة، وألقوه داخل سيارة الدورية ودماؤه تسيل منه وتملأ الشارع.. فأخذ الدكتور ماكلين يصور كل ما حدث بالكاميرة بدقة شديدة، بينما كانت عيناه يسيل منها الدمع دون أن يشعر، وأخذت أنامله تقشعر من هول ما رأى.

لم يكن في مقدوره أن يتصور مدى الدم والوحشية التي رآهما بعينيه دون أن تكذبا.. فما وجده الدكتور ماكلين لم يكن ليراه أبداً على شاشة أي قناة، سواء **CNN** أو **FOX NEWS** أو حتى على الجزيرة.. كل شيء بلا تزييف أو كذب.. الدم والطغيان واضحان على الملأ وضوح الشمس والضحية أصبحت تحت الأقدام والجاني هو صاحب الصوت العالي.

جلس الدكتور ماكلين في شرفة حجرته ببيت القوادري وهو يسترجع كل ما صوّره بالكاميرة والدموع محبوسة في عينيه.. وملامح الأسى الممزوجة بالغضب تكسو وجهه لما اكتشفه من خديعة طوال سنوات وسنوات.. وكأنه كان أعمى العينين والقلب ومكبل اليدين واللسان.. وسنوات عمره انسابت بين يديه في أكاذيب محبوكة لم تخدعه وحده.. بل خدعت العالم كله.. فكل ما كان يراه هو الوجه الآخر من الحقيقة، أو النصف الثاني من العدوان.

دخل عليه الحاج إبراهيم وسط شروده العميق، وحالة الصدمة التي زلزلت كيانه وبعثرت كل تفكيره في الفضاء.. ولم يفق الدكتور ماكلين إلا على يد الحاج إبراهيم وهو يربت على كتفه قائلاً:

– أعرف أنك رأيت ما لم تتوقعه اليوم.. ولكننا نعيش تلك المأساة كل يوم، والأصعب أنه لا أحد يشعر بنا، بل يتهموننا نحن بالإرهاب.

فرد الدكتور ماكلين بصوت مبحوح:

– هذه وحشية لم أر مثلها.. ماذا فعل هؤلاء كي يسحلون ويضربون في الشوارع ودماؤهما تسيل دون رحمة؟!

– في كل بيت من بيوت الخليل وفلسطين كلها حكاية مقاومة تستحق أن تسجلها بالكاميرة الخاصة بك.. نحن نقدّم كل يوم شهيداً جديداً، سواء كان كهلاً أو شابًا أو حتى طفل.

ثم أشار بيده إلى منطقة بعيدة عند سفح الجبل، وقال بملامح تملؤها الحسرة:

– هذه المزرعة عند السفح كانت أرضنا أبا عن جد.. كنا نزرع فيها الزيتون الأخضر اليانع والمشمش البرتقالي كأنه حبات شمس تتلألأ على الأرض.. حتى ابتلعها الاحتلال الإسرائيلي وجرف أشجارها لبناء مستوطنة عليها، ونسج عليها سياجه الحديدية.

فنظر إليها الدكتور ماكلين بعد أن أصبحت غابة من الأعمدة الخرسانية القبيحة، قضت على أي ملامح للطبيعة الهادئة بها.. ثم اتكأ الحاج إبراهيم على عصاه وأكمل قائلاً:

– أريدك أن تخبرهم في بلادك بأن العرب لا يحاربون إلا من حاربهم وأخرجهم من ديارهم.

ما أن أكمل الحاج إبراهيم كلامه حتى سمع نقراً على الباب.. كان مصطفى ينتظر والده ليخبره بضرورة قيامهما بواجب عزاء.. إنه عزاء الشهيد يونس الصوالحة من سكان الخليل، والذي استشهد في مناوشة مع جنود الاحتلال في الصباح.. فسأله الدكتور ماكلين على استحياء:

– هل هو جار لكم أو أحد أقربائكم؟
– نحن هنا كلنا أهل وأقارب.. حتى لو لم تربطنا علاقة دم أو صهر.. فكل البيوت همها واحد ومصيرها واحد.

فصمت الدكتور ماكلين وتردد في السؤال الذي ظهر جلياً في عينيه ثم قال:

– هل يمكن أن آتي معكما؟
– بالطبع.. إنه ليس ببعيد عن هنا.

سار كل من الحاج إبراهيم ومصطفى ومعهما الدكتور ماكلين عبر منازل وادي الجوز القديمة.. فلاحظ عليها رسومات وشعارات تمثل قبة الصخرة، ومعها يدان تمسكان بالسلاح، بجوارها عبارات مكتوبة بالأسود والأحمر العريض، تتضمن أسماء متعددة.. فقال له مصطفى:

– هذه شعارات فصائل المقاومة الفلسطينية، وهذه أسماء الشهداء الذين قدمهم آل هذا البيت فداء للوطن.

حتى وصلوا إلى بيت آل الصوالحة.. فوجدوا على جدران المنزل أسماء عدة شهداء، وبجوارهم صورهم يعلوها أكاليل الزهور، وفي المنتصف صورة الشهيد الجديد عريس الليلة، ومكتوب بجواره "يزف آل الصوالحة بمزيد من الاعتزاز والفخر ابنها الشهيد يونس". فدخلوا عبر فناء المنزل إلى قاعة كبيرة توافد فيها المعزِّين لآل الصوالحة مبتسمين وسعداء.. فلا أحد يبكي الشهيد، بل الكل يهنئ العائلة وكأنه فرح يصعد فيه العريس إلى السماء.. فرفع الدكتور ماكلين عينه قليلاً، فوجد النساء واقفات في الشرفات لا تصرخن أو تلطمن.. بل تطلقن الزغاريد والأهازيج الحماسية.. كان الحاج "معين الصوالحة" يقف في مدخل القاعة يستقبل الزوار بوجه بشوش يكتسيه الفخر والإعزاز.. ورغم التجاعيد العميقة المحفورة في ثنيات وجهه لكن خبر استشهاد أكبر أبنائه جعل تلك التجاعيد تذوب في إشراقة الفرح التي تشع من وجهه، وهو يرحب بالحاضرين وكأنهم يحسدونه على شهادة ولده، وليس ليرثون حاله.

وما أن جلسوا حتى طاف عليهم صبية صغار يرتدون ملابس

جديدة عليها أوشحة خضراء، تضم شعارات حماسية. يوزعون على الحاضرين التمور وكؤوس الشربات والابتسامة تملأ وجوههم.. وما أن انتشى الشيخ من تلاوة جزء من القرآن الكريم.. حتى انطلقت مكبرات الصوت في المنزل بإذاعة أغانٍ حماسية ترج أركان المنزل والحي بأكمله، بينما أخذ الحاضرين يرددونها بأصوات عالية:

"يا صهيوني اسمع اسمع.. شعب الشهداء لا ما بيركع

لا لا للاستسلام.. وعيون تسهر ما تنام.. أقصانا حتماً راح يرجع

اهدم علينا الحارات.. اقصف بالطيارات.. من وسط الركام بنطلع.. أبطال بنواجه مدفع

اسمع ياعدو الدار.. ها الأرض أرض أحرار.. أقسمنا أطفال صغار.. لنخلي الغاصب يركع".

لم يصدق الدكتور ماكلين بأنه في عزاء شهيد.. بل شعر لوهلة أنه في مظاهرة حماسية تلهب الأحاسيس، يخرج منها بركان الغضب ليحرق مغتصبي الأرض.. ليلة عرس مثل كل ليلة من ليالي الخليل، يزف فيها شهداؤها الأبطال على الجنة.. فالكل يزاحم في حمل نعش الشهيد أثناء تشييع جثمانه الطاهر، ويتسابقون على ملامسة جزء من جسده وتقبيل وجهه، وكأنه يدعوهم للحاق به إلى الجنة.

***

دخل عساف الملهى وهو يحمل حقيبة سوداء يحاول أن يخفيها عن أعين الموجودين به.. رغم أن كلهم كانوا إما سكارى وإما مدمنين ولا يعيرون له أي انتباه.. فما أن رآه نعوم حتى أقبل عليه وهو يترنح وأمسك بالحقيبة بقوة قائلاً:

– كنت أعلم أنك ستأتي بالبضاعة.. فإنك لن تضيع فرصة كهذه.

فنظر إليه عساف وهو يسحب الحقيبة من بين يديه بقوة قائلاً:

– أيها الأحمق! اتركني.. إنه المال الذي أخذته من عزرا نظير توزيع البضاعة.

فحملق نعوم في الحقيبة بعينيه الحمراوين وضحك ضحكته البلهاء قائلاً:

– إذن لنشتر بها بضاعة لنا.

فأزاحه عساف بيده وقال بصوت غليظ:

– يبدو أن الهيروين قد مسح مخك نهائيًا.. هناك أشياء أهم سنفعلها بالمال.

فنظر إليه نعوم وضحك مرة أخرى قائلاً:

– على العموم العصفورة في انتظارك.. إنها هنا منذ فترة.

فانتبه عساف إليه وارتسمت ملامح النشوة على وجهه.. واقترب

من فتاة تجلس على طاولة في آخر بالحانة، ووضع يده على كتفها، فرفعت رأسها.. كانت مريم جالسة في ركن مظلم تتعاطى الهيروين بالحانة.. ظهر وجهها أصفر شاحبًا وشعرها أشعث متطايرًا وعيناها غائرتين حمراوين تلتف حولهما هالات سوداء. أخذت تفرش البودرة على الطاولة وتلقي بأنفها عليها لتستنشق حبيبات الهيروين حتى تغيب عن الوعي، ثم تستيقظ مرة أخرى لتتعاطى جرعة ثانية.. وما أن تفيق قليلاً حتى تهذي بالكلام.. فجلس كل من عساف ونعوم بجوارها.. فرفعت رأسها قليلاً ونظرت إليهما بلا مبالاة وقالت بصوت ضعيف:

– من أنتما؟ إنني أعرفك، أنت نعوم.. لكنني لا أعرف ذلك الرجل السخيف.

فرد عساف بهدوء:

– ألا تعرفينني؟ أنا عساف! الذي أحضر لك الهيروين منذ أسبوعين.

فرد عليه نعوم ساخرًا:

– كيف لا تعرفينه يا مريم.. كلنا هنا أتباعه.. فهو الذي يحضر لنا المزاج.

فمسحت البودرة اللاصقة على أنفها ونظرت إليه وقالت:

– بلى.. بلى.. هل أحضرت معك البودرة؟

فابتسم عساف ابتسامة صفراء وقال:

– بالطبع معي، إنني لا أستطيع أن أتأخر عليك أبداً.

فرد نعوم:

– أرأيتِ كم نحن نحبك؟! فلماذا كنتِ تتركيننا وتذهبين مع ذلك العربي؟!

فانتفضت مريم من مكانها وارتسمت على وجهها علامات الوجوم.. وكأن كلمة العربي قد بدأت في إعادتها للوعي وأوقفت تأثير المخدر عليها.. فقام عساف من مكانه وركل نعوم في ظهره وقال بصوت خافت:

– لماذا تذكّرها يا غبي؟ إنما تريد أن تنسى.

أخذت تنظر إليهما بعينين ضيقتين، وترمق ما حولها بنظرات شاردة، ثم أخذت تهذي قائلة:

– لم أكن أعرف أني رخيصة لهذه الدرجة.. فقد فعلت كل شيء كي أحتفظ به لنفسي.. لكنه لم يحبني كما أردت.. فقد أحب أهله أكثر مني.. رغم أنهم لن يعطوه ما كنت سأعطيه له.. كنت على استعداد لأفعل كل شيء من أجله.. وبعد كل ذلك يذهب ويتركني وحدي.. لم يبق لي شيء الآن سوى تلك البودرة اللعينة.

وأجهشت في البكاء بطريقة هستيرية وهي تضرب بيديها على الطاولة.. فنظر إليها عساف نظرات نارية وكأن الشرر سيخرج من مقلتيه ليحرقها، واقترب من أذنيها بشفتيه قائلاً:

– أرأيتِ أن العرب خائنون ومجرمون؟! نحن الذين نخاف عليك.. ابقي معنا كي تكسبين.

فنظرت إليه شاردة وقالت وهي تترنح:

– إذن أين البودرة التي وعدتني بها؟

فأخرج من جيبه كيساً صغيراً، بينما كانت نظراتها تتسابق إليه وهي تلهث لالتهامه.. ففتحه وأنزل بعضاً منه على الطاولة.. فانكبت عليه بأنفها دون أن تدري. وأخذ يتدرج بالبودرة حتى أسقطها على طرف حذائه.. فسقطت وراءها وأخذت تلعقه بلسانها وتضع أنفها على طرف الحذاء كي تلحق ما بقي من المخدر.. فنظر إليها والحقد يكتسي وجهه، وقال بصوت يعتليه التشفي:

– انظري! لقد جعلتك تركعين لي بعد سنوات من التكبر والغرور.. جعلت أنفك عند أطراف حذائي كما أردت.. ليت أبوك يعقوب يأتي الآن كي يرى ما كان يفخر به، أصبح الآن في الوحل.

***

بينما كان ديفيد جالساً في حجرته ينظّف مسدسه، وحوله أوراق خاصة بخطط ضرب تجمعات فلسطينية، سمع صوت طرق عنيف على الباب، فانتفض مسرعاً ينظر من العين السحرية في الباب.. فوجد دان أمامه وقد اصفر وجهه وذابت ملامحه من الخوف.. ففتح له مسرعاً وقال له بصوت أجش:

– ماذا حدث؟

فرد دان وهو يرتعد:

– كارثة ديفيد.. الشرطة داهمت بيت الرابّاي شمعون وقبضت على مجموعة من أعضاء الحركة، وسوف تأتي إليك بين لحظة وأخرى.

فاتسعت عينا ديفيد ورد بقوة:

– ماذا؟
– يجب أن ترحل فوراً؛ هناك من يتتبعنا منذ حادثة دانيال.

لم يكمل دان كلماته حتى سمع أصوات خطوات متتابعة تصعد نحو الشقة، وبدأ طرق عنيف على الباب يكاد أن يخلعه من مكانه.. فوضع ديفيد المسدس في جانبه ولملم أوراقه بسرعة، وقفز هو ودان عبر النافذة إلى سطح عمارة مجاورة، ومنه إلى سلالم حديدية خارجية، في حين اقتحمت قوة خاصة من الشرطة الشقة وقفزوا خلفه.. فهرع ديفيد ودان عبر السلالم وسط دهشة الجيران، حتى وصلا إلى شارع خلفي بجوار صندوق كبير للقمامة، حاولا الاختباء خلفه فوجدا صوتاً قوياً يخرج من خلف الصندوق:

– ارفعا أيديكما؛ أنتما محاصران.

خرج لهما شرطي كان يختبئ لهما، حاول مطاردتهما، فأخرج ديفيد مسدسه وأطلق النار على رأسه فقتله فوراً.. فنظر إليه دان والدم يغطي وجهه، فارتعدت أساريره وتجمد الدم في عروقه ووقف مكانه كالتمثال قائلاً:

– ماذا فعلت؟ لقد قتلت شرطيًا.. إننا هالكان لا محالة.

فجذبه ديفيد بقوة:

– وماذا تنتظر؟ حتى يقبضوا علينا!

وفجأة ظهرت لهما سيارة سوداء كالتي دائمًا ما يركبونها، يقودها عومير.. فقفزا فيها على الفور، وانطلقت بسرعة البرق، فطاردتها سيارة شرطة، فدخلت عبر شوارع داخلية بسرعة جنونية، حتى اختفت بعيداً عن أعين الشرطة.. بينما كانت عينا ديفيد ودان متعلقة بمنظر الشرطي القتيل، بعدما أصبحا أمام الدولة قاتلين وليسا بطلين.. ولم يدرك ديفيد أنه قد اقترف كارثة أخطر بمراحل من قتل الشرطي..

ضياع نسخة البرتوكولات.

***

في الساعة الثالثة إلا خمس دقائق فجرًا ووسط الظلمة الحالكة وهدوء مدينة الخليل القاتل.. كان المعبر الرئيسي بمدخل المدينة في حالة تيقظ.. وأخذ عشرات من الجنود الإسرائيليين ينقلون صناديق السلاح الخاصة ويتبدلون استعداداً لتغيير الوردية.. تسلل كل من مصطفى وغسان عبر التلال المحيطة بالمعبر، وهما ملثّمان يحملان سلاحهما، وأخذا يراقبان حركة الجنود، ثم قاما بنصب الصاروخ "قسام" على قاعدته باتجاه المعبر، وخبآه بين الأشجار، ثم أخذا ينظمان الأسلاك الخاصة به

استعداداً لإطلاقه.. حتى أتى أربعة من الشباب الملثمين خلفهما، والتفوا جميعهم حول مصطفى.. فنظر إليهم بعينيه اللتين لا يظهر سواهما من وجهه الملثم، وأخذ بريقهما يلمع في وسط الظلام.. وقال بصوت خافت:

– لم يبق سوى دقائق على تنفيذ العملية.. سنوجّه الصاروخ في تمام الثالثة مع تجمع كل من جنود الورديتين لننسف المعبر بكل من فيه.. حينها سيصبح المعبر جحيماً.. ثم نحيط المعبر عبر التلال لنقتل أي جندي يحاول الفرار من الموقع.. يجب أن نقضي عليهم جميعاً ولا ندع أحد من هؤلاء السفلة يعيش.. تذكروا أن يد الله مع المؤمنين.. والنصر قادم بإذن الله.

ثم التفوا جميعاً يقرؤون سورة الفاتحة ثم انتشروا عبر التلال.. بينما أخذ مصطفى يجهّز الصاروخ للانطلاق.. حينها أتت سيارتا نقل جنود كبيرتان، ونزلت مجموعة من الجنود حاملين أسلحتهم وأخذوا ينقلون معداتهم، بينما استعدت مجموعة أخرى للرحيل ووقف قائد المجموعة يشرف عليها.. حينها نظر إليهم مصطفى والنار تشتعل داخل عينيه ويديه تتسارع إلى الأسلاك، ثم قال في سره "بسم الله.. توكلت على الله".. فانطلق الصاروخ نحو المعبر فانفجر كل ما فيه وأصبح قطعة من الجمر، وتطايرت أجساد الجنود وانتشرت أشلاؤها في كل مكان، وتناثرت خوذهم حول المكان وتطاير علم إسرائيل من فوق المعبر واحترق بالنار، واشتعلت النيران في السيارات وطالت الأسلحة والذخائر، مما زاد من الانفجار، حتى وصلت ألسنة اللهب إلى عنان السماء، وأضاءت ليل الخليل نهاراً، وهز دوي الانفجار أرجاء المدينة فأيقظها من نومها.. فوقف مصطفى وغسان من مكانهما وأخذا يصرخان

بصوت عالٍ "الله أكبر.. الله أكبر". وأخذت الدموع تنهمر من عيني مصطفى وسجد لله شكراً.. بينما أخذ يلوح غسان بشاله عالياً واحتضنه قائلاً:

– نجحنا يا بطل.. أخذنا بالثأر.

ثم انطلق الشباب جميعاً ونزلوا من التل نحو موقع الانفجار.. وأخذوا يركضون عبر النيران يتصيدون الجنود الهاربين من الموقع، ويطلقون عليهم النار برشاشاتهم، فتساقط الجنود دون مقاومة.. حتى قدمت سيارة دورية إسرائيلية ونزل منها مجموعة من الجنود يحاولون إنقاذ المعبر واللحاق بمنفّذي الانفجار.. فهرب الشباب من الموقع وركضوا نحو التلال.. بينما استمر مصطفى يختبئ وسط أنقاض المعبر كي يقاتل المزيد من الجنود.. فأتى نحوه غسان وجذبه من يده قائلاً:

– لا بد أن ننسحب الآن.. لقد أتى العديد من الدوريات إلى المكان وبدأت ذخيرتنا في النفاد.

فأصابته حالة هستيرية وخرج عن شعوره ورفع سلاحه عالياً ويصرخ:

– يجب أن أقضي عليهم كلهم.. كلهم

فأمسك به وقال بقوة:

– لم يعد هناك وقت إنهم يحومون حولنا.

وسحبه بالقوة حتى ابتعدا عن المكان.. فلمحهما أحد الجنود وصوب بندقيته نحو مصطفى، فأصابه في ساقه فسقط على الأرض وأخذت ساقه تنزف بغزارة.. فحمله غسان وأخرج قنبلة يدوية قذفها في اتجاه الجندي، فانفجرت فيه ثم هربا عبر التلال.

وبدأت الدوريات الإسرائيلية تتوافد على الموقع، وأخذت المروحيات تطوف عبر التلال، وانتشر الجنود الإسرائيليون داخل المدينة بحركة جنونية بحثًا عن مرتكبي العملية.. ونزلوا بأسلحتهم إلى الشوارع وأغلقوها تمامًا، وأخذوا يداهمون المنازل بوحشية، يفتشونها ويُخرجون أهلها قرب الفجر، ويسوقون أمامهم أكبر عدد من الأهالي للتحقيق.. بينما ركض غسان وهو يحمل مصطفى وهو ينزف، حتى وصلا إلى منزل أخته أمينة.. فما أن رأتهما بتلك الهيئة حتى أدخلتهما بسرعة، وهي تحملق في وجهيهما بعينين فخورتين ونبرة صوت مرتعشة وهي تتساءل:

– ماذا حدث؟ أأنتما وراء تلك التفجيرات؟

فرد غسان مضطربًا:

– نعم نحن.. أرجوك احمينا.. واعتني بمصطفى.. إنهم يبحثون عنا بالخارج.

فردت بقوة:

– لا تقلقا.. ادخلا في تلك الحجرة.. إنني لا أريد نزار أن يراكما وأنتما في تلك الحالة.

ولم تكمل كلمتها حتى دخل عليهم نزار، فرآهما في تلك الحالة الرثة، بينما كان دم مصطفى يسيل على أرضية المنزل.. فلمعت عيناه واشتعل الشر داخله.. فأخذ يهلل بصوت عال:

– أهلاً بالأبطال.. إنني لا أصدق أنكما قمتما بتلك العملية.. أنتما لا تتخيلان كم أنا فخور بكما!

فنظر إليه غسان نظرة عميقة دون أن ينطق.. فأكملت أمينة قائلة:

– اخفض صوتك ودعك من هذا الكلام.. وساعدنا كي نعالجه.

فحملوا مصطفى وهم يضمدون له جرحه.. فاستغل نزار انشغالهم بغسان ودخل غرفته خلسة وأغلق الباب خلفه وأخرج جهازًا لاسلكيًا وأخذ يتحدث فيه بصوت خافت.. ثم خرج وجلس معهم..أخذت أمينة تضمد ساق أخيها وهو يحاول التماسك، بينما كانت عيناه تذرفان الدمع من شدة الألم.. فأمسكت بيده وقبضت عليها بينما نظر إليه غسان وقال:

– تماسك يا بطل.. انهض كي ترى ما فعلناه فيهم.

وفجأة أخذ الباب يدق بعنف وصاح مجموعة من الضباط الإسرائيليين "افتحوا.. افتحوا" وهم يضربون الباب بمؤخرة بنادقهم حتى كادوا أن يخلعوه.. فانتفض الجميع ذعرًا فأرشدتهما أمينة لأحدى الحجرات الخلفية كي يقفزا منها.. فانفتح الباب ودخل مجموعة من الجنود يفتشون المنزل بحثًا عنهما..

في حين حاول غسان النزول من النافذة وأمسك بيد مصطفى ليساعده على الفرار معه.. إلا أن مجموعة أخرى من الجنود المتربصين خلف المنزل أمسكوا بهما أسفل النافذة وجرّوهما إلى سيارة الدورية بعنف.. فصرخت أمينة وهي تحاول اللحاق بهما، حتى كاد أن يغمى عليها من شدة البكاء.. فأمسكها زوجها وهو يحاول أن يهدئ من روعها، وهو ينظر إليهم من النافذة ولمعان السعادة يتراقص داخل عينيه.

***

الشهيد

جلست جولدا على أريكة الصالة تقوم ببعض أعمال الخياطة.. بينما كانت تراقب ابنتها التي ظهرت عليها تغيرات غريبة دون أن تستطيع تفسيرها.. فرغم ما كانت مريم عليه من انطواء داخل المنزل.. فإنها أصبحت تجلس في غرفتها لفترات طويلة، يسمع خلالها صوت بكائها الغريب، بالإضافة إلى شحوب وجهها وجسدها الذي أصبح هزيلاً يوماً بعد يوم.. أصبحت مريم شديدة العصبية داخل المنزل وخارجه.. خرجت مريم من حجرتها بمنظرها الرث وشعرها المتطاير، تسير في المنزل مترنحة، حتى اصطدمت بـ"فازة"، فوقعت على الأرض وانكسرت.. فقامت جولدا من مكانها مذعورة وأخذت توبخها بصوت عالٍ:

– لقد تحملت ما أنت فيه بما يكفي.. إنك لا ترين ما أنت عليه الآن.

فانفعلت مريم قائلة:

- اتركيني وشأني.. لا أريد من أحد أن يهتم بي.
- أنا لن أتركك هكذا.. لقد أصبحت أشبه بالشبح.. ليت أباك يدري بما نحن فيه الآن.

فازداد انفعالها وأخذت تصرخ قائلة:

- لقد سئمت من معاملتكم لي.. ولم أعد أتحمل الحياة معكم.

وبدأت تشعر بصداع شديد في رأسها.. فشعرت خلاله أنها في حاجة إلى جرعة من المخدر.. فارتعشت شفتيها واهتزت أطرافها وسرت في جسدها قشعريرة تحولت إلى بدايات تشنج.. فأسرعت إلى حجرتها لتحضر بعض المال وتذهب خارج المنزل.. فأمسكت بها أمها وصرخت فيها:

- لن تنزلي إلى الخارج إلا بعد أن أعرف ماذا يصيبك.

فازداد تشنجها وحاولت التملص من يدي أمها وهي تصرخ:

- دعيني أخرج.. لم أعد أحتمل.

وما أن فتحت الباب حتى وجدت شخصاً يقف أمامها.. فاتسعت عيناها ولم تصدق ما ترى.. وجدت موشي وقد عاد من القاعدة الجوية في إجازة مرتدياً زيه العسكري الأزرق ويحمل حقيبته على ظهره.. فارتمت مريم في أحضانه ودموع الفرح تنزل من عينيها، بينما تصاعدت أنفاسها بشدة من المفاجأة وهدأ الصداع الذي كان برأسها، وكأن موشي قد خفف مفعول المخدر بها.. وأخذت أمه تقبّله وهي تصرخ من الفرحة "موشي عاد يا أوغاد"، جلس

موشي على الأريكة بعد أن ظهرت عليه علامات الإرهاق، وهو يحاول التقاط أنفاسه من طول الطريق.. وأخذ يحملق في أركان المنزل وقال:

– لقد اشتقت إلى كل شيء هنا.

فنظرت إليه مريم بعينيها المرهقتين وقالت:

– بل أنا الذي اشتقت إليك بجنون موشي.. أنت لا تعرف كيف كانت حياتنا بدونك.

ودخلت جولدا المطبخ وأحضرت بعض الحلوى اليهودية له قائلة:

– ولكن كيف خرجت من القاعدة؟
– لقد منحت إجازة طويلة وسأبقى معكم حتى تملون منى.

فأمسكت مريم بيده قائلة:

– نحن لن نمل منك أبداً.. ولكن أبق أنت معنا.

وما أن بدأ موشي في الكلام حتى وضعت جولدا طعام الغداء على الطاولة.. فقفز موشي عليها وخلفه إخوته.. فصرخت فيهم قائلة:

– هذا الأكل لأخيكم فقط.. فقد كان يعاني في الجيش وفي حربه ضد العرب.

وبينما جلس الجميع يأكلون كانت مريم تعبث في طبقها بعد أن زادت عليها علامات الإعياء.. فأخذ يرمقها موشي بعينيه، ثم تحول بنظره إلى أمه وسأل عن أبيه كي لا يلفت نظرها.. فردت بتأفف معتاد:

– كالعادة.. أبوك في مكتب السمسرة يقابل بعض العملاء.. حتى ولو كان هنا فلا فائدة منه.

وما أن انتهى الجميع من الطعام حتى دخلت مريم إلى حجرتها.. فدخل خلفها موشي فانتبهت له مبتسمة.. فوضع يده على كتفها قائلاً:

– أشعر أن هناك شيئًا ما يمر بك.

فارتبكت قليلاً وقالت:

– لا أبداً.
– إنني لم أتعوّد أن تكذبين عليّ من قبل.

فصمتت مريم وهي تزيغ بنظرها عنه.. فركز أنظاره داخل عينيها قائلاً:

– إنني لست أخاك فحسب.. بل أقرب إنسان لك في الحياة.. حتى ولو أخفيت الأمر على أمي فلن تخفيه عني.

فتنهدت تنهيدة طويلة تخرج من صدرها حارقة وأكملت قائلة:

– لم أعد أحتمل الحياة.. فكل ما حولي يخنقني.. أشعر وكأن النار تحيط بي من كل ناحية ولا أحد يأتيني لينقذني.. حتى أقرب الناس إليّ تخلوا عني.
– ولكن هذا هو وطننا ولا يمكن أن نتخلى عنه لأي سبب.

فانفعلت مريم بشدة وردت بصوت عال:

– أعطني سببًا يجعلني أستمر في الحياة هنا.. كل من حولنا يكرهنا.. الأشكيناز والعرب وغيرهم.. حتى جيراننا في المستوطنة يتمنون رحيلنا بأي شكل.

فحاول تهدئتها وأخذ يضمها إليه.. فانهمرت دموعها وقالت بصوت مخنوق:

– إنني لم أعد أشعر بالأمان هنا.. لقد جئت لي في الوقت المناسب موشي.. لولا أن أتيت الآن لما كنت أعرف كيف سأعيش.

فضمها موشي إلى صدره أكثر وقال لها:

– لا أريد أن أسمع منك هذا الكلام.. أنا سأظل معك دائمًا.

ثم أخذ يتحسس شعرها الأسود الحالك، حتى نزل بيده على خدها ليمسح دموعها، وأكمل قائلاً:

– والآن أريد أن أرى ابتسامتك الجميلة التي تعودت عليها.

دخل موشي غرفته وأشعل شموع الشمعدان اليهودي، ووقف بجوار النافذة مرتديًا شالاً أبيض ذا أهداب زرقاء يلفه على رأسه.

وهو يمسك بكتاب الصلوات، وأخذ يردد صلاة "معاريف" أي صلاة الليل.. حتى دخل أخوه الصغير وأخبره أن هناك جنوداً يقفون على الباب يريدون مقابلته.. فخلع موشي الشال ووضع كتاب الصلوات على المنضدة وخرج إليهم.. فوقف أمامه أحد الجنود قائلاً بصوت خافت:

– أعتذر كابتن عن وجودي في وقت غير مناسب.. ولكنك مطلوب فوراً بالقاعدة الجوية بغزّة.

فارتسمت ملامح القلق على وجهه وقال للجندي:

– غزة؟! أهناك شيء ما حدث؟
– لا نعلم سيدي ولكن الأمر عاجل.

فدخل موشي وارتدى ملابسه العسكرية، وأخذ ينظر إلى عائلته، وتسلل إليه شعور غريب بأنه ذاهب إلى هلاك.. فأخذ يحملق في أركان المنزل واحتضن أمه بقوة، فانهمرت الدموع من عينيّ أمه وهي تقول بصوت مخنوق:

– إنها ليست أول مرة يستدعونك فيها.. ولكن قلبي يخبرني بأن هناك شيئاً ما.

فابتسم موشي ومسح دموعها قائلاً:

– لا تقلقي يا أمي.. فقط صلّي من أجلي.

واستعد للخروج بينما وقفت مريم بعيداً تنظر إليه، والدموع

تشق طريقها على خديها وكأنها تتحدث.. فارتمت في أحضانه وهي تقول:

– ستعود لي يا أخي.. أليس كذلك؟ لقد أقسمت لي بهذا.

فنظر إليها وهو يحاول أن يتماسك قائلاً:

– بالطبع سأعود.

ثم أخذ حقيبته وركب مع الجنود السيارة العسكرية وانطلقوا عبر شوارع المستوطنة.. بينما خرجت مريم مسرعة وهي تودعه بطريقة هستيرية حتى غاب عنها.

وصلت السيارة إلى قاعدة "حيتسريم" الجوية، أكبر قاعدة جوية بالمنطقة الجنوبية لإسرائيل، والمحاطة بالأسوار، والمليئة بنقاط الحراسة عند ضواحي غزة.. فوجد موشي القاعدة في حالة استنفار قصوى وعدد كبير من طائرات الأباتشي يتم إعدادها بمنتهى السرعة.. ومع حلول منتصف الليل.. جلس موشي يراقب ما حوله، وعلامات الاستفهام تحيط برأسه دون أن يجد إجابة.. حتى وصلوا إلى مكتب القائد العام.. فدخل موشي المكتب، فوجد خمسة ضباط جالسين كل منهم تكتسيه ملامح الدهشة والقلق، فوجد موردخاي بينهم، فاقترب منه قائلاً:

– ماذا يحدث هنا؟ أنا لا أفهم شيئاً!

فرد عليه والحيرة تعتلي صوته:

- نحن هنا منذ ثلاث ساعات ولا أحد يخبرنا بأي شيء.
- يبدو أن الأمر هام فعلاً.
- ولكن ما هو الأمر؟ وما سبب كل هذه السرية والاحتياطات المريبة؟

لم ينه موردخاي كلامه حتى دخل الجنرال ليفي المكتب، وبصحبته الميجور آفيدان.. فوقف الجميع انتباهاً وحيّوه التحية العسكرية، وجلسوا على مائدة الاجتماعات. فأخذ الجنرال يحملق في وجوههم بنظرات نارية وقال بصوت متحمس:

- اليوم.. جاءت اللحظة التي كنا ننتظرها منذ سنين.. اللحظة التي سنحارب فيها من أجل إسرائيل ونتخلص فيها من أعدائها.. وها قد جمعتكم اليوم باعتباركم أفضل طياري سلاح الطيران الإسرائيلي، لتشهدوا تلك اللحظة التاريخية العظيمة، والتي ستكتبون بها تاريخ وطنكم بأيديكم.. بعد لحظات ستقومون بأخطر عملية جوية في تاريخ سلاح الطيران، بل في تاريخ إسرائيل كلها.. تلك العملية كنا نخطط لها منذ مدة طويلة، وها قد حان وقتها.. ولكي تعلموا مدى خطورتها فإن رئيس الوزراء بنفسه يشرف على تخطيط وتنفيذ تلك العملية.. اليوم سنتخلص من واحد من ألدّ أعدائنا بنسفه بالطيارات.

أخذت أجساد الطيارين ترتعش مع كلمات الجنرال وهي تطرق مسامعهم، وامتزجت مشاعرهم بالرهبة والتحفز معاً.. حتى أخرج الجنرال ظرفاً مغلقاً بالشمع الأحمر وفتحه أمامهم، وأخرج صورة وضعها على المنضدة مشيراً إليها بصوت عنيف، قائلاً:

- هذا هو عدو إسرائيل الذي أريد نسفه الليلة.

فما أن رأى موشي الصورة حتى ارتعشت أطرافه واحمرّت عيناه وتصبب العرق من جبينه.. كانت صورة الشيخ "أحمد ياسين"، الأب الروحي لحركة حماس.. ذلك الرجل العجوز الضرير الذي تعدى عمره السبعين.. فزادت رعشته وهو يردد بصوت مخنوق:

– مستحيل.. مستحيل.

فانتبه الجميع له وهم ينظرون إليه وهو في حالة عصبية قائلاً:

– كيف تخططون لذلك؟! إنه ضرير وقعيد! كيف يمثل هذا الرجل خطورة على إسرائيل؟!

فانتبه إليه الجنرال وأخذ يحملق فيه قائلاً:

– ماذا تقول؟! كيف تجرؤ على هذا الحديث؟!

فأكمل موشي بقوة:

– لقد أقسمت أن أحارب أعداء إسرائيل بإخلاص.. ولكن هذه ليست حربًا متكافئة.. إنه رجل أعزل ولا يمكن له مقاومتنا.. أنا لا أستطع القيام بذلك.

فاحمرّ وجه الجنرال وصرخ فيه قائلاً:

– ماذا؟ هل جننت؟! إنك مكلف بأمر عسكري ونحن في حالة حرب؛ ويجب أن تنفذ الأوامر، وإلا اعتبرتك خارجًا عن القواعد العسكرية.

فصمت موشي قليلاً ثم رد قائلاً:

– أعرف سيدي.. ولكني لن أستطيع القيام بذلك.

فمال الميجور آفيدان على الجنرال وقال له بصوت ماكر:

– ألم أقل لك سيدي! إنه لا يصلح للخدمة في جيش إسرائيل؛ موشي ومن مثله لا نضمن ولاءهم لنا.. وها هي النتيجة تظهر الآن.

فنظر إليه الجنرال وقال بصوت أجش:

– هكذا إذن.. سوف تدفع ثمن فعلتك غاليًا موشي.

وصرخ في الجنود وأمرهم بالقبض على موشي.. فأمسك به مجموعة من الجنود بقوة وسحبوه عبر ممرات طويلة، حتى ألقوا به بالسجن الحربي بالقاعدة.. فسقط على الأرض وهو يصرخ بأعلى صوته:

– أنتم مجرمون.. أنتم سفاحون.. تقتلون رجلاً أعزل وتعدونه انتصارًا.

أخذ يصرخ ويصرخ حتى سمع صوت محركات طائرات "الأباتشي" وهي تستعد للإقلاع.. فاقترب من النافذة المرتفعة وصوت الطائرات يقترب منه.. فأخذ يضرب على الجدران والدموع تسيل من عينيه، حتى خارت قواه وسقط الأرض وهو يبكي.

وجاءت اللحظة الحاسمة.. تجمع عدد كبير من قادة سلاح الطيران الإسرائيلي ورجال الموساد وقيادات الجيش في غرفة العمليات

بالقاعدة، حتى دخل عليهم رئيس الوزراء "أرييل شارون" وحوله حراسه مدججين بالسلاح.. فقام الجميع من مكانهم وحيّوه عسكريًا، ثم قام قائد العملية يشرح له ما سوف يتم بالتفصيل على خريطة أمامه على المائدة وقال له بعينين لامعتين وملامح شيطانية: "نحن نجهز مفاجأة سارة في تلك العملية.. سيدي"، ثم التفتوا جميعًا ليراقبوا العملية بتركيز شديد على شاشات تنقل الحدث بالقمر الصناعي العسكري الإسرائيلي.

ومع أذان الفجر خرج العديد من المصلين إلى مسجد المجمع السكني بحي صبرا بغزة لأداء صلاة الفجر، وبينهم الشيخ أحمد ياسين يحمله أتباعه بكرسيه المتحرك ليدخلوه إلى المسجد ليصلي معهم.. فلا يوجد في فلسطين من لم يتأثر بكلام الشيخ ياسين وأفكاره التي ملأت العقول والقلوب عبر سنوات عمره ومراحل نضاله.. ذلك الزعيم الروحي والشيخ الأسطورة مؤسس حركة المقاومة وصاحب الشعبية الجارفة، والذي يخرج الآلاف مهللين لرؤيته أثناء خطبه النارية ليهدد قوات الاحتلال.. ذلك الرجل الهزيل الذي تخافه إسرائيل ليس لقوة شخصيته وصلابته فحسب ولكن لانتشار أفكاره كالنار في الهشيم.

لم يكن الشيخ يقوى على تحريك أي جزء من جسده المكدود سوى فمه. بعد أن خار جسده من سنوات التعذيب والقمع.. ففقد بصره بضربة على عينه اليمنى أثناء إحدى جلسات التحقيق على يد الموساد وأصيب بشلل تام في جسده، نتيجة إهماله في السجون الإسرائيلية طيلة سنوات.. ومع ذلك كان يصمد أمام ضباط الاحتلال الذين كانوا يخشون لقاءه ويفتنون بشخصيته الطاغية داخل المعتقل، وكأنه هو حر طليق وهم المسجونين.

أخذ يحرك لسانه وهو يردد بصوته المتهدج مع الإمام ويميل بجذعه راكعًا وساجداً على الكرسي بين المصلين.. كان قلبه يدعو في الصلاة لوطنه وعيناه الضريرتان ترتعشان من الخشوع.. ومع اقتراب انتهاء صلاة الفجر اقتربت الطائرات من المسجد تأخذ مواقعها لتضرب ضحيتها.. حتى خرج المصلون من المسجد وخرج الشيخ محمولاً من أتباعه وهم يستعدون لاستقبال شمس نهار جديد مليء بروح المقاومة وأهداب الأمل.. إلا أن أحد أتباع الشيخ قد باع نفسه للشيطان وجنّده الموساد منذ فترة غير بعيدة وزرعه بين رجاله، اندس بين المصلين وقام بوضع جهاز تعقب أسفل الكرسي المتحرك كي تستطيع الطائرات تحديد مكانه وضربه على الفور واختفى بعدها.

وانطلقت طائرات الأباتشي كالخفافيش متبعة إشارات جهاز التعقب حتى حددت الهدف وأطلقت صواريخها الثلاثة نحوه.. فنسفت المكان عن آخره.. وسقط الشيخ بعد أن تحول جسده الطاهر إلى أشلاء وملأ دمه هو وأتباعه ساحة المسجد، وصعدت روحه إلى بارئها بعد أن تمنى الشهادة ونالها.. فتعالت أصوات والتكبير بالمكان وخرج الناس في طوفان غضب في شوارع غزة.. يصرخون وهم يرددون "لا إله إلا الله.. الشهيد حبيب الله".

لم تمض لحظات حتى عمّ الخبر كل أرجاء العالم.. وامتد طوفان الغضب إلى جميع أراضي فلسطين.. وخرج المتظاهرون يحملون الأسلحة ويطلقون الأعيرة النارية مهددين بالانتقام والثأر.. وانطلقت مكبرات الصوت في مساجد القطاع تتلو آيات القرآن الكريم طوال النهار والليل، بينما أغلقت المحال والمدارس حداداً على اغتيال الزعيم.. وامتدت المظاهرات حتى الجامعة العبرية..

فخرج الطلاب العرب يحملون اللافتات المهددة لإسرائيل وصور للشهيد الشيخ أحمد ياسين وهم يرجّون أرض الجامعة بأرجلهم ويهتفون بحناجر مثل زئير الأسود "يا شهيد نام وارتاح ونحنا نواصل الكفاح".

كان الدكتور ماكلين ينظر إليهم من نافذة مكتبه والحزن يملأ عينيه، والقشعريرة تسري في جسده، بينما كانت الصحف العالمية الموجودة على مكتبه تصف العملية بكامل تفاصيلها.. وجلس كل من بن أهارون وإبرام في مكتبه يحملقان في تعبيرات وجهه.. فنظر إليه بن أهارون وقال بخبث:

– أراك مضطربًا بعض الشيء دكتور ماكلين.. لم أكن أعلم أن مثل ذلك الأمر يمكن أن يؤثر عليك لهذه الدرجة.

فاستدار إليه دكتور ماكلين ورد بصوت ضعيف:

– إنه أمر بغيض.. لا يمكن لأي نفس بشرية سوية أن تتقبله.

فرد بن أهارون وهو يشعل سيجاره قائلاً:

– إنها حرب وكل شيء بها متوقع.
– ولكن أن تصل إلى هذا الحد من البشاعة! ماذا جناه ذلك الرجل كي يموت بتلك الطريقة البشعة؟!

فقاطعه إبرام بقوة ورد بصوت غليظ:

– هذا الرجل عدو لنا.. وكان يجب أن نتخلص منه بأي طريقة.

فرد الدكتور ماكلين والغضب يملأ عينيه:

– هل تتخلصوا من أفراد بنسفهم بالطائرات؟

فرد إبرام:

– هذا الأمر يتعلق بأمن إسرائيل القومي.. وهو أمر لا يقبل الجدل.

فاحمرّ وجه الدكتور ماكلين واعتلى صوته التشنج وهو يرد:

– وما يمكن أن يحققه رجل أعزل ومشلول من تهديد لأمن إسرائيل!
– هذا الرجل أفكاره هدّامة ويستطيع أن يشحن آلاف الفسطينيين ضدنا لتدميرنا.. إما نحن وإما هو.

فتدخل بن أهارون في الحديث محاولاً تهدئة الوضع قائلاً:

– أعرف أنك عاطفي بعض الشيء، ويمكن لمثل تلك الأمور أن تؤثر عليك دكتور ماكلين.. أفضل أن تعود إلى المنزل كي ترتاح.

فسمع الدكتور ماكلين بالنصيحة ولملم أغراضه وركب سيارته، وهو يرى الناس في الشوارع سعيدة بما حدث، حتى علّق البعض منهم علم إسرائيل على شرفات المنازل والمحال.. حتى عاد إلى المنزل وهو لا يتمالك أعصابه، بينما كانت أنامله ترتعش والصداع يحطّم رأسه.. فجلس أمام التليفزيون محاولاً الاسترخاء، فوجد جميع القنوات تذيع الخبر باعتباره انتصاراً حربياً عظيماً، وتعرض صوراً لأشلاء الشيخ وبقية الضحايا، بينما ظهر الناس وهم يرقصون من الفرح في شوارع إسرائيل.. فاغرورقت عيناه بالدموع

وهو ينظر إلى منظر الدم المنتشر في كل مكان.. وبدأ جسده يتداعى منه من شدة الانفعال حتى سقط على الأريكة، وأغلقت عيناه وراح في سبات عميق، لم يفق منه إلا على دقات الساعة الثامنة مساء.. فانتفض من مكانه ووضع رأسه أسفل الماء البارد، وأخذ ينظر إلى أركان المنزل والضيق يقبض على صدره، والأفكار السيئة تلتف حول رأسه.. فلم يشعر بقدميه إلا وهما تسوقانه في الشوارع بعيداً عن المنزل، حتى وصل إلى البار، فدخل ليهدئ أعصابه ويشرب كأساً من البيرة.. فوجد كماً رهيباً من الضباط والجنود والمجندات يرقصون ويغنون.. فأخذ يندس بينهم حتى وصل إلى البار ووجد مقعداً بصعوبة من شدة الزحام.. فجلس وطلب من النادل بيرة.. فوجد صوتاً رخيماً ينطلق من جانبه يقول للنادل:

– اجعل حساب البيرة عندنا.. بل اجعلها فودكا.. احتفالاً بالنصر.

فاستدار دكتور ماكلين نحو الصوت الذي سمعه من قبل.. فوجد الجنرال ليفي جالساً بجواره يمسك بكأس الفودكا، وقد وصل إلى قمة الثمالة حتى بدأ يغني.. فمال على الدكتور ماكلين وهو يقول بلسان ثقيل:

– اليوم نحن نحتفل بنصر إسرائيل العظيم.. ويجب عليك أن تشاركنا هذا الاحتفال.

فنظر إليه الدكتور ماكلين بعينين ضيقتين يملؤهما الحنق، ورد بصوت مخنوق:

– اعذرني.. فأنا لا أتحمل الفودكا.

فوجد صوتًا آخر يخرج بقوة بجوار الجنرال ليفي قائلاً:

– بل يجب أن تشرب معنا.. إنها مناسبة تاريخية ولا يجب أن تفوتها.

فانتبه الدكتور ماكلين وانتفضت ملامحه.. فوجد إبرام جالسًا بجوار الجنرال ليفي يحتسي النبيذ أيضًا، وقد ارتسمت على وجهه ملامح السعادة والتشفي، وأخذ يحدّق بعينيه داخل عيني الدكتور ماكلين، ووضع يده على كتفه وأكمل قائلاً:

– أعرف أنك لا تحب الفودكا كثيرًا.. ولكن الليلة استثناء.. فكما ترى إسرائيل كلها سعيدة الليلة ولن تنام حتى الصباح.. ولن نسمح لأحد بأن يضيع علينا فرحتنا.

فأخذ الدكتور ماكلين ينظر إليه بعينين ضيقتين، وهو يرى دم الشهداء ممزوجًا بالفودكا يتساقط من فمه، ويداه ملطختان به.. وطنين طائرات الأباتشي يدوي في أذنيه وكأنها تمر حول رأسه.. أخذ يمسك برأسه ويترنح من شدة الصداع، وكأنه وسط طوفان هائل.. حتى وقف الجنرال ليفي بعد أن وصل إلى قمة الثمالة وهو يمسك بكأس النبيذ وأخذ يصيح بين الناس:

– والآن يجب علينا جميعًا أن نشرب نخب إسرائيل.

فصاح الجميع بصوت عال:

– نخب إسرائيل.. نخب النصر.

ثم قام من مكانه وأمسك بيد إبرام ونزل بين الجنود، وأخذ يرقص معهم على أنغام السلام الوطني الإسرائيلي والأغاني الشعبية اليهودية، وخاصة أغنية الاحتفالات "هافا ناجيلا".. الأغنية الأشهر في التراث الشعبي الإسرائيلي، وتعني "هيا نحتفل"، وهم يمسكون بعلم إسرائيل ويلوّحون به.. فنظر إليهم الدكتور ماكلين وهم يتراقصون وكأنهم يطوفون حول أشلاء الشهداء وينهشون في أجسادهم، بينما تصرخ أرواحهم عاليًا منادية بالانتقام.. فازداد الصداع في رأسه، وأخذ يترنح بشدة بين الناس وكأنه ثمل مثلهم، حتى بدت له مناظرهم وكأنهم أشباح وخيالات تتراقص حوله.. وأخذ يهذي بعبارات غير مفهومة بصوت مخنوق غير مسموع، وسط تلك الضجة الرهيبة من الأصوات، حتى فقد وعيه وسقط على الأرض مغشيًا عليه.

قضبان من نار

سارت ناقلة المساجين عبر صحراء النقب تحمل مجموعة كبيرة من الشباب، بينهم مصطفى وغسان معصوبو العينين مقيدون من أيديهم من الخلف بحبال خشنة وهم يتخبطون بعضهم في بعض من جراء اهتزاز الناقلة وصغر حجمها.. وبعد وقت طويل اقتربت من بوابة حديدية كبيرة يحرسها جنود مدججون بالسلاح، ودخلت إلى معتقل كبير محاط بأسلاك كهربائية، يخضع لحراسة مشددة من العديد من الجنود.. ثم توقفت الناقلة وجذب الجنود المساجين بقوة إلى الخارج، وانهالوا عليهم بالضرب بالعصي والسياط، وسلّطوا عليهم كلابًا شرسة نهشت في أجسادهم، حتى خارت قواهم وسالت دماؤهم وسقط أغلبهم على الأرض.. فتركهم الجنود ملقين على الأرض الباردة وحدهم.. فظلوا

ساعات بمفردهم والانتظار يقطع من أعصابهم لا يسمعون سوى صفير الهواء، وهم يشعرون بحرارة الشمس على وجوههم، وأخذت في الانحسار حتى غابت.. بينما يراقبهم جنود الحراسة من بعيد.. فبدأ القلق يسري داخل غسان، وأخذ جسده يرتعش، فمال على مصطفى وقال بصوت خافت مرتعش:

– ماذا سيفعلون بنا بعد ذلك؟

فرد مصطفى متصنعًا الثبات:

– لا أعرف.. كل ما علينا أن نحافظ على هدوئنا.. إنهم يريدون تحطيم أعصابنا في البداية.. ولا يجب أن نعطيهم فرصة لذلك.

فسمعا صوت سنابك أحد الخيول يقترب منهم.. فنزل الجنود إليهم وجذبوهم بقوة ونزعوا عنهم قطع القماش التي تغطي أعينهم، فانعكس على وجههم ضوء الكشافات الضخمة التي تنير الفناء، وكادت أن تخطف أبصارهم فحاولوا حجبها بأيديهم.. إلا أن الجنود انهالوا عليهم بالسياط ليقفوا انتباهًا.. فرأوا أمامهم ضابطًا كبيرًا يمتطي جواده، مرتديًا الزى العسكري المرصّع بالنياشين، ويمسك بيده سوطًا.. وأخذ يصرح فيهم بصوت غليظ قائلاً:

– أهلاً بكم في معتقل "آشكيلون".. أنتم هنا في أخطر معتقلات إسرائيل وأكثرها بشاعة.. من يدخل هذا المكان يجب أن يعرف أنه لن يرى الدنيا مرة أخرى.. وسيرى هنا ما لا يخطر له على بال.. لذا أتمنى لكم إقامة سعيدة.

ثم أعطى الإشارة للجنود والضباط بتحريك طابور المعتقلين نحو الزنازين الخاصة بهم.. ثم نظر إلى كل من مصطفى وغسان وأشار إليهما بسوطه، فأخذهما أربعة جنود وأخرجاهما من الطابور وساروا بهما عبر دهاليز ضيقة أسفل المعتقل، حتى وصلوا إلى قبو عند المصرف، وفتحوا باب زنزانة صغيرة يخرج منها مياه التصريف ودفعوهما إلى الداخل، فسقطا على الأرض المبتلة وأغلقوا الباب.. كانت الزنزانة شديدة الظلام عدا بصيص من الضوء الخافت القادم من نافذة صغيرة بالأعلى.. ونهض مصطفى قليلاً من على الأرض، وأخذ ينظر إلى جدران الزنزانة السوداء المتعرجة، وآثار الماء الملطخة عليها وسمع صوت الفئران وهي تجري حولهما.. فنظر إليه غسان وقد زادت رعشته.. فأمسك مصطفى بيده وقال بصوت مهزوز:

– ما يحدث لنا هنا ليس طبيعيًا.. هذا ليس أسلوب ضباط الجيش العاديين.. بل أسلوب رجال الشين بيت.. هم الذين يفعلون ما لا يمكن توقعه من أساليب التعذيب.

فتصبب العرق من جبين غسان وقال مرتعشًا:

– وما العمل الآن؟!

– كما قلت لك.. ابق هادئًا بقدر ما استطعت.

وفجأة سمعا صوتًا يتحرك خلفهما.. فالتفتا بسرعة وارتسمت على وجهيهما علامات الدهشة وتحجرت مقلتيهما.. فوجدا رجلاً عجوزًا يخرج من الظلام، ذا وجه أصفر يملؤه التجاعيد، وتبرز عظامه كالجمجمة، وعيناه غائرتان يحيط بهما السواد، وشعره أشعث

متطاير، مرتديًا ملابس رثة متسخة، تكشف عن جسد هزيل مريض أشبه بالهيكل العظمي.. أخذ يحرك رأسه بطريقة هستيرية ويجر قدميه الحافيتين وهو يتكئ على الجدران حتى وصل إليهما، وأخذ يحملق فيهما بنظرات غير طبيعية، وقال بصوت مهتز:

– ها قد أتيتما أخيرًا.. لقد تأخرتما كثيرًا.. لكنني كنت أنتظركما.

فنظرا إليه بدهشة وغمغم غسان قائلاً:

– لا بد أنه مجنون!

فهمس له مصطفى ليسكت.. فاقترب منهما الرجل ونظر إلى مصطفى وأكمل مهذيًا:

– لقد كان هنا.. سكن معي طيلة خمس سنوات.. نأكل ونشرب معًا.. إنه يشبهك كثيرًا.. بل إنه أنت.

وأمسك يده بقوة وأكمل قائلاً:

– كان شابًا جميلاً ورائعًا.. لم يتحمل تعذيبهم له.. ظلوا يقطعونه قطعًا قطعًا.. حتى سقط بين يدي وسال دمه على أرضية الزنزانة كما تسيل المياه.. جعلوني أحفر قبره في الفناء وأدفنه بيدي. مات دون أن يشعر به أحد.

وسقط على الأرض وانخرط في بكاء هستيري كالأطفال.. ثم قام مرة أخرى وقال مبتسمًا وعيناه تلمعان:

– لكنك عدت مرة أخرى.. خرجت من الفناء حتى لا تتركني وحدي معهم.. أليس كذلك؟! إنني لن أتركك تتعذب هذه المرة.. لن أتركهم يمزقونك مرة أخرى.. أبداً أبداً.

ثم جلس بجوار الحائط ووضع رأسه على الحجر، وأغمض عينيه وأخذ يهذي بعبارات غير مفهومة.. فنظر إليه مصطفى وصمت قليلاً من الذهول ثم قال:

– مسكين.. لم تتحمل أعصابه أفعالهم.

فرد غسان والأسى يملأ عينيه:

– ملاعين.. لم يرحموا شاباً أو عجوزاً.. إنهم وحوش.

وفجأة انفتح الباب بقوة ودخل جنديان وجذبا مصطفى بقوة أمامهما، فهرع غسان خلفه، فضربه أحد الجنود فسقط على وجهه وارتطمت أسنانه بالأرض وأخذ ينزف.. واقتادا مصطفى عبر ممرات طويلة حتى وصلوا إلى حجرة كبيرة مظلمة خالية من أي شيء عدا مكتب.. فأقعداه على كرسي وربطاه بقوة وتركاه وحده لمدة طويلة.. ظل يسمع أصوات أناس يصرخون من شدة التعذيب، فتسللت الرعشة داخل جسده واضطربت أنفاسه، وأخذ قلبه يضرب بقوة بين ضلوعه.. حتى انفتح الباب ودخل رجل طويل القامة يرتدي ملابس مدنية.. فأخذ مصطفى يدقق في ملامحه حتى أصابه ذهول واتسعت عيناه.. دخل إبرام الحجرة وهو ينظر إلى مصطفى، ثم جذب كرسياً بقوة وجلس أمامه وهو يحملق فيه، والنار تخرج من عينيه، وقال:

– لم أكن أصدق أنني طيلة هذا الوقت أبحث عنك.. وأنت أمام عيني.. أأنت يا مصطفى الرأس المدبّر لكل هذه العمليات وأنا لا أشعر بهذا؟ كم أنت ذكي وعبقري في خداعنا كل هذا الوقت! لكنك في النهاية سقطت بين يدي.

فنظر إليه مصطفى باحتقار وقال:

– كما توقعت.. كل ما يجري لا يأتي سوى من تدبيرك.

فضحك إبرام بصوت أجش وقال:

– إنك لم تر شيئًا بعد.. ولكنني لم أعرف أنك محبوب لهذه الدرجة.. أكثر من شخص تكاتفوا ضدك وأبلغونا بمكانك ونشاطاتك كي يتخلصوا منك.. مريم يعقوب زميلتك في الجامعة، ونزار عباس زوج أختك.. لا بد أنك إنسان قوي ولك أعداء كثيرون.

فنظر إليه مصطفى ورد:

– لا يهمني أحد.. المهم أن أخدم وطني.. وأقاوم احتلالكم الغادر.

فابتسم إبرام بسخرية ثم أكمل قائلاً:

– والآن.. وبكل هدوء.. أريدك أن تخبرني عن بقية رجالك وأماكن الأسلحة التي تخبئونها.

فازدادت نظرة الاحتقار وقال بصوت يملؤه التحدي:

- مهما فعلت بنا.. لا تنتظر مني أن أخون بلدي أبدًا.. إنك لن تحصل مني على أي شيء.

فقام إبرام من مكانه واقترب من مصطفى واضعًا يده على كتفه وقال:

- صدقني يا مصطفى.. إنك لن تتحمل ما سنفعله بك.. أخبرنا بما تعرفه حتى لا تندم بقية عمرك أنت وأصحابك.
- إنك لن تحرك شعرة مني مهما فعلت إبرام.

فصفعه إبرام بقوة على وجهه حتى سقط بالكرسي على الأرض.. ونظر إليه بعينين كالجمر، وقال:

- هكذا إذن.. لقد اخترت مصيرك بيديك.

ثم صرخ على الحراس وقال بقوة:

- خذوه من هنا وضعوه في حجرة الاستقبال حتى أتفرغ له.

فدخل أحد الضباط ووقف أمام إبرام.. فقال له:

- أريدك أن تبدأ برنامج التعذيب من الليلة.. يجب أن يظل جميع المساجين متيقظين لا ينامون أبدًا.. افتحوا عليهم المياه الساخنة داخل الحجرات واملؤها بالحشرات والفئران.. وقدموا لهم الطعام خاليًا من الملح نهائيًا، حتى يفقدوا تركيزهم تمامًا أثناء التحقيق.. سآخذ منهم كل ما أريد بطريقتي الخاصة.


Carla's Covers

***

داخل حجرة مظلمة باردة معلق على جدرانها الحجرية جنازير وسياط وتفوح منها رائحة الدم.. جذب مجموعة من الجنود مصطفى وجردوه من ملابسه، ثم ربطوا قدميه بحبل غليظ ورفعوه برافعة حديدية لأعلى، حتى انعكس وضعه وأصبحت رأسه لأسفل، وأبقوه على ذلك الوضع قليلاً، حتى تجمع الدم في رأسه، ثم أتوا ببرميل من المياه المثلّجة وأسقطوه فيه مرة واحدة، ثم رفعوه مرة أخرى.. فأخذ يصرخ بصوت عالٍ، ثم أعادوا الكرّة مرة أخرى وأبقوه داخل البرميل مدة طويلة، حتى كاد أن يختنق، ثم رفعوه ثانية وهو يرتجف بقوة.. حتى دخل إبرام الحجرة فوجده معلقاً والمياه الباردة تسيل من جسده المرتعش.. فاقترب منه وقال بنبرة سخرية:

– ألا تريد أن تعترف بعد؟ إننا ما زلنا في بداية الطريق.. والطريق ما زال طويلاً ووعراً.

فأخذ مصطفى يهذي:

– لن أخبرك شيئاً.

فاشتعل إبرام غضباً واستلّ سوطاً من الجدار، وأخذ يضربه بوحشية على جسده المترنح، حتى لاحظ الجرح الموجود في ساقه، فسلّط ضربه عليه بعنف، بينما ارتجّت حنجرة مصطفى من الصراخ، وسال الدم من ساقه حتى أغمي عليه.. فقذف أحد الجنود بجردل من المياه الباردة على وجهه حتى يفيق.. فجذبه

إبرام من شعره وقال له:

– لا أحد يقف أمام رغبتي أيها الحقير.. يجب أن تخبرني بكل شيء.. وإلا مزّقتك إربًا.

فنظر إليه مصطفى بعينين مكسورتين وغمغم قائلاً:

– لن أخبرك شيئًا.

فضغط على عنقه حتى كاد أن يخنقه وقال:

– إذن تعالَ معي كي نرى إن كنت ستعترف أم لا.

فأسقطه الجنود على الأرض وسحبوه من تلك الحجرة، ودخلوا إلى حجرة مجاورة.. فرأى غسان وهو عارٍ ومعلق من يديه بحبال متدلية من السقف، ومشدود من ساقيه بجنازير مثبتة في الأرض، وينهال أحد الجنود بالسوط على ظهره، حتى كاد يتمزق.. فاغرورقت عينا مصطفى بالدموع، فنظر إليه غسان والدم يسيل من وجهه وقال له بقوة:

– لا تبكِ يا مصطفى.. لا تخبرهم بأي شيء.. ابقَ ثابتًا كما قلت لي.

فانهمرت الدموع من وجهه وأخذ يهذي بصوت ضعيف:

– اتركوه يا ملاعين.. اتركوه.

وظل يهذي حتى انقطع صوته وغاب عن وعيه.. فسحبه الجنود

وجرّوه من يديه عبر الممرات، ووجهه يتخبط في الأرض، والدم يسيل منه على الطرقات كالنهر.. فنظر إليه المساجين من نوافذ الزنزانات وهم يحملقون فيه بأعين يملؤها الأسى.. حتى وصلوا به إلى القبو وفتحوا باب زنزانته وألقوا به على الأرض.

***

في قلب الليل ووسط البرد الشديد نزع الجنود ملابس جميع المساجين، وأوقفوهم عراة داخل فناء المعتقل، وكل منهم يحمل على رأسه كتلة من الحجر، ويجرون في دوائر حول الفناء.. كانت أوصالهم تتقطع والدم يسيل من مفاصلهم، بينما كان الجنود يجرون وراءهم بالسياط حتى لا يتوقفون.. أخذ إبرام يراقب هذا المشهد من نافذة مكتبه وهو يحتسي كأسًا من الخمر، بينما كانت عيناه تلمعان من شدة السعادة، فاقترب منه أحد الضباط. فقال له إبرام وقد بدأت الخمر تتلاعب برأسه:

– انظر كيف يطوفون حول بعضهم وهم عراة كالخنازير! إنه مشهد بديع لن ترى مثله سوى هنا.

فتلجلج الضابط ورد بسرعة:

– فعلاً سيدي.

– يجب أن تضع مثل هؤلاء العبيد أسفل قدميك.. ولا تدع لهم فرصة للتنفس.. يجب أن تستخدم جميع الوسائل أيًا كانت كي تصل إلى هدفك وتنتزع منهم ما تريد.. بشرط ألا تجعلهم يفقدون حياتهم.. حتى يظلوا يعيشون ويشعرون بالعذاب والألم.. لأن الموت سوف يريحهم ويبعدهم عنا.

فرد الضابط في اضطراب:

– مضبوط سيدي.

ثم استدار إبرام مرة أخرى نحو النافذة، ونظر إليهم وقد زاد تأثير الخمر عليه وقال بقوة:

– اجعلهم يطوفون عشر مرات أخرى ثم انقلهم إلى صالة الاحتفالات الكبرى.. كي نحتفل جميعًا بتلك الليلة السعيدة.

فنظر إليه الضابط مرتعشًا وأومأ برأسه، وهرع على الخارج مسرعًا لينفذ الأوامر.. بينما ظل المساجين يطوفون بسرعة أكبر، حتى ظهرت عليهم ملامح الإعياء، ثم توقفوا عن الجري وظلوا يحملون الحجر في وضع انتباه حسب الأوامر.. فارتعش جسد مصطفى وزاغت عيناه من التعب، بدأ الدم يسيل من ساقه المجروحة وهو يحاول أن يتماسك.. إلا أنه لم يستطع التحمل وتهاوى الحجر من بين يديه وسقط على الأرض.. فأخذ الجنود يوخزونه ببنادقهم في كل أنحاء جسده النحيل، حتى يقف مرة أخرى وهو يصرخ من شدة الألم.. بينما نظر إليه غسان وعيناه ممتلئتان بالدموع، دون أن يستطيع أن ينطق بكلمة.. فجاء الضابط وأمسك بسوط وأخذ يضربه على ظهره حتى سال الدم منه.. إلا أن أعضاءه قد خارت ورفضت الاستجابة، فسحبه الجنود من الفناء وأدخلوه إلى حجرة كبيرة في طابق تحت الأرض، ووضعوه على منضدة وهو في شدة الإعياء.. دخل إبرام ومعه طبيب وأعطى له حقنة كي يتحمل التعذيب.. وبعد أن أفاق قليلاً أحضر الجنود جهاز صدمات كهربائية وأوصلوه برأسه ومدّوا أسلاكًا إلى بقية جسده.. فوقف

الضابط وهو يضع يده على زر التشغيل، بينما اقترب إبرام من مصطفى وقال له في أذنه:

– لا بد أن تعترف لنا بمكان السلاح الآن.. إنك لن تتحمل ما أنت مقدم عليه.

فنظر إليه مصطفى ورد بتحدٍ رغم كل الجروح والآلام:

– مهما فعل بي.. لن أخبرك شيئًا.

فازداد غضب إبرام وأعطى الإشارة للضابط كي يشغل الجهاز.. فسرت الترددات الكهربائية عبر الأسلاك، فانتفض جسده بعنف من شدة الصدمة، وتحجّرت مقلتاه وارتعشت أنامله، وأخذت صرخاته تهز الجدران حتى توقفت الكهرباء.. فأمسك إبرام برأسه وقال بنبرة غضب:

– ما رأيك الآن؟ في المرة التالية سيتساقط شعرك وتتشقق أظافرك من شدة التيار.. لذا يجب أن تنقذ نفسك.

فرفض مصطفى التكلم، فأعاد الضابط التيار الكهربائي مرة أخرى.. فارتعش جسد مصطفى بجنون وأخذ يتخبط على المنضدة حتى كاد أن يفقد الوعي.. فاقترب الطبيب من إبرام وقال بصوت خافت:

– سيدي.. إنه لن يستطع تحمل التعذيب.. أرى أن نتوقف الليلة.

فنظر إليه إبرام بقوة وقال بصوت غليظ:

– وما فائدة الحقنة التي أعطيتها له؟ لن أكف عن تعذيبه طوال الليل حتى يخبرني بالحقيقة.

واستمر مصطفى يتعرض لصدمات كهربائية عالية حتى فقد توقف لسانه وفقد النطق.. فأمسك إبرام برأسه ودفعه في المنضدة وهو يصرخ:

– يجب أن تتحدث.. يجب أن تعترف بمكان السلاح.

فقال الطبيب له:

– لقد حدث ما كانت أتوقعه.. لقد أثرت الصدمة على لسانه ولن يستطيع التكلم.. يجب أن يرتاح الليلة.. ثم نكمل غداً.

فصمت إبرام قليلاً وأمر الجنود بإعادته إلى زنزانته.. فحملوه وألقوه داخلها بقوة.. فسقط على الأرض دون أن ينطق بكلمة.. فهرع إليه غسان والرجل العجوز وأخذا يضمدان له جروحه.. وهو ينظر إليهما ويشعر بأصابعهما على جروحه حتى غاب عن الوعي.. فصرخ غسان قائلاً:

– ماذا فعل بك هؤلاء الملاعين؟!

فنظر إليه الرجل العجوز وقال بهذيان:

– إنهم لن يتركوه إلا عندما يأخذون ما يريدونه.. ثم بعدها يتركوه.. أنا أعرفهم جيداً.

فرد غسان:

– إنه لن يتحمل قدر ذلك التعذيب.

ثم صعد إلى النافذة الصغيرة ونظر إلى بصيص ضوء القمر المطل، ورفع يديه إلى السماء وقال:

– يا رب.. خذ بيده إنه عبدك المؤمن.. لا تتركه بين يدي القوم الظالمين.. أخرجه من تلك الكربة.. إنه لا يستطيع الكلام.. فاقبل دعائي له.. فإنه لا أحد لنا هنا سواك يا رب العالمين.

كان السكون يعم أرجاء المعتقل.. جميع المساجين في الزنازين راقدون، والجنود يطوفون بالممرات وفوق أسطح المعتقل يراقبون أحواله.. رقد مصطفى متدثرًا في سريره وهو يرتعش بقوة ووجهه مصفر وعيناه الغائرتان حمراوان من شدة الإعياء، وبجواره غسان يقرأ القرآن بينما كان يراقبه بعينيه.. حتى انتهى من القراءة واقترب منه، فوجد جسده يشتعل من الحرارة، وجبهته ككتلة الجمر، وأخذ يهذي من شدة الحرارة.. فصرخ مناديًا على الرجل العجوز ويقول بصوت مرتعش:

– لقد زادت حالة الحمى عنده.. ثلاثة أيام وهم ممتنعون عن علاجه وهو يسوء يومًا عن يوم.

فأحضر الرجل قطعة مبتلة من القماش ووضعها على جبينه، بينما نظر إليه غسان وقال بتوتر:

– إن حالته تسوء؛ يجب أن نفعل شيئًا.

ففتح مصطفى عينيه ونظر إلى غسان وقال بصوت هادئ:

– إنني لم أعد أحتاج إلى علاج.. إنها النهاية يا غسان.

فأمسك غسان بيده وقال بعينين ممتلئتين بالدموع:

– لا تقل هذا.. إنك سوف تخرج من تلك الكربة.. ستقوم من مكانك وتعود إلى الخليل والجامعة، وستهز إسرائيل بعملياتك مرة أخرى.

فضحك مصطفى ورد قائلاً:

– لم يعد جسدي يحتمل.. لحظاتي أصبحت معدودة.. لقد صنعنا كل ما في وسعنا.. أخذنا بالثأر وجاهدنا في سبيل الله حق الجهاد.. فقط ادع الله أن يتقبل ما صنعناه.

ثم أخذت عيناه تضيق وأكمل:

– عندما تخرج من هنا.. أخبر أبي ألا يحزن.. لقد عاش أبناؤه رجالاً يحملون اسم القوادري فوق أعناقهم، يدافعون عنه وعن وطنهم بأرواحهم.. أخبر زينة أنها لم تغب يومًا عن بالي.. عشت أحبها وسأظل أحبها بروحي حتى وأنا في السماء.

ثم نظر إلى السماء وأكمل:

– لقد جاء الوقت كي ألحق بأخي زياد.. إنني أراه أمامي الآن وهو يمد

– إن حالته تسوء؛ يجب أن نفعل شيئًا.

ففتح مصطفى عينيه ونظر إلى غسان وقال بصوت هادئ:

– إنني لم أعد أحتاج إلى علاج.. إنها النهاية يا غسان.

فأمسك غسان بيده وقال بعينين ممتلئتين بالدموع:

– لا تقل هذا.. إنك سوف تخرج من تلك الكربة.. ستقوم من مكانك وتعود إلى الخليل والجامعة، وستهز إسرائيل بعملياتك مرة أخرى.

فضحك مصطفى ورد قائلاً:

– لم يعد جسدي يحتمل.. لحظاتي أصبحت معدودة.. لقد صنعنا كل ما في وسعنا.. أخذنا بالثأر وجاهدنا في سبيل الله حق الجهاد.. فقط ادع الله أن يتقبل ما صنعناه.

ثم أخذت عيناه تضيق وأكمل:

– عندما تخرج من هنا.. أخبر أبي ألا يحزن.. لقد عاش أبناؤه رجالاً يحملون اسم القوادري فوق أعناقهم، يدافعون عنه وعن وطنهم بأرواحهم.. أخبر زينة أنها لم تغب يومًا عن بالي.. عشت أحبها وسأظل أحبها بروحي حتى وأنا في السماء.

ثم نظر إلى السماء وأكمل:

– لقد جاء الوقت كي ألحق بأخي زياد.. إنني أراه أمامي الآن وهو يمد

يديه لي كي يأخذني بجواره.. الآن قد أتممت مهمتي وعليّ أن أرحل.. أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمداً رسول الله.

ثم أغمض عينيه وهدأ جسده المريض مرتاحاً للأبد، وارتسمت على وجهه ملامح السكينة، بعد أن صعدت روحه.. فاحتضنه غسان بقوة وهو يبكي بحرقة وعيناه تذرفان الدمع، حتى سال على وجه مصطفى.. ونظر إليه الرجل العجوز وأخذ يهذي بصوت عال:

– لا.. لا تتركني من جديد.. ألم أقل لك إنهم لن يرحموك! لا ترحل كما رحل من قبلك.. أرجوك لا ترحل.

فقام غسان من مكانه وأخذ يضرب على باب الزنزانة بقوة، وأخذ يصرخ من أعماقه قائلاً:

– قتلتموه يا ظلمة.. لن نترككم أبداً.. أبداً.

هرع ضابط إلى مكتب إبرام وهو يلهث حتى انكب على مكتبه.. فانتفض من مكانه وقال في دهشة:

– ماذا حدث؟

فرد الضابط مذعوراً:

– كارثة سيدي.. كارثة.
– تكلم بسرعة.
– لقد مات أحد المساجين داخل الزنزانة من شدة التعذيب.

فاكتسى وجه إبرام بالاضطراب وصرخ قائلاً:

– من هذا السجين؟

فرد الضابط مهتزاً:

– إنه.. إنه.. سجين القبو.. مصطفى القوادري.

فاحمرّ وجهه غضبًا وأخذ يصرخ بطريقة هستيرية:

– مستحيل.. كيف يموت دون أن يعترف!

فابتلع الضابط ريقه وقال:

– وما العمل الآن سيدي؟

فحاول إبرام التماسك وقال:

– لا يجب أن يعرف أحد خارج المعتقل بما حدث.. يجب أن يظل الموضوع طي الكتمان حتى لا ينقلب الوضع علينا.
– وماذا عن الجثة؟
– ادفنوها في الفناء دون أن يشعر أحد من المساجين.

لم يكمل إبرام كلماته حتى سمع ضجة كبيرة بين أروقة المعتقل.. فدخل أحد الجنود وهو يرتعش وقال بصوت مهزوز:

– سيدي.. إن المعتقل بأكمله هائج.. والمساجين يصرخون ضد ما حدث.

فهرع إبرام خارج مكتبه ونزل إلى الأروقة بين الزنازين.. فوجد المساجين يمسكون بأطباقهم ويضربون بها في الأبواب، وهم يصرخون بصوت يرج أركان المعتقل "الموت للظلمة.. الموت للظلمة". فأخرج إبرام مسدسه وأطلق أعيرة نارية في الهواء وأخذ يصرخ فيهم قائلاً:

– لا أريد أن أسمع صوت أحد منكم.. من ينطق بكلمة سوف يلحق بالوغد الذي مات.

حاولت قوى الأمن منع تسرب خبر موت مصطفى.. ولكن الأمر كان أقوى منهم بكثير.. فقد وصل الأمر إلى الجامعة وأصاب الطلاب حالة من التذمر والغضب، خصوصاً الطلبة العرب.. حاولوا عمل مسيرات ومظاهرات، إلا أن الأمن قد تصدى لهم.. لكن غضبهم المكبوت ظل بداخلهم واضحاً في أعينهم.

دخل الدكتور ماكلين مبنى الكلية وهو يرى الوجوم على أوجه الطلاب، ولكنه لم يفهم الأمر.. فدخل إلى مكتب بن أهارون فوجده جالساً مع إبرام في حالة من التوتر.. فارتسمت على وجهه علامات القلق والدهشة وقال لهما:

– ما الأمر؟ أشعر وكأن هناك شيئاً ما قد حدث.

فارتبك بن أهارون وتلعثم في الكلام.. فالتفت إليه إبرام ونظر إليه بعينيه ثاقبتين ورد بحزم:

– هناك طالب عربي قُتل أول أمس.

فاهتز الدكتور ماكلين لكلامه.. فأكمل إبرام بسرعة:

– وهذا الطالب في صفك دكتور ماكلين.. إنه مصطفى القوادري.. لقد قتل في مظاهرة بالخليل بعد أن أصابته رصاصة طائشة من أحد الجنود.

ارتج الدكتور ماكلين واشتعلت أعصابه، وأخذ يحملق فيهما وهو لا يصدق ما يسمع.. معقول! هذا الشاب اليافع الجميل يضيع عمره هكذا؟! لم يكن مصطفى مجرد طالب عنده فحسب، بل كان يرى فيه روح البطولة والنبوغ.. كان يرى فيه نفسه الشابة التي جاء ليحققها في إسرائيل.. سار الدكتور ماكلين في طرقات الكلية لا يرى سوى صورته عندما كانا بالخليل.. عندما نزل معه إلى الأسواق ورآه كيف يتعامل مع البسطاء.. وهو يصلي.. وهو يقبّل يديّ والده.. ظلت كلماته تصدع داخل أذنيه وهو يتحدث عن الحرية والوطن.. عندما كان يجادله في الفصل.. عندما كان يشتكي له من اضطهاد الأساتذة والطلبة اليهود له.. دخل الدكتور ماكلين الفصل وهو خالٍ.. فنظر إلى مقعد مصطفى ورآه جالسًا عليه يتحدث ويضحك ويصرخ.. أخذ ينظر إلى المقعد بنظرات شاردة ولم يستطع أن يمنع دموعه من أن تنزل.

لم يستطع النوم في تلك الليلة الصعبة.. رغم كل المهدئات التي تناولها كانت الأفكار الملعونة تطوف برأسه وتجعله مشوشًا.. فتح الدكتور ماكلين الكمبيوتر المحمول الخاص به وكتب e-mail لواحد من أقرب تلاميذه ببنسلفانيا يدعى "جون مارتن":

"عزيزي جون.. لم أعد أحتمل الحياة هنا في إسرائيل.. ولم أعد أشعر بالأمان.. إنها ليست إسرائيل التي كنا نقرأ عنها وندرسها.. لقد رأيت أشياء لا يصدقها عقل.. كانت محجوبة عنا ومن المستحيل أن تراها إلا إذا أتيت إلى هنا ورأيتها بعينيك.. فالعنف والتطرف ورائحة الدم أصبحت في كل مكان.. لقد كنا مضلَلين إلى درجة كبيرة، وآن الأوان أن نكشف الحقيقة.. هذا ما أستطيع أن أقوله لك حتى الآن.. انتظر مني رسائل أخرى حتى أستطيع أن أراك.

تحياتي

جيمس ماكلين"

***

دموع الروح

بعد أن غابت لمدة طويلة عن الدراسة، وخاصة بعد أن اضطربت أعصابها من جراء المخدرات ودخلت إلى المصحة عدة مرات.. جاءت مريم إلى الكلية وهي تحاول أن تتماسك.. كانت آثار المخدرات ما زالت واضحة على عينيها ونظراتها الشاردة وذهنها المشتت.. كان الجميع ينظرون إليها وكأنها مشعوذة أو مجنونة.. وما أن دخلت الفصل حتى وجدت الجميع يتحدثون همسًا وكأنهم يخفون عنها شيئًا.. فلاحظت أن مكان مصطفى خالٍ.. فترددت في الأمر.. فقام ديفيد من مكانه وأخذ يحملق فيها بسخرية قائلاً:

- ألا تعلمين ما حدث؟! لقد قُتل العربي.

فانتفضت من مكانها مذعورة ورفضت أذناها تصديق ما قاله لها.. بدأ جسدها يرتعش بشدة واتسعت مقلتاها والدموع ترقرق بداخلها وأخذت تهذي:

- مستحيل.. مستحيل.. أنت كاذب.

وانتابتها حالة هستيرية وأخذت تضربه بما في يدها.. فأمسك بيدها بقوة وأبعدها عنه.. خرجت من الجامعة وأخذت تجرى كالمجنونة في الشارع وذكريات مصطفى تطاردها.. كانت تراه في كل طريق تسير فيه وهو ينظر إليها بعينيه القويتين.. فتزداد رعشتها وتحيط الهلاوس برأسها أكثر وأكثر، وهي تهذي "أنا السبب.. أنا السبب"، حتى قادتها قدميها إلى منزلها.. أخذ الشعور بالذنب يحيط بها حتى كاد أن يخنقها.. "ماذا فعلت بك يا مصطفى! إنك لا تستحق كل هذا". ازدادت الرعشة بجسدها حتى تحولت إلى تشنجات.. أخذت تحملق فيما حولها وهي ترى صورته أمام عينيها وصوته يطن في أذنها هو يلعنها عما فعلته به.. فأمسكت برأسها من شدة الصداع وأخذت تصرخ بصوت عالٍ ودخلت إلى حجرتها وأغلقت على نفسها.. فخرجت أمها من المطبخ لتطمئن عليها.. فوجدت الباب موصداً بقوة.. فأخذت تضرب على الباب بقوة وهي تنادي لمريم حتى استطاعت فتح الباب.. وما أن دخلت الغرفة حتى أصابها الذعر.. وجدت مريم جثة متدلية من السقف بعد أن شنقت نفسها بحبل الغسيل، وتركت بجوارها ورقة مكتوبًا عليها "لم أستطع الحياة في عالم يسوده الكراهية والحقد.. أريدكم كلكم أن تسامحوني على ما

فعلت".

***

كانت شوارع مدينة الخليل ساكنة حزينة بعد أن أعلن بها استشهاد واحد من أبطالها.. كانت صور مصطفى معلقة على جدران الشوارع بجوار علم فلسطين.. الكل يعرف مصطفى القوادري.. ومن لا يعرفه وهو حي خلّده استشهاده حتى أصبح أسطورة الخليل.. كان السكون يملأ جنبات بيت آل القوادري، بعدما جاء أهل المدينة ليعزّوا الحاج إبراهيم في ولده عريس الشهداء.. جلس الحاج إبراهيم قرب شرفة غرفته وهو يقرأ القرآن بصوته الرخيم، وأخذ يردد قول الله تعالى من سورة الحج (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) بينما كانت عيناه تفيضان بالدموع وهو يحاول كتمانها.. فدخل عليه غسان وقد ظهرت عليه آثار التعذيب، وهو يمشي بعصا بعد أن كسرت إحدى ساقيه، ونظر إليه بوجهه المليء بالسحجات وآثار الضرب، بينما كاد أن يفقد إحدى عينيه.. وقال له بصوت بهيج:

– لقد أتت أمينة ومعها "مصطفى".

فالتفت الحاج إبراهيم بلهفة ووضع المصحف على منضدة أمامه وهمّ من مكانه، فدخلت أمينة وهي تحمل ابنها الوليد وقد سمته "مصطفى" على اسم الشهيد.. فمالت على أبيها ووضعت ابنها على حجره وهي تقول:

– انظر إلى حفيدك يا أبي.. إنه يحمل الكثير من ملامحك.

فنظر إليه بعينين مليئتين بالدموع ورد بصوت متحشرج:

– بل إنه يشبه البطل مصطفى كثيراً.

فضمه إلى صدره وهو ينظر على ملامحه الملائكية وهو يبتسم له.. وأكمل قائلاً:

– ليتك رأيت البطل.. ليتك تعلمت منه.

فردت أمينة بقوة:

– لقد نذرت مصطفى ولدي للمقاومة.. وما أن يشتد ذراعه سيحمل السلاح ويكمل مشوار خاله وأجداده ليحرر أرض فلسطين.

فدخلت عليهم زينة وهي متشحة بالسواد تحمل صينية القهوة لجدها، وهي تكتم دموعها داخلها.. كان وجهها الشاحب الحزين يحاجي كل ما بداخلها دون أن تنطق.. وما أن وضعت القهوة على المنضدة حتى هرعت إلى حجرتها، فلحقت بها أمينة.. فوجدتها تبكي بحرقة بجوار صورة مصطفى وهي تحتضنها بقوة.. فمالت عليها أمينة ووضعت يدها على رأسها وقالت:

– لقد كنت أعرف ما كان بينكما.. لقد كنت أقرب إليه من أي أحد.. إنه لم يعشق شيئاً في حياته مثل فلسطين وأنت.

فنظرت إليها زينة بعينين حمراوين وقالت بصوت ضعيف:

– لم يكن مصطفى بالنسبة إليّ الحبيب فقط.. لقد كان كل شيء في

تلك الدنيا.. فقد تعلمت منه العزيمة وحب الجهاد.. تعلمت منه كيف أحب وطني وأحب الناس.. منذ أن كنا أطفالاً وهو لم يتركني لحظة، لقد كنا نكبر ويكبر حبنا معنا، فلم أر في الدنيا أحداً مثله.. لقد كان رائعاً في كل شيء.

فاحتضنتها أمينة بقوة ومسحت دموعها.. وقالت لها:

– وهو الآن يريد أن يراك سعيدة من أجله.. مصطفى مات شهيداً وهو الآن في الجنة.. لقد ضحّى بحياته من أجلنا ومن أجل فلسطين.

عادت أمينة إلى منزلها وهي تحمل رضيعها بعد أن اطمأنت على أبيها.. فدخلت إلى المنزل فوجدته هادئا، فظنت أن نزار خارجه.. فاقتربت من حجرته ونظرت خلال الباب الموارب.. فأصابتها الصاعقة وهي لا تصدق ما ترى.. أخذت تحملق بعينيها، فوجدت نزار جالساً على الأرض وهو يمسك بجهاز لاسلكي ويقوم بإرسال بعض الإشارات وهو يهذي ببعض الكلمات العبرية.. فشعر بخطواتها وانتفض من مكانه مذعوراً وصرخ فيها قائلاً:

– ماذا تفعلين هنا؟ وكيف دخلتِ إلى هنا؟!

فاحمرّ وجهها من هول المفاجأة وسارت الرعشة بجميع أطرافها وردت مذهولة:

– بل ماذا تفعل أنت؟! ماذا تفعل بجهاز لاسلكي في بيتنا؟! أليس ذلك مثل ما يحمله جنود الاحتلال؟!

فرد نزار بصوت عالٍ:

– بلى هو.. إنهم يساعدونني.

فصرخت أمينة:

– أنا لا أصدق ما أسمع.. لقد عشت عمري كله مع خائن!
– وكيف تظنينا سنعيش؟! كيف سأصرف على هذا البيت وذلك المولود الجديد؟!
– ولكنه مال حرام.. وأنا لن أقبل على بيتي وولدي مالاً حرامًا.

فرد نزار بعنف:

– أنا لن أسمح لك بأن تضيعين ما قمت به.
– أنت خائن وملعون.. أنت محرّم عليّ وعلى بيتي ليوم القيامة.. يجب أن أبلغ عنك.. أنت أحقر من أن تعيش بيننا.

فدفعها نزار بقوة فسقطت على الأرض، وقال لها بلهجة تهديد:

– لو نطقت بكلمة سوف أقتلك.

وفرّ مسرعًا إلى مركز القيادة وهو يتلفّت حوله، حتى كاد أن يتعثر في الطريق أكثر من مرة.. بينما اتشح وجهه باللون الأصفر وزاغت عيناه، فدخل إلى الميجور دان وهو ينتفض من الرعب.. فنظر إليه بدهشة قائلاً:

– ماذا حدث؟

فرد نزار وهو يحاول أن يبتلع ريقه:

– كارثة سيدي.. كارثة.. لقد كشف أمري.. فقد دخلت زوجتي ورأتني وأنا أستخدم جهاز الإشارات.

فاحمرّ وجه الميجور وغلى الدم في عروقه وصفعه على وجهه بقوة، وقال:

– أنت غبي.. كيف تعرّض هذا الأمر للخطر.. لقد ضيعت مجهود سنين.

فتلعثم نزار ورد:

– أنا آسف سيدي.. ولكن...

فأمسك الميجور بقميصه ودفعه إلى حائط وقال:

– لقد أصبحت عديم الفائدة ويجب التخلص منك.

ونادى بصوت جهور على اثنين من الجنود وقال بقوة:

– خذوه من هنا وألقوا به في السجن حتى نتخلص منه.

فأصيب نزار بالذعر وسقط على الأرض وهو يصرخ بطريقة هستيرية:

– أرجوك سامحني.. لقد خدمتك لسنوات وسنوات؛ لا تعذبني.

فسحبه الجنود من قدميه وهو يتلوى على الأرض ويهذي بصوت مريض:

– أرجوك.. اتركني.. اتركني.

***

آخر ليلة

عاد الدكتور ماكلين إلى منزله في ساعة متأخرة.. وبينما كان يصعد على السلالم سمع صوتًا هامسًا ينادي عليه.. فالتفت مسرعًا وهو يبحث عن مصدر الصوت في الظلام، وهو يرد بقوة "من؟ من؟!" فخرج إليه شخص، أمعن الدكتور ماكلين في ملامحه حتى تداركه.. كان دانيال قد تحرك ببطء نحوه، وهو يتكئ على عصا ويحمل في يديه كتابًا وقال له:

– دكتور ماكلين.. أريد التحدث معك على انفراد دون أن يراني أحد.

فارتسمت على ملامحه الدهشة للوهلة الأولى إلا أنه أدخله المنزل.. فأخذ يجر دانيال قدميه حتى وصل إلى أقرب كرسي وجلس.. فاقترب منه الدكتور ماكلين بهدوء وقال:

– ماذا تحب أن تشرب؟
– أشكرك.. ولكنني في غاية العجلة.. الأمر لا يحتمل.

فازدادت علامات الدهشة على وجهه.. فأكمل دانيال وهو يمد يده بالكتاب قائلاً:

– هذا أخطر ما يمكن أن تجده هنا في إسرائيل.. إنه "بروتوكولات حكماء صهيون".

فانتبه الدكتور ماكلين واتسعت مقلتاه.. وأخذ منه البروتوكولات بلهفة وقال:

– كيف حصلت على تلك الوثائق؟ العالم كله يبحث عنها.

فأكمل دانيال:

– ليس المهم كيف حصلت عليها.. ولكن الأهم ماذا تحتوي. إنها تضم خططًا لتدمير العالم.

فأمسك بها الدكتور ماكلين وهو يقلب في صفحاتها، ورد بصوت متحشرج:

– هذا ما يطبقه سياسيو العالم المتطرفون بالحرف.
– وأولهم متطرفو إسرائيل.

فارتعش الدكتور ماكلين وتصلبت أطرافه حتى سقط على الكرسي من هول المفاجأة.. فنظر إليه دانيال بحسرة وأكمل:

– لقد أصبحنا نعيش في جحيم. إنها ليست إسرائيل التي أتينا من شتات العالم كي نحقق فيها حلمنا.. وليست واحة الحرية والسلام كما ادّعوا.. فلا يوجد هنا سوى التعصب والكراهية والدم والنار.. إسرائيل أصبحت تأكل أبناءها وتحرق كل ما حولها.. الحلم الذي عشنا من أجله هنا أصبح سرابًا.

فصمت الدكتور ماكلين وهو يستمع لدانيال، بينما كانت ملامح وجهه مشتعلة وكل أعصاب جسده متنافرة.. وقال بملامح

مضطربة:

– يجب أن تخرج تلك البرتوكولات إلى النور، ويعرف العالم مدى الدمار المقدم عليه.

فأكمل دانيال:

– لا بد أن تترجم إلى العربية ويقرؤها كل عربي وحتى غير عربي.. يجب أن تنشرها في كل مكان وتصبح حديث الرأي العام العالمي.

فأمسك الدكتور ماكلين بالبروتوكولات بقوة، بينما همّ دانيال بالوقوف وهو يستعد للرحيل.. فحاول مساعدته فابتسم دانيال قائلاً:

– لا تهتم بي.. فأنا سأعود مثلما جئت.. أما أنت فاعتنِ بنفسك.. أرجوك دكتور ماكلين.. ارحل من هنا في أسرع وقت ممكن.. لقد أصبح وجودك هنا في غاية الخطورة.. ارجع إلى وطنك فهو أسلم لك.

وما أن نزل دانيال خفية في الظلام.. حتى أخذ الدكتور ماكلين يقلب في المستندات بتلهف وهو يحملق في السطور، وكأن النيران تشتعل منها، فألقى بها على الأرض بقوة وأخذ يهذي قائلاً:

– يبدو أن تلك هي النهاية.. فلم يعد لك مكان هنا يا ماكلين.

لم تسطر خيوط شمس اليوم التالي أنوارها حتى هرع الدكتور ماكلين إلى مكتب بن أهارون في التاسعة صباحاً.. فما رآه حتى

أصابته الدهشة وقال ضاحكًا:

– ما الذي أتى بك في ساعة مبكرة هكذا؟!

فصمت الدكتور ماكلين قليلاً ثم رد:

– لقد جئت في أمر أتمنى أن تساعدني عليه.

فازدادت دهشة بن أهارون، فأكمل الدكتور ماكلين وهو يخرج ورقة من جيبه:

– لقد جئت اليوم لأقدم استقالتي.. وأتمنى أن تقبلوها بسرعة.

فانتفض بن أهارون من مكانه وكأن شيئًا قد لسعه، ورد بقوة:

– هل حدث شيء ما؟ نحن هنا كلنا نعمل على راحتك عزيزي ماكلين!

فابتسم الدكتور ماكلين ورد بهدوء:

– بالعكس.. صدقني لقد قضيت هنا وقتًا من أجمل الأوقات.. ولكنني فضّلت الاعتزال.. وسوف أعود إلى شيكاجو قريبًا.

فارتبك بن أهارون واهتزت يده وهي تلتقط ورقة الاستقالة وتردد قليلاً، ثم قال:

– على العموم هذا الأمر ليس بيدي وحدي.. سوف أستشير مجلس الكلية وسوف نتخذ القرار سريعًا.

فابتسم الدكتور ماكلين وقال:

– آمل في ذلك.

وما أن رحل الدكتور ماكلين حتى طار بن أهارون إلى مكتب إبرام بالشين بيت.. فدخل عليه وهو يلهث من التعب وفي يده ورقة الاستقالة.. وقال بصوت مرتعش وملامح مكفهرة:

– أرأيت ما فعله ماكلين؟ إنه يريد الاستقالة والرحيل من هنا!

فنظر إليه إبرام والشرر يخرج من عينيه، وأخرج مجموعة من الأوراق من مكتبه، وأخذ يلوّح بها قائلاً:

– إنه يريد تدميرنا.. إنه يقوم بمراسلة أحد تلاميذه ويُدعى "جون مارتن" يعمل في الأمم المتحدة، يخبره بكل ما يحدث هنا في إسرائيل.. ليس ذلك فحسب، بل الأخطر من ذلك أنه يراسل جمعيات حقوقية في الولايات المتحدة، ويرسل لها مقالات وصور وفيديوهات لكل ما يجري في المظاهرات هنا.. إنه يصوّرنا على أننا وحوش ضارية ويجب محاسبتنا دوليًا.

فارتعشت أطراف بن أهارون وسقطت منه ورقة الاستقالة، بعد أن ضربته الصاعقة، وقال:

– أنا لا أصدق.. شخص بثقل ومكانة جيمس ماكلين في العالم عندما يتحدث سيكون له صداه وتأثيره والكل سيصدقه.. بدلاً من أن يكون صوتًا لنا في العالم.. أصبح يكشف كل أسرارنا وسيقلب الرأي العام العالمي ضدنا.

فرد إبرام وهو يشتعل غضبًا وأخذ يصرخ قائلاً:

– ما أن وصلتنا تلك التقارير والشين بيت كله في حالة ارتباك.. لم نتوقع أن تصل به الجرأة إلى أن يفضحنا عالميًا.. هذا الملعون يريد أن يدمر كل ما نقوم به.. إسرائيل في خطر بسببه.

فصمت بن أهارون وهو يغمغم، فأكمل إبرام:

– منذ البداية وأنا أرى أن هذا الشخص يعبث بأمن إسرائيل ومصالحها.. ولكن جاء الوقت كي أوقفه عند حده.. ستكون نهايته على يدي.. عرفت الآن لماذا يريد أن يترك الجامعة؟

وأمسك الورقة وأعادها إلى بن أهارون وقال له:

– وافق له على الاستقالة، ولكن بعد أن تضيع بعض الوقت حتى نستطيع أن نستعد له.

فارتسمت على وجه بن أهارون ملامح القلق.. فنظر إليه إبرام بعينين ناريتين وقال بتحدٍ:

– لا تستبعد عزيزي حاييم أن تتم تصفية هذا الرجل.. فلقد أصبح خطرًا على وجودنا.

***

الأحد ٤ أبريل ٢٠٠٤

هذا اليوم لم يكن يومًا عاديًا بالنسبة إلى الدكتور ماكلين.. فقد كان هو آخر يوم له في الجامعة العبرية وفي إسرائيل كلها، والذي سماه في مذكراته "يوم الوداع".. لم تذق عيناه ليلتها طعم النوم وظل ساهرًا طوال الليل، يمر أمام عينيه شريط بكل ما رأى في إسرائيل.. منذ أن وطأت قدماه مطار بن جوريون وشوارع القدس العتيقة.. يوم مر فيه بقبة الصخرة ورأى المصلين اليهود أمام حائط المبكى.. عندما وقف أمام تمثال العذراء بكنيسة القيامة.. ذكرياته في مباني الجامعة العبرية وأروقتها.. مصطفى القوادري ورحلة الخليل وآشيرا وشلة البار ودانيال وآراءؤ.. مشاهد المظاهرات من ضرب واضطهاد للفلسطينيين، ومنظر استشهاد الشيخ ياسين.. كل ذلك مر أمامه كالطيف في الخيال.. وكأنها لحظات من عمره مرت كالوميض.. قام بعدها يحزم أغراضه في حقائبه استعداداً للرحيل، وأخذ يلملم أشياءه المتناثرة في الشقة.. فأمسك بصورة زوجته ليندا، وأخذ يتأمل ملامحها وهو يتنهد بقوة، حتى كاد أن يشتعل صدره، وقال بصوت ضعيف:

– لقد آن الأوان أن أرحل يا ليندا.. فلم أجد نفسي هنا.. لقد اشتقت إليك بجنون، وها أنا سوف أعود إليك سريعًا.

ثم حملها برفق حتى وضعها في الحقيبة.. وبينما كان يحضّر ملابسه عثر على الشال الفلسطيني الذي كان قد أهداه له مصطفى.. فأمسكه بقوة وقربه من أنفه وهو يتشمم رائحته فيه.. رائحة شوارع الخليل وذكرياته.. رائحة البيوت وأشجار الزيتون والياسمين.. رائحة الدم والمقاومة وشباب يقدم نفسه فداءً لوطنه.. رائحة الحاج إبراهيم وهو يعانقه ويودعه ودموعه تنهمر

على لحيته البيضاء.

حمل الدكتور ماكلين حقائبه وهو يرمق الشقة بعد أن أصبحت خاوية.. ونزل إلى الشارع مستقلاً سيارته وهو يحملق في المارة والمحال والمقاهي، ووجوه الناس كأنها تودعه. حتى وصل إلى مبنى الجامعة العبرية.. فأخذ يرمق المباني والطلبة وكأنها آخر مرة سيراهم فيها.. دخل إلى الفصل فوجد عدد الطلاب كاملاً.. فأخذ يحملق فيهم وهو ينظر إلى كرسيي مصطفى ومريم الخاليين، ثم قال بصوت ضعيف:

– هذه المرة.. هي آخر مرة سترونني فيها هنا.. أتمنى لو كنت قد استطعت أن أفيدكم بشيء طوال تلك المدة.. ومع ذلك فقد تعلمت أنا منكم أشياء عديدة.. لا تتعجبوا من ذلك.. فقد قضيت معكم وقتًا من أسعد أوقات حياتي وهي ما لن أنساها أبدًا.. أتمنى لكم حظًا سعيدًا وأن تحققوا كل ما تتمنونه.

وما أن أنهى كلامه وخرج من الفصل حتى خرج جميع الطلاب خلفه متدافعين كي يسلموا عليه.. وفي وسط هذا الزحام رأى الدكتور ماكلين دانيال يقترب منه متكئًا على عكازه.. فمال إليه وهو يحتضنه بقوة.. فقال له دانيال والدموع تملأ عينيه:

– أنت لا تعلم كم أثرت فينا؛ أرجوك اعتن بنفسك.

فرد عليه منفعلاً:

– طمنّي عليك دائمًا.. أريد أن أسمع أخبارك.

وما أن خرج الدكتور حتى وجد صوتًا صارخا يناديه من بعيد.. فاستدار خلفه فوجد آشيرا تسرع نحوه وهي تحتضنه بجنون، وتحملق في ملامحه، وقالت بصوت مهزوز:

– سأشتاق إليك جداً.. أرجوك لا تغب عنا كثيراً، فالجامعة لن يكون بها حياة من دونك.. بل إسرائيل كلها.

فابتسم بهدوء ووضع يده على كتفها ورد قائلاً:

– وأنا أيضًا.. أنت لا تعلمين كم أنت جميلة!

خرج الدكتور ماكلين من مبنى الكلية والجميع من خلفه يودعونه، بينما كان بن أهارون ينظر إليه من خلف زجاج مكتبه من بعيد.. أخذ الدكتور ماكلين يسير في الفناء وهو يلقي نظرة الوادع عليه، ونظر إلى أعلام الكلية وعلم إسرائيل كأنها أول مرة يدخل فيها الجامعة.. وما أن دخل إلى سيارته وأدار المحرك.. حتى انفجرت السيارة انفجارًا رهيبًا، وتطايرت أجزاؤها في الهواء، وتناثرت أشلاء جسده وغطت دماؤه المكان.. هز الانفجار أركان الجامعة وأسقط الواجهات الزجاجية.. وخرج الطلاب والأساتذة مذعورين إلى مكان الحادثة.. وما أن رأت آشيرا المنظر حتى أصابتها حالة هستيرية وأخذت تصرخ بصوت جنوني:

– لاااا.. فعلوها الملاعيييين.. لا تمت يا دكتور ماكلين.

فاحتضنها دانيال وهو يبكي بحرقة والدموع تغطي وجهه، وملامح الحسرة والألم تعتصره، وهو لا يصدق ما يرى أمامه..

اشتعلت النيران لتلتهم كل شيء، بينما سقط اللاب توب الخاص به بعيداً، بعد أن تناثر إلى أشلاء مثل صاحبه.. دمرت صحفات مذكراته، ولكنها طارت بأجنحة تحمل معها كلمات السلام والحب والأمان.. تلك الكلمات التي أخذها من التوراة والإنجيل والقرآن الكريم.. لم يستطع تحقيق حلمه الذي عاش عمره كله يحاول تحقيقه، هو أن يعيش الناس في سلام.. ولكن أفكاره تناقلت بين تلاميذه كالريح حتى بعد وفاته.. سقط جسده في الأرض التي عشقها طوال عمره، وكأنه كان يتمنى تلك اللحظة التي يحتضن فيها تلك الأرض.. أرض السلام.

– رغم وفاة مريم.. استمر يعقوب في جشعه وطمعه وكنزه للمال، وعاد للنصب على العرب واستغلالهم.. في الوقت الذي أصابت أمها حالة من الاكتئاب ورفض الحياة في المستوطنة.. فكل ما فيها يذكرها بابنتها التي ماتت أمام عينيها.. وأصرت أن تنتقل هي وأبناؤها الصغار إلى مستوطنة "رامات راحيل" جنوبي القدس، في حين بقي يعقوب في هارحوما وحده بين أعماله وأمواله.. وإن كان كلما نظر في صورة مريم انهمرت الدموع من عينيه وتحسس ملامح وجهها بأنامله.

– تم فصل موشي من الخدمة في سلاح الطيران وحكم عليه بالسجن ٣ أعوام وتجريده من رتبته العسكرية، بتهمة العصيان وعدم إطاعة الأوامر العسكرية، وهو حكم مخفف نتيجة تدخل الجنرال ليفي، بعدما أعدّه ليس في حالته الطبيعية.. ولم يكن طرده من الجيش أقل صدمة من انتحار أخته القريبة إلى قلبه.. فقد افتتح مطعماً للباستا في القدس بما تبقى لديه من مال، وسماه باسمها "مطعم مريم"، ووضع صورتها شعاراً للمطعم، وأصبح يقدم الأطباق التي كانت تحبها.. وعاش في شقة قريبة من المطعم وحده.

– استمر عساف في نشاطه كمروج للمخدرات، ونشط بشكل ملحوظ بين أوساط الشباب، محققًا أرباحًا خيالية، وأصبح له زبائن من أغلب سكان هارحوما والقدس، بل في أغلب إسرائيل.. ولكن طمعه وغباء نعوم جعلاهما يقعان في براثن بعض التجار الكبار، حتى كاد أن يُقتل أثناء إحدى العمليات، في حين أصيب نعوم إصابة بالغة أصابته بالشلل.

– لم يكن هناك ذنب اقترفه ديفيد في حياته بقدر فقدانه لنسخة "بروتوكولات حكماء صهيون".. فرغم أنه عاش طريدًا أغلب أوقاته من الشرطة، يتنقل من منطقة إلى أخرى ومن سكن إلى آخر.. لكن مشكلته الكبرى كانت مع جماعة كاخ.. فقد تم نبذه من الجماعة وأصبح دان وعومير هما القائمان بأعماله.

– نجح دانيال في ترقي سلم الصحافة كما كان يحلم، رغم ما وجده من حرب ضروس أمام مبادئه الثابتة في الدفاع عن السلام والتآخي مع العرب.. كما أقام جلعاد عددًا من المعارض الكاريكاتورية الساخرة، وأصدر مجلة كاريكاتورية محلية، والتي أيضًا لاقت صدامًا مع السلطة ولكنهما أصرا على استكمال الطريق.. إلا أن أهم ما قام به دانيال هو أنه أخذ على عاتقه ترجمة "بروتوكولات حكماء صهيون" للعربية، ونشره بسرية في أوساط المثقفين العرب باسم مستعار، مستكملاً رحلة الدكتور ماكلين.

– لم يكن هناك اختيار أمام آشيرا سوى الاستمرار في نفس الطريق الذي لم تعرف غيره.. فرغم كون الدكتور ماكلين نقطة مضيئة في حياتها لكن ضغوط الشين بيت وإغراءاته كانت أقوى منها.. وظلت أداة طيِّعة ونموذجًا لسلاح الجنس يستخدمونها ضد أي عدو لهم.

– بن أهارون.. هو المسيطر الأول على الجامعة العبرية والحياة العامة في القدس.. ظل يبث أفكاره بين الطلبة وفي وسائل الإعلام للرأي العام الإسرائيلي، باعتباره مفكرًا ومحللاً، ليبرهن للعالم مدى مصداقية

الصهيونية العالمية وحق إسرائيل في الأرض.. وبفضل الوثيقة التي حصل عليها من باركر نجح في الذهاب إلى العراق والحصول على أملاك عائلته القديمة في الموصل، ويمد ذراعًا لليهود مرة أخرى في بلاد الرافدين.

– مثلما كان بن أهارون هو المسيطر السياسي على الأوضاع.. استمر إبرام في السيطرة الأمنية على كل شبر في القدس وإسرائيل كلها، بعدما تمت ترقيته لرتبة "تات آلوف".. يضع البلاد في قبضة من حديد ويفتح سراديب المعتقلات في وجه الفلسطينيين، ويسحق كل من يعارض الرأي في إسرائيل، على عكس ما يظهر على السطح بأنها بلد الديموقراطية.. إلا أنه كان على رأس المطلوبين من رجال المقاومة، ونجحوا في إحدى العمليات في ضرب موكبه بالقدس، ما جعله يفقد إحدى ساقيه.

– أخرج بيت القوادري عدداً من الأبطال الذين أكملوا طريق المقاومة.. وأصبح مصطفى الصغير ملازمًا لعمه غسان في العديد من عمليات المقاومة، يحمل معهم السلاح وينقله لمواقع العمليات، وهو يرى أمامه عمه الذي استشهد قبل مولده.. بل أصبح يحمل تقاسيم وجهه وملامح شخصيته.. وأصبح يتمنى أن يقابله في الجنة.